# خرائطُ الوصولِ

الخمايسي، أشرف.

خرائط الوصول تأليف/ أشرف الخمايسي

التصنيف: كتاب

21 سم، 301 ص.

تدمك: 9789776959958

التدقيق اللغوي : د. مريم عبد الجواد

الإخراج الفني:

يوريكا لخدمات النشر والتوزيع

تصميم الغلاف: عبد الرحمن خلف

EUREKA
Eureka4publishing
حلّق خارج السرب

01288627690

eureka4publishing@gmail.com

الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2022/7627

جميع الحقوق محفوظة و يحظر طبع أو تصوير أو تخزين أى جزء من
الكتاب بأية وسيلة من وسائل تخزين المعلومات إلا بإذن كتابى صريح من
الناشر

# خرائطُ الوصولِ

## الإسلام مُستقبَلًا

أشرف الخَمايسي

كأنِّي بمُحمَّد ﷺ قد نظر إلى السَّماء، مُستشرفًا المستقبل، فيما يقول لمن يجلسون حوله: وددت أنِّي لقيت إخواني؛ فيسألونه: أَوَ ليس نحن إخوانك؟ فيجيبهم: بل أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني.

أُهدي هذا الكتاب لمن آمنوا بمُحمَّد ولم يروه.

قال أبو بكر الصِّدِّيق: أينقص الدِّينُ، وأنا حَيٌّ!

# الفصل الأوَّل

الأحاديث الشَّريفة الحاضَّة على تآزر المسلمين . وجوب التَّناصح بين المسلمين . التَّعريف بكتاب «خرائط الوصول». أنواع التَّطرُّف . تساؤلات حول العلم . العلم في الإسلام . تحديث الفقه . العلمانية والدين.

من بين أروع المقولات المنسوبة للنَّبيّ مُحمَّد ﷺ جملة اعتراضية تلك التي حَضَّ بها على حَتميَّة اهتمام المسلم بأمر أُمَّته، وإذا لم يفعل، فهو ليس منها. وحافظة السُّنَّة ـ كتب الأحاديث النَّبويَّة ـ تضمُّ عددًا لا بأس به من الأحاديث في هذا المعنى، مثل الحديث الذي يصف المسلمين بأنَّهم بنيانٌ مرصوص، يشُدّ بعضُه بعضًا[١]. وشَدُّ الأزر أحد مظاهر الاهتمام بشؤون المسلمين؛ وحديث آخر يشترط بلوغ المسلم درجة الإيمان بأن يُحبَّ لأخيه المسلم ما يُحبّه لنفسه[٢]. والحُبّ العطوف أحد مظاهر الاهتمام بشؤون المسلمين؛ هذا غير الحديث الشَّهير الذي يُصوِّر أُمَّة الإسلام جسدًا واحدًا، إذا اشتكى منه عضوٌ تَدَاعى له سائر الأعضاء بالسَّهر والحُمَّى[٣]. والتَّداعي التَّشاركيّ أحد مظاهر الاهتمام بشؤون المسلمين؛ وهناك حديث يُعرِّف الدِّين بأنَّه النَّصيحة[٤]. وتبادُل

---

١- "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا" . رواه البخاريُّ ومسلم.
٢- "لا يؤمن أحدكم حتَّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه". رواه البخاري ومسلم.
٣- "مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى". رواه البخاريُّ ومسلم.
٤- "الدّين النَّصيحة". رواه البخاريُّ ومسلم.

النُّصح مظهرٌ رشيق من مظاهر الاهتمام بشؤون المسلمين.. وغيرها من الأحاديث في ذات المعنى كثير.

على ما سبق لا مفرَّ للمسلم، صحيح الإيمان، من الاهتمام بأمر الإسلام وأهله.

وقد رفلت أُمَّة الإسلام لقرون طويلة، على ما ظهر فيها من دَخَن، في سَرَّاء العِزِّ، بصفتها سَيِّدة العالم، وبوصلة رشاده وتقدُّمه: رشاده الأخلاقيّ، وتَقدُّمه التِّقنيّ؛ غير أنَّ ذاك العِزّ زال، وظهرت الضَّرَّاء في البَرِّ والبحر بما كسبت أيدي المسلمين، فوجبت النَّصيحة وجوبًا أكيدًا، على كُلِّ مَنْ يملك أدوات النُّصح.

وقد حباني الله جَلَّجَلَالُهُ من الأدوات بقلم وكلمات، وبعض من قدرة على البحث والتَّأويل، وبِنَذرٍ من امتلاك الفكرة، ومحاولة طرحها بأسهل تعبير، لتخرج نصيحتي لأُمَّة الإسلام في هيئة هذا الكتاب الذي بين أيديكم.

وهو الكتاب الذي لا أضعه وَعظيًّا، يعتمد أسلوب: «قال الله، قال الرَّسول»؛ فأنا هنا لستُ خطيبًا على منبر أحد المساجد.

كما لا أضعه فقهيًّا يبحث في النُّصوص الإسلاميَّة؛ لأنَّ علماء الفقه القادرين على ذلك تذخَر بهم الأُمَّة، ومع ذلك أرجو أن يُقدِّم لهم بعضُ ما جاء في هذا الكتاب عَونًا جادًّا إذا هم أقدموا على المُنتظَر منهم في تجديد ما يلزم تجديده من مفاهيم فِقهيَّة لم تعد قادرة على مواكبة لطبيعة الإسلام ذات الطَّاقة التَّقدُّميَّة الهائلة.

هو، إذن، كتابٌ فكريّ، يستعرض باقةً من المُؤسَّسات الجديدة، ربما على مسلم الألفيَّة الثَّالثة الارتكان إليها في ظِلِّ مُتغيِّرات فَلسفيَّة يفرضها تَطوُّرٌ عِلميٌّ جَبَّار، لا يني يعصف في وجوهنا بأدلَّة نظَريَّة مُلتهبة، في صورة براهين عَقليَّة، تُصِرُّ على ضرورة تنَحِّي الدِّيني عن قيادة البَشريَّة لصالح العَلمانيِّ، من ناحية؛ ومن ناحية أخرى تطَوُّرٌ مُخيفٌ للخطاب الدِّينيّ العنيف؛ ولا نقصد بالعنف هنا عنف الجماعات الإسلاميَّة المُسلَّحة، بل نقصد العنف الفِقهيّ، الذي يقرأ النُّصوص المُقدَّسة بتعسُّف، فيُضيِّق على المسلم وسع الحياة ورحابة العيش.

هكذا لدينا نوعان من التَّطرُّف: عَلمانيٌّ، ودِينيٌّ.

أمَّا العَلمانيّ، فيسعى جاهدًا إلى تنَحِّي الرُّوح لصالح العقل، إلى تنَحِّي الحكمة لصالح الفلسفة. أن تتنَحَّى الآخرة لصالح الدُّنيا، أو بالأخير، وبعبارة قاسية: تنحية الله لصالح الإنسان.

وهكذا يُستغَلّ العلم في هَجْمة شرسة على كُلِّ ما هو دِينيّ، بزعم أنَّ العِلميَّ هو الملموس الذي لا مراء فيه؛ فهو الواقعيَّة، لا الميتافيزيقيَّة. هو التَّجربة، لا التَّخمين. هو الإنجازات العينيَّة المُحقَّقة على الأرض، لا الوعود المُقدَّسة المأمول تحقيقها في عالمٍ غَيبيٍّ. هو القانون الإنسانيّ النَّاتج عن قرائح بشريَّة تتفهَّم مطالب جنسها، لا الشَّرائع الإلهيَّة الفوقيَّة.

بالمُجمَل، تؤكِّد العَلمانيَّة على أنَّ الحياة أفضل كثيرًا بالعلم، لا بالإيمان. وإذا كان لا بُدّ من هذا الأخير ـ الإيمان ـ فليكن شيئًا للفرد، لا شيئًا للمجموع. شيئًا يخصّ الذَّات، لا يخصّ المجتمع.

شيئًا تقتنيه، لا يقتنيك. بعكس العلم الذي هو المجتمع، وهو المِلكيَّة العامَّة، وهو الوَطنيَّة، له أن يملكك، بل يتوَجَّب عليك الانتماء له؛ لأنَّه وسيلة تحرُّرك من وهم الخزعبلات الدِّينيَّة، وسبب سعادتك بمنجزاته المادِّيَّة التي بين يديك حقيقة.

فإذا كان الأمر كذلك، فلنا أن نسأل سؤالًا عَفويًا: ما الذي أنجزه االعلم ليستحق من الإنسان الإيمان به بديلًا عن الدِّين؟

والإجابة:

لقد أنجز الكثير جِدًّا من الأمور التِّقنيَّة: وسائل مُتطوِّرة يَسَّرت كثيرًا من حياة البشر.

هل من مُنكِر أنَّ السَّيَّارة، والقطار، والطَّائرة، والباخرة، وسائل مواصلات يسَّرت الانتقال بزمن ومجهود لا يمكن مقارنتهما بالزَّمن والمجهود المبذولين قديمًا في التَّنقُّل؟

هل من منكر أنَّ الطِّبَّ صار قادرًا على إجراء أدقّ العمليَّات الجراحيَّة، وإعداد الأدوية، ومختلف اللقاحات، للمرض الواحد؟

هل من مُنكر أنَّ العلم اخترع التِّليفزيون، والإذاعة، وأدوات الطِّباعة، ولا يزال يُطوِّرها؟

هل من منكر أنَّه لَطَّف من سخونة مشاعر القلق والافتقاد، باختراعه هواتف نقَّالة، تكاد تكون بحوزة كلِّ إنسان على وجه الكرة الأرضيَّة؟

هل من منكر أنَّه تسبَّب في تفجير ثورة معلوماتيَّة، عبر ابتكاره

لتقنيَّات الشَّبكة العنكبوتيَّة الذَّاخرة بمعلومات في جميع العلوم، بضغطة زرٍّ يمكن للباحث استدعاء ما يرغب في بحثه من معلومات؟

هل من منكر أنَّ العلم طوَّر من وسائل التَّواصل الاجتماعيّ، حتَّى إنَّ الإنسان في نهاية العالم، غربًا أو شمالًا، يمكنه التَّواصل مع الآخر في نهاية العالم، شرقًا أو جنوبًا، فجعل العالم مهولَ الاتِّساع مُجرَّد قرية صغيرة؟

هل من منكر أنَّه إذا شئنا ذِكْر جميع مبتكرات العلم، في جميع المناحي الإنسانيَّة، ربما نحتاج إلى ما يزيد عن عشَرة كتب ـ في حجم كتابنا هذا ـ ؛ لتدوين عناوينها فقط، دون تفاصيلها؟

لكن؛ وبالمقابل:

هل من منكر أنَّ جميع ما قدَّمه العلم من منجزات لم يمنح الإنسان شيئًا حقيقيًّا من السَّعادة المأمولة، بل زاد من تعاسته؟

فوسائل المواصلات الحديثة لا تزال غير قادرة على منع الإنسان المعاصر من الإحساس بقلق السَّفر ووعثائه، حتَّى وهو يجلس في درجة رجال الأعمال على أفخم رحلة طيران. وأمَّا ما صاحب المسافر القديم في رحلة سفر تستغرق ثلاثة أشهر طويلة من قلق فهو نفسه القلق الذي يصاحب مسافرنا المعاصر في رحلة سفر تستغرق ثلاث ساعات طويلة! وحتَّى الخوف، المُتعلِّق بالأمن والسَّلامة، لا زال يضغط أعصاب المسافر العصريّ كما كان يضغط أعصاب المسافر القديم، وإن اختلفت الأسباب والنِّسب بعض الشَّيء، لكن يبقى السَّفر رحلة شاقَّة غير آمنة.

والطِّبّ ـ بكُلّ تطوُّراته ـ لم ينجح بعد في منع ظهور أمراض وأوبئة جديدة وغريبة وجائحة؛ بل في ظلِّ تطوّراته تتفَشَّى أمراضٌ مُستجدَّة بالغة الذَّكاء، تُحسِّن قدراتها الهجوميَّة، فلا يملك العلم بصددها سوى محاولة حصار المرض؛ وإن نجح في القضاء على مرض ظهرت أمراض! فصار الطِّبُّ مثل رجل مُصاب بلوثة عقليَّة يمسك مِنَشَّة ذباب، يدور حول نفسه يهشُّ الذُّباب فيما الذُّباب يزداد كثافة.

ووسائل الإعلام ـ من تليفزيون وسينما وصحافة وغيرها من مُستجدّات إعلاميَّة ـ فقد سطَّحت المشاعر الإنسانيَّة، عندما دشَّنت ـ بالدُّراما ـ ظهورَ مشاعر إنسانيَّة مُفتعَلة؛ ولننظر، مثلًا، إلى طرق التَّعبير عن الحُبِّ في الأفلام والمسلسلات، وإلى طرق التَّعبير عنه على أرض الواقع، ولنقارن بينهما، ثُمَّ لنتأمَّل في تأثير ذلك الخداع على صحَّة وسلامة العلاقات العاطفيَّة الأُسريَّة.

ولننظر أيضًا كيف تُشوِّه تلك الوسائل حقيقة المجتمعات المتمايزة؛ فالصَّعيد في مصر غير الصَّعيد في الدّراما السينمائيَّة أو التِّلفزيونيَّة. ريف الدلتا في الدّراما ليس هو ريف الدلتا الذي نعرفه. حقيقة نمط الحياة المِصريِّ ليست هي على الشَّاشات؛ إنَّ ما يُقدَّم أشبه ما يكون بالتَّخريب المُتعمَّد؛ لنكتشف أنَّ الدّراما بدلًا من أن تقوم بالتَّعبير الموضوعيّ عن واقعنا المعاش، فإنَّها تُؤسِّس لتشكيل واقع بالغ السُّوء ومفزع.

ثُمَّ دور هذه الأدوات في تغيير طبائع ولهجات الكيانات المتمايزة داخل مصر، فلهجة الصَّعيد، أو لهجة فلَّاحين الدلتا، تتعرَّض للانقراض بسبب تفضيل الأجيال الطَّالعة اللهجة القاهريَّة،

بظنِّهم أنَّها لهجة المُتنوِّرين المُتمدِّنين، وأنَّهم حين يتكلمُّون بها ينضمُّون إلى أهل التَّنوُّر والتَّقدُّم! وكذا بالمثل في العادات والتَّقاليد.

هذا بخلاف توظيف أنظمة الحكم المُستبدَّة للإعلام في تدجين الشُّعوب، وجعلها قطعانًا تستكين لكلّ أنواع القهر السِّياسيّ، والاقتصاديّ، والاجتماعيّ، دون تحريك ساكن باتِّجاه تغيير واقعها المُرّ، وإذا فعلت مرغمة ـ وذلك عندما يتعَدَّى القهر النُّقطة الحرجة، كما جرى فيما يُطلق عليه اسم ثورات الرَّبيع العربيّ مثلًا ـ وقد قاربت القبض على حلمها في التَّغيير، ينتصر هذا الإعلام الحُكوميّ لسيِّده القديم، الدَّولة العميقة، ومن ثَمَّ يشارك بقوَّة في الفتك بإرادة الشُّعوب، واستعادة إذلالها.

أمَّا عن الهاتف، وغيره من وسائل الاتّصالات والتَّواصل الاجتماعيّ، فقد سَهَّل التَّواصل الآنيّ بالأعزَّاء، مِمَّن يهمّنا أمرهم، صوتًا وصورة، التَّسهيل الذي دُفِعت ضريبته تمييعًا للمشاعر، وتخفيفًا من كثافتها الشُّعوريَّة، فأين قوَّة ودفء مشاعر الأقدمين، ممَّن كانوا لا يملكون وسائل اتّصال فائقة السُّرعة، بل ربما احتاج التَّواصل بينهم إلى أسابيع وأشهر، وأحيانًا إلى أعوام، من قوَّة ودفء مشاعر المُحدَثين.

إذن، لا مجال للمقارنة.

كانت الرَّسائل الورقيَّة قديمًا (الجوابات)، وحتَّى وقت قريب، حواملَ حُبٍّ مُعطَّرة بالشَّوق واللهفة، فيها من نَفَس كاتبها وروحه، يُسمَع الأنين من بين سطورها، تعزف كلماتها نجواه

ومكابدته، سواء كان كاتبها أبًا، أو أُمًّا، أم أخًا، أم ولدًا، أم زوجة، أم حبيبًا؛ فأين تلك الجوابات من الرَّسائل الإلكترونيَّة القصيرة المعاصرة، المكتوبة بعجالة واستخفاف، بلا لوعة أو اشتياق، خالية من أحاسيس الشَّجن!

إذن؛ أفقدنا العلم، في مجال الاتّصالات، كثافة شعورنا، وتغلَّب قانون الاقتصاد، «فالعلاقات الإنسانيَّة ـ حتَّى علاقات الحُبّ ـ في الغرب (أضيف: وفي الشَّرق أيضًا) تحكمها قوانين السُّوق. فالكُلّ، سواء في الدَّولة، أو في المجال الاقتصاديّ والثّقافيَ والرَّياضيّ، حتَّى في العائلة والعلاقات الحميمة بين البشر، الكُلّ يبغي تحقيق أقصى درجات الرِّبح الممكنة في علاقاته»[٥].

وليت العلم قصر نشاطه عند اكتشاف الكون، ودراسة البشر والحيوان، واختراع الأجهزة المُعينة للإنسان، وتطوير الطِّب وخلافه من إفادات، بل وضع قدمًا راسخة في صناعة الأسلحة الحَربيَّة الفَتَّاكة، بحيث صارت قنبلة في حجم برميل زيت قادرة على مسح كامل الحياة من على الجزيرتين اليابانيَّتين الكبيرتين (هيروشيما وناجازاكي)، الآن قنبلة هيدروجينيَّة بحجم كفّ اليد قادرة على تحقيق النَّتيجة نفسها، أو نفخة غاز سامّ تُبيد البشر في حلبجة العراقيَّة، وآليات عسكريَّة تُبيد مسلمي سربنتيشا بمذابح البوسنة والهرسك في قلب أوروبَّا المُتحضِّرة! وكثير جدًّا من المذابح الأخرى تمَّت، وستتواصل، بالأسلحة المتطوِّرة علميًّا، رغم ذلك لا يزال العلم يبحث وبشغف، في كيفيَّة اختراع أسلحة أشد فتكًا بالإنسان، بأقلِّ تكلفة، وأقلّ مجهود. «أو لم يتَّضح

---

٥- "الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة" / مراد هوفمان.

بالدَّليل القاطع، والبرهان البَيِّن، أنَّ القرن العشرين المنصرم كان أكثر دمويَّة في تاريخ البشريَّة، بكُلِّ ما شهده من حروب عالميَّة مُدمِّرة، وانتشار الأسلحة القادرة على إبادة الملايين من البشر، ومعسكرات الإبادة، وعمليَّات التَّطهير العرقيّ وغيرها من مآسي البشرية؟ وكلّ هذا يشهده العالم بعد مرور ٢٥٠ عامًا على بداية عصر التَّنوير ومشروع الحداثة! وتتركَّز هذه الأعمال الوحشيَّة المهينة للبشريَّة في أوروبَّا المُتحضِّرة، الشَّديدة الزَّهو والفخر بعقلانيَّتها وإنسانيَّتها»[٦].

أي: لم ينجح العلم في تحصين الحضارة الأوروبيَّة المعاصرة من مرض الفصام النَّفسيّ، وهي التي تَعلَّمت، وبَشَّرت بالعلم، فإذا بعلمها تبيد من البشر، بأقَلِّ عتاد، ما لم تفعله أكبر جيوش حضاراتها القديمة، بأعتى العتاد!

يؤكِّد هوبسباون ـ المُفكِّر البريطانيُّ الماركسيّ ـ على أنَّ القرن العشرين لم يكن أكثر دمويَّة من سابقه فحسب، «بل إنَّه ألقى شَكًّا يصعب التَّغلُّب عليه على فكرة التَّقدُّم التي كانت إحدى كلماتنا الكبيرة، المُوحِّدة في القرن التَّاسع عشر. وما يُدعَى بالتَّقدُّم يفقد شَرعيَّته، ويصبح حيلة الأقوياء، أو استراتيجيَّتهم لتعزيز سيطرتهم على العالم، بعد أن اختُزِل إلى المآثر التِّقنيَّة، وفُصِل عن المشاريع الإنسانيَّة والأخلاقيَّة الكبرى»[٧].

أنتج العلم الماكينات، واحتفى بها على حساب البشر، بزعم أنَّ الماكينة تخدم البشر، لكن ما حدث هو أنَّ الماكينة عملت،

٦- ”الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة“ / مراد هوفمان.

٧- ”أزمة الهويَّات“ / كلود دوبار.

وتعَطَّل البشر، والقانون الكونيّ يُحتِّم سيطرة العامل على العاطل، والنَّشط على الخامل، واستخدامه؛ وهكذا الآن، بدخول الماكينة عصر الذَّكاء الصِّناعي، فإنَّها تُهدِّد حضارة الإنسان تهديدًا حقيقيًّا.

وقد عبَّر المُفكِّر الفرنسيّ أندريه مارلو عن قيمة هذه الحضارة المُمَيكنة، فقال: «إنَّني أؤمن بأنَّ حضارة الماكينات هذه هي أولى الحضارات بلا قيمة عُليا»[٨].

أنتج العلم ماكينات مُتنوِّعة، مُكوِّناتها المادِّيَّة تحارب المُكوِّن الرُّوحيّ للإنسان بشراسة، تعمل بشفراتها الحادَّة على تمزيق الأواصر الدِّينيَّة التي تربطه بخالقه. الشَّبكات الشُّعوريَّة تنهزم أمام الشَّبكات الإلكترونيَّة، وأوردة الدَّم تخنقها أسلاك الكهرباء.

لقد أجاب أكثر من ثمانية وستِّين بالمائة من شبيبة فرنسا بـ: لا، على هذا السُّؤال: «هل هناك دين يبدو لك حقيقيًّا أكثر من غيره؟»[٩]. وهي، بلا شَكّ، إجابة مستوحاة من عقل ميكانيكيّ.

في العام ١٩٨٣ الميلاديّ كتب عالم الاجتماع الألمانيّ شتوتزل في تعليقه على تحقيق حول القِيَم في أوروبَّا: «اليقينيَّات الأخلاقيَّة آخذة في الانهيار لدى الشَّبيبة، والمعايير تتعَرَّض لإبطال قدسيَّتها»[١٠]. وعليه «أصبحت الصِّلة بالمعايير الاجتماعيَّة والأخلاقيَّة شديدة الاختلاف وفق الأجيال. حين سُئلت عيِّنة من الفرنسيِّين من الأعمار كافَّة إن كانت سرقة تاجر صغير أمرًا

---

٨- "أزمة الهويَّات" / كلود دوبار

٩- المصدر السَّابق..

١٠- المصدر السَّابق..

خطيرًا؟ ردَّ ٨٠ بالمائة مِمَّن تزيد أعمارهم عن ٦٥ سنة بالإيجاب في العام ١٩٩٣، مقابل ٣٦ بالمئة مِمَّن تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٤ سنة؛ وعلى سؤال إن كان عدم دفع أجر النَّقل الجماعيّ أمرًا جسيمًا ردَّ ٦٢ بالمائة مِمَّن تزيد أعمارهم على ٦٥ سنة بالإيجاب، مقابل ٢٥ بالمائة مِمَّن تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٤ سنة، إلخ»[١١].

ومع جميع هذه الانهيارات الرُّوحيَّة المُروِّعة التي لحقت بإنسان الحضارة الميكانيكيَّة، خصوصًا بعد استسلام الكنيسة لضغوط العَلمانيَّة، وتسليم شعبها للماديَّة، لا تزال الأخيرة ـ العَلمانيَّة ـ تواصل خداعها، وتُبشِّر بجنَّة العلم، التي ستفرش أغصانها الوارفة على البشريَّة المسحوقة بالدِّين، بعد أن تُؤمن بأنَّ الإله مات، وحلَّ مكانه قُدُس الماكينة.

حذَّرَ الأمريكيُّ، ذو الأصل البلجيكيّ، جورج سارتون، وهو واحد من أهم مؤرِّخي العلوم، إن لم يكن أهمَّهم على الإطلاق، من المصير الذي تقودنا إليه الزُّمرة المُستعلية بالعلم وحده، متسائلًا: «في أيِّ طريق تسوقنا؟ دون فلسفة، ودون تاريخ، وبغير فنون وآداب رفيعة، وفي النِّهاية دون دين حيٍّ قَيِّم قد نُساق إلى الهاوية»[١٢].

وربما الزُّمرة المستعلية، التي أشار إليها سارتون، ليس هي العلماء، ولا المُفكِّرين الشغوفين بإيجابيَّات العلم، بل أصحاب السُّلطة، «... فالعلم يهتمُّ بما تهتمّ به السُّلطة في أيِّ زمان ومكان، إذا كانت السُّلطة تُسخِّر الإنسان وتَستغلُّه، وتُفضِّل عليه الآلة، اهتمّ العلم

---

١١- ”أزمة الهويَّات“ / كلود دوبار

١٢- ”تاريخ العلم والإنسيَّة الجديدة“ / جورج سارتون.

بالآلة أكثر من الإنسان»[١٣].

وإذا كان هكذا، للعلم أسياد يمتهن خدمتهم فقد «يندهش بعض النَّاس ويتساءلون: أيمكن أن يحتوي العلم أيضًا على الخزعبلات؟! ولكن ما هو العلم؟ لقد عرفنا أنَّ ورثة الكهنة كانوا العلماء، وكما كان الكهنة

خُدَّام الكنيسة في العصور الوسطى،كان العلماء خُدَّام الإقطاع، ثُمَّ رأس المال (أو السُّلطة) في القرون التي تلت ذلك. وكما عاشت سلطة الكنيسة في العصور المظلمة على الخزعبلات، فقد عاشت سلطة الإقطاع ورأس المال في العصور التي تلتها على بعض الخزعبلات في العلم»[١٤].

وتأكيدًا على الدُّور الخدميّ الذي يلعبه العلم لصالح السُّلطة، ذات التَّوجُّهات الأيديولوجيَّة الخاصَّة، فإنَّ العلماء أنفسهم يحاولون إنكار الحقائق العلميَّة التي قد تُقوِّض النَّظريَّات التي تتبنَّاها السُّلطة «... وكأنَّنا في المرحلة الستالينيَّة، حين كان على العلماء أن يثبتوا، بكلِّ ما أوتوا من قوَّة، صدق مقولات الماديَّة الجدليَّة!»[١٥].

أمَّا أندريه مارلو، بعد أن أبدى الاستياء والتَّقليل من حضارة الماكينات ـ حضارة العلم ـ فإنَّه أطلق سؤالًا أقرب إلى الإجابة منه إلى السُّؤال: «هل من الممكن أن تؤسِّس (الحضارة) قيمها على

---

١٣- ”الأنثى هي الأصل“ / نوال السَّعداوي.

١٤- المصدر السابق

١٥- ”قضيَّة المرأة بني التَّحرير والتَّمركز حول الأنثى“ / عبدالوهَّاب المسيري.

شيء آخر غير الدِّين لفترة طويلة؟»[16].

ومع كُلّ ارتداد إنسانيٍّ عن الدِّين يواصل العلم انحطاطًا أخلاقيًا جديدًا، بحيث لا يمكن للعاقل النَّظر للعلم (المحكوم بأطر ماديَّة فقط) بصفته هاديًا للبَشريَّة إلى سعادتها؛ كيف؟ ولدينا هذا المثال: «إذا كان وأد الأنثى من الأمور الشَّائعة عند العرب قبل الإسلام، لظروف الفقر والحاجة، فإنَّ عمليَّات القتل المُنظَّمة للأجنَّة من الإناث قد شهد تَوسُّعًا هائلًا، خاصَّة منذ أن استطاع الطَّبُّ أن يُحدِّدَ نوعَ الجنين بواسطة الموجات فوق الصَّوتيَّة في دول مثل الصِّين وتايوان وكوريا الجنوبيَّة وباكستان والهند. وتستطيع أن تقرأ في العيادات الطِّبيَّة التي تقوم بإجراء عمليَّات الإجهاض هذا الإعلان: ادفع ٥٠٠ روبيَّة، ووفِّر ٥٠٠٠٠. المبلغ الأخير يدفعه الأب ليُجهِّز ابنته للزَّواج. ولقد أدَّى هذا الأمر إلى نقص حوالي ١٠٠ مليون أنثى في آسيا»[17].

ولعلَّ هذه الجرائم المتلاحقة، التي يرتكبها العلم باطِّراد، هي ما دفع بالأمير تشارلز، في ١٠ يوليه ١٩٩٦ الميلاديّ، وهو على شرف مأدبة حفل عشاء في لندن، إلى التَّصريح بالآتي: «لقد حاول العلم جاهدًا أن يتحَوَّلَ إلى ديكتاتوريَّة، وأن يحتكرَ رؤيتنا وفهمنا للدُّنيا، بفصل الدِّين عن العلم. إنَّني أؤمن بأنَّ الإبقاء على القيم الحضاريَّة مرتبط بالإبقاء على إحساس دفين بالمُقدَّس في قلوبنا»[18].

وكان خطر العلم غير المُقيَّد بالأخلاق ـ والدِّين أخلاق ـ واضحًا

---

١٦- "الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة" / مراد هوفمان.

١٧- المصدر السَّابق..

١٨- المصدر السَّابق.

للرَّئيس الأمريكيّ الأسبق جورج بوش الابن، فكتب في مذكِّراته عن سبب رفضه تمويل تجارب الخلايا الجِذعيَّة على ضرورتها الشَّديدة للإنسانيَّة، قال: «شعرت أنَّ التُّكنولوجيا يجب أن تحترمَ الحدود الأخلاقيَّة. خشيت من أن تأخذنا الموافقة على تدمير الأجِنَّة البَشريَّة لأغراض الأبحاث من الخيال العلميّ إلى الواقع الطِّبّي. تصوَّرتُ باحثين يقومون باستنساخ الأجنَّة لتكوين أعضاء بشريَّة احتياطيَّة في المختبر. وتوقَّعت إغراء فكرة الأطفال المُصمَّمين حسب الطَّلب، بحيث يتَمكَّن الأهل من هندسة لاعب كرة سلَّة أشقر خاصّ بهم. وكابوس الاستنساخ البشريّ على نطاق واسع ليس بعيدًا عن تلك الفكرة. كنت أعرف أنَّ هذه الاحتمالات قد تبدو خياليَّة لبعض النَّاس، ولكن متى بدأ العلم السَّير في هذا الطَّريق ستكون العودة إلى الوراء صعبة جدًّا»[١٩].

أو بالأحرى ستكون العودة مستحيلة، ذلك؛ لأنَّ «الحقيقة الحَتميَّة هي أنَّ العلم سوف يستمر في تعزيز قدرة البشر على القيام بأعمال التَّدمير الذَّاتيّ، التي قد لا يمكن لمجتمع مُنظَّم أن يكون قادرًا على منعها، أو احتوائها على الدَّوام»[٢٠].

ومع كلّ ما سبق سرده من سلبيَّات العلم (التي تصل إلى حدِّ إفناء البشريَّة)، فهناك وجهة نظر أخرى تبريئيَّة، ترى أنَّ «العلم ليس مسؤولًا عن الفوضى الحالية التي تصيب النُّفوس، ولا عن القوَّة الجديدة التي تنمو وتكبر وسط هذه الفوضى ـ فهو قد وعدنا باكتشاف بالحقيقة، أو على الأقلّ معرفة العلاقات التي هي في

---

١٩- ”مذكِّرات جورج دبليو بوش الابن“ / ترجمة سناء حرب.

٢٠- ”الاختيار. السَّيطرة على العالم أم قيادة العالم“ / زيجنيو بريجنسكي.

متناول قدراتنا العقليَّة. ولكنَّه لم يعدنا أبدًا بتحقيق السَّلام ولا السَّعادة. فهو لا يبالي إطلاقًا بعواطفنا، ولا يسمع نواحنا وتأوُّهاتنا، ولا شيء قادر على إعادة الأوهام التي أزالها وطردها»[٢١]. ونعتقد أنَّ صاحب هذا الرَّأي، وهو جوستاف لوبون، المُفكِّر الفِرنسيّ الشَّهير، حين يطرح هذا الرَّأي في العلم، لا يطرحه على سبيل الإشارة إلى إيجابيَّة العلم، بل إلى قلَّة حيلته؛ إذ هو نفسه، لوبون، يقول في الكتاب نفسه: «من بين أوائل الأفكار المهيمنة في عصرنا توجد الفكرة التَّالية: إنَّ النَّتيجة المؤكّدة للتَّعليم تكمن في تحسين أوضاع البشر وإصلاحهم، بل وجعلهم متساويين. وبسبب تكرار هذه الفكرة دون كلل، أو ملل، فإنَّها قد أصبحت إحدى العقائد الأكثر رسوخًا للدِّيموقراطيَّة ـ وقد أصبح من الصَّعب جدًّا المَسّ بها الآن، أو مناقضتها، كما كان من الصَّعب سابقًا أن يمَسَّ المرء إحدى عقائد الكنيسة. ولكنَّنا نجد أنَّ الأفكار الدِّيموقراطيَّة تقع في تناقض عميق مع معطيات علم النِّفس والتَّجربة فيما يخصّ هذه النُّقطة ونقاط أخرى عديدة، فالفلاسفة العديدون، وخصوصًا هيربيرت سبنسر، كانوا يستطيعون البرهنة بسهولة على أنَّ التَّعليم لا يجعل الإنسان أكثر أخلاقيَّة، أو أكثر سعادة، وإنَّه لا يُغيِّر غرائزه وأهواءه الوراثيَّة. وإذا ما طُبِّق بشكل سيِّئ فإنَّه يصبح ضارًّا بأكثر ممَّا هو نافع»[٢٢].

أمَّا جورج سارتون ـ على تحذيره السَّابق ذكره من علم لا يسترشد بدين فإنَّه يوبِّخ الأدباء والمُثقَّفين والفنَّانين المُشكِّكين في نتائج العلم، بالإضافة إلى بعض العلماء، بزعم أنَّ هؤلاء «لا يعرفون

٢١- ”سيكلوجية الجماهير“ / جوستاف لوبون.

٢٢- المصدر السَّابق.

العلم إلَّا بآثاره الماديَّة، بيد أنَّهم يتجاهلون روحه، ولا يفقهون شيئًا لا من جماله الخاصّ، ولا من جمال الأشياء التي يستخلصها باستمرار من مكنون الطَّبيعة»[٢٣]. ليعود ويصف العلم مرَّة بأنَّه «ضمير الإنسانيَّة»[٢٤]، وأخرى بأنَّه «المرآة الإنسانيَّة للطَّبيعة»[٢٥].

وسارتون مُحقٌّ في أن يرى العلم ضمير الإنسانيَّة ومرآتها للطَّبيعة، ولا أظنّ عاقلًا يختلف مع رؤيته تلك، لكن ربما فات سارتون أنَّ حتَّى الضَّمير ليس ملائكيًّا تمامًا، ليس البوصلة الدَّقيقة الأمينة المرشدة إلى الغايات السَّامية فقط، فكم من إنسان فسد؛ لأنَّ ضميره فاسد طبعًا، أو تعرَّض للإفساد ظَرفًا، فلا يقوم بدوره القِيَميِّ والتَّحكيميّ؛ بل من الضَّمائر ما يفسد درجة أن يؤمن بالباطل حقًّا، وقلب الحقيقة باطلًا. وإذا كان العلم مرآةً، فقد فات سارتون أيضًا أن ليس كلّ المرآئي صافية، وليس كلَّ المرائي الصَّافية تظلّ صافية على الدَّوام؛ إذ منها ما يتَسبَّب في نقل الصُّورة الواضحة برؤية كالحة مُغبَّشة لأسباب تتَعلَّق بجودتها، أو بالظُّروف المحيطة بها.

هكذا، عندما يوبِّخ كثيرٌ من الأدباء والمُثقَّفين والفنَّانين العلمَ، فإنَّهم لا يوبِّخون جوهره الممتاز، ولا أصل مُهمَّته النَّبيلة، بل يدركون تمامًا أنَّ العلم في ذاته قُدُسٌ مُطهَّر، لكنّهم حين يفعلون، فإنَّهم يوبِّخون طموحات مُستغلِّيه، من القائمين عليه تطبيقًا وإنتاجًا، ممَّن لا تلجمهم أخلاق، ولا يردعهم دين.

---

٢٣- ”تاريخ العلم والإنسيَّة الجديدة“ / جورج سارتون.
٢٤- المصدر السَّابق.
٢٥- المصدر السَّابق.

وإذا كان كتابنا هذا عن خُطط الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة، فحريٌّ بنا القول إنَّ العلم في الإسلام ربما لا يكون هو العلم في العَلمانيَّة.

وقد وضح شغفُ نبيّ الإسلام بالعلم في رواية نقلها الدَّارميُّ المُحدِّث[٢٦]، تخبرنا بأنَّ مُحمَّدًا ﷺ الأفضل تبقى بني سؤطتني اعتراضيتين قد خرج ذات يوم من بيته إلى المسجد، فرأى فيه مجلسَيْن، أحدهما للعلم، والآخر للذِّكر، فاتَّجه إلى مجلس العلم وهو يقول: «إنَّما بُعثِتُ مُعلِّمًا». أمَّا القرآن، ففيه آية واضحة تخبرنا بأنَّ العلماء هم الطَّائفة الإنسانيَّة الأشد خشية لله[٢٧].

فما هو العلم الذي كان يُدرَّس في المجلس الذي فضَّل مُحمَّد ﷺ الانضمام إليه؟ وما طبيعة العلم الذي لو علمه الإنسان صار أكثرَ خشية لله؟

قد نستطيع الإجابة على هذين السُّؤالين، فنقول: إنَّه علم مُتعلِّق بالدِّين؛ وإذا كان الدِّين أخلاقًا بالأساس، وقد قال مُحمَّد ﷺ إنَّه جاء ليُتمِّم مكارم الأخلاق[٢٨]، فإنَّه علمٌ مرتبط بالأخلاق أيضًا ـ بحيث لا يكون العلم علمًا إذا لم يقترن بالأخلاق ـ وعليه فإنَّ المرء كلَّما تمتَّع بأخلاق كريمة اشتدَّ خشية لله.

فإذا كان العلم مرتبطًا بالأخلاق، فأيُّ شيء هذا الاستكشاف، وتلك التَّجارب المعملية، والسَّريريَّة، وإثبات النَّظريَّات، في مختلف المباحث والدِّراسات التي تتشدَّد في النَّأي بنفسها عن

---

٢٦- الرواية ضعيفة.

٢٧- آية ٢٨ ـ سورة فاطر / قرآن كريم.

٢٨- أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد».

القيود العقائديَّة أو الأخلاقيَّة، وترتبط فقط بالنَّظر والتَّجربة؟

أظنُّ أنَّ هذا الشَّيء ليس علمًا، بل: معرفة.

وثمار كلٍّ من العلم والمعرفة: الإفادة.

لكن العلم وَرِعٌ، يُحقِّق الإفادة بشروط الدِّين والأخلاق، أمَّا المعرفة فليست بالضَّرورة ورعة، قد تُقيِّد نفسها بالأخلاق، وقد لا تفعل، بل قد تضع لنفسها أخلاقًا جديدة تتواءم مع مُستجدَّات العصر وإن لم تتواءم مع القيم القديمة، ولا مع الدِّين.

وعليه قد ترغب المعرفة عن التَّشريع الدِّينيّ، وترغب في الدَّساتير الوَضعيَّة.

وربما لهذا السَّبب وحده يحضَّ الله جَلَّجَلَالُهُ المسلمين في القرآن على طلب العلم، لا على طلب المعرفة؛ وربما لنفس السَّبب نسب الله جَلَّجَلَالُهُ لنفسه العلم، لا المعرفة، وقد علَّم آدمَ الأسماء كلّها، أي: عرَّفه بها في إطار من الدِّين والأخلاق، ويريد جَلَّجَلَالُهُ من المسلم أن يعرف ويتعارف في إطاريهما، ليكون عالمًا أو مُتعلِّمًا، ولا ثالث لهما.

إنَّ خلاصة غاية العلم في الإسلام أن يخشى أصحابُه اللهَ جَلَّجَلَالُهُ[٢٩]، وخشية الله تتجلَّى في الحفاظ على الإنسان من أن يُستغّلَّ بالمعرفة، أو يُدهَس بين مطرقة الإنتاج وسندان الاستهلاك، وهي الغاية التي اتَّضح، فيما استعرضناه باختصار سابقًا، أنَّها أبعد ما تكون عن اهتمام علم العَلمانيِّين. هكذا يمكننا الاتّفاق مع

٢٩- من حديث لحذيفة أخرجه النّسائيُّ في كتاب العلم.

مَنْ قال: «يقول بعض علماء الكلام إنَّ الاطِّلاع على علم تشريح الأفلاك، وعلم تشريح الإنسان، يدلّ أوضح الدَّلالة على شمول العلم الإلهيِّ لدقائق الوجود. وأنا أقرِّر أيضًا أنَّ العلم، والكشف عن سُنَن الوجود وعجائبه، سيكون نصير الدِّين، وسيُقرِّب إلى العقل الإنسانيّ طريقَ فهم ما كان غامضًا مُبْهمًا، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل»[٣٠].

ومن المُنطلق نفسه سبق أن صرَّحَ الأمير تشارلز، في نفس حفل العشاء المُنظَّم بتاريخ ١٠ يوليَّه ١٩٩٦ الميلاديّ، مُشيدًا بتجربة العالم الإسلاميِّ في هذا الشَّأن، قال: «إنَّني على اقتناع تامٍّ بأنَّ عالمًا يُمثِّل فيه العلم والدِّين مكوِّنات أساسيَّة لرؤيتنا لهو عالم أكثر تحضُّرًا وحكمة وتوازنًا. ولقد استطاع العالم الإسلاميُّ أن يحافظَ بشكل أفضل على رؤية العالم المُتَّسقة والرُّوحانيَّة هذه، وهذا ما لم يتحقَّق لنا في الغرب»[٣١].

فإذا كان ما سبق ذكره من تأثيرات سلبيَّة هو نتاج معرفة مُتكبِّرة، مُزاحمة للدِّين، ساعية إلى الإطاحة به لتتبوَّأ مكانه، فما التَّأثيرات النَّاجمة عن تطوُّرات الخطاب الدِّينيّ العنيف فقهيًّا؟ وكيف لعب هذا الخطاب دورًا رئيسًا في تنفير النَّاس من الدِّين في ظلِّ عَلمانيَّة لا تمَلّ مغازلتهم، والغمز لهم بلطف الغواية؟

قد ذكرنا أنَّنا حين نشير إلى الخطاب الدِّينيّ العنيف، لا نقصد ما تقوم به بعض الجماعات الإسلاميَّة، أو غير الإسلاميَّة

---

٣٠- للشَّيخ مُحمَّد مصطفى المراغي من مقدِّمته لكتاب «حياة مُحمَّد» للكاتب الأستاذ مُحمَّد حسين هيكل.

٣١- "الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة" / مراد هوفمان.

المُتطرِّفة، من عمليَّات قتل إجراميَّة باسم الدِّين؛ فما تقوم به تلك الجماعات له دوافع عديدة، ربما الدَّافع الدِّينيّ يقع في ذيل القائمة؛ كما لا نقصد بالخطاب الدِّينيّ تلك الخُطب الرنَّانة على منابر المُتشدِّدين دينيًا، سواء كانت تلك المنابر مساجدًا، أم قنوات تلفزيونيَّة دعويَّة، أم صحفًا وكتبًا، أم مواقع على شبكة المعلومات الإلكترونيَّة، وإنَّما نقصد الأصل الذي تدور على محوره جميع تلك الأدوات، أَلَا وهو: الفقه.

والفقه: الفهم.

ولا نهدف في هذا الكتاب إلى مناقشة أفهام الفقهاء الأوَّلين، كالأئمَّة الأربعة مثلًا، أو غيرهم، فهؤلاء أدّوا أدوارهم الجليلة، وفقهوا بحسب

معطيات زمانهم، بأفهام بِكر ومُتطوِّرة في آنٍ واحد، لكن نستهدف أفهام المُتأخِّرين، تلك التي عَلُقت بأفهام المُتقدِّمين واعتالت عليها، لم تعتمد معطيات أزمنتها المعاصرة من علم حادث، أو فكر مُستجَدّ، أو أنماط معيشيَّة مُستحدَثة، فأصاب هذه الأفهام الفقهيَّة المتأخِّرة لِينٌ كالذي يصيب العظام، يفقدها قدرتها على الحركة، ويُصيب الجسد بما يشبه الشَّلل.

هكذا أُصيبت أفهام المُتأخِّرين بلين الاجتهاد، فكسحت عن الفكر والاستنباط بما هو لازم لأبجديَّات التَّطوُّر، ولم يعد همُّها من كُلِّ الدِّين سوى الشَّكل العباداتيّ، طقوس الطَّاعة والخضوع، وهي ـ على أهمّيتها بمكان ـ ليست الدِّين كلّه.

إنَّ الطَّاعات، كما سيتبيَّن لنا في الفصول القادمة من الكتاب، أركان

الدِّين، أي: أركان المبنى. والأركان بعض المبنى، ليست كلّه.

الأركان يقوم عليها المبنى، لكن لا تقوم عليها أنشطته.

اهتمَّ المسلمون في عصورهم المتأخِّرة بالأركان، وصرفوا النَّظر عن الأنشطة.

والمبالغة في الاهتمام بالأركان تؤدِّي إلى نوعين من النُّفور: نفور ذاتيٌّ شخصيٌّ. ونفور جمعيٌّ عامٌّ.

وقد ذهب رجل إلى مُحمَّد ﷺ يشكو إليه تأخُّره عن صلاة الفجر بسبب إمام يُطيل بهم الصَّلاة. يقول راوي الحديث: فما رأيت النَّبيَّ ﷺ غضب في موعظة قطُّ أشدّ مِمَّا غضب يومئذ؛ فقال: «يا أيُّها النَّاس، إنَّ منكم مُنفِّرين...»[٣٢]؛

ها هو وجه النَّبيّ ﷺ يتمَعَّر بشِدَّة، لا لمعصية ارتُكِبت سهوًا، أو حتَّى عمدًا، ولكن لعبادة جَمعيَّة مُتطرِّفة الطَّاعة.

ولتأكيد أنَّ الطَّاعة المُتطرِّفة مكروهة للغاية، وإن كانت شخصيَّة بين العبد وربِّه، وردت رواية الثَّلاثة الرِّجال الذين سألوا عن عبادة النَّبيِّ ﷺ، فوجدوا أنَّها قليلة، وبَرَّروا قلَّتها بأنَّه رسول الله الذي غُفِر له ما تقَدَّم من ذنبه وما تأخَّر، فلا يحتاج إلى كثرة عبادة مثلهم، وعليه قرَّر أوَّلهم صلاة الليل أبدًا، فلا ينام، وقرَّر الثَّاني صيام الدَّهر أبدًا، فلا يفطر، أما الثَّالث فقرَّر البتوليَّة أبدًا، فلا يتزوَّج؛ وبلغت قراراتهم مسامع النَّبي ﷺ، فاستدعاهم، وقال لهم بنصِّ الحديث: «أنتم قلتم كذا وكذا، أما والله إنِّي لأخشاكم لله،

---

٣٢- من حديث أخرجه البخاريُّ.

وأتقاكم له، لكنِّي أصوم وأفطر، وأصلِّي وأرقد، وأتزوَّج النِّساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي»[٣٣].

هذا، وعديد من أحاديث نبويَّة أخرى، تعكس غضب مُحمَّد ﷺ من التَّنطُّع في العبادة، ما يعني ضرورة الحذر من التَّشدُّد في الدِّين، مع ذلك ما أن يُحاجَج هؤلاء المُتشدِّدين ببعض هذه الأحاديث حتَّى يُحاجِج قائلًا: «وأين نحن من التَّخفيف الذي كان يقصده الرَّسول ﷺ! كان الواحد منهم يقرأ سورة البقرة كاملة في ركعة ويرى أنَّه خَفَّف». وقد يذكر أقوالًا عن أنَّ بعض الصَّحابة كان يقرأ القرآن كُلّه في ركعة واحدة! ويذكر هذا مُقتنعًا بواقعيَّته، فيروِّج ما لا يُعقَل بحماسة لا تقلّ عن حماسة بعض كبار نُقَّاد الأدب وهم يُروِّجون أنَّ الرِّوائيَّ الألمانيَّ فرانز كافكا كتب «المحاكمة» ـ وهي إحدى أبدع رواياته ـ في ليلة واحدة!

فيقرِّع هؤلاء المُتشدِّدين المسلمين إذا أنهَوا صلاتهم وانطلقوا يغادرون المسجد على وجه السُّرعة إلى مصالحهم، بزعمٍ ظاهره حقّ وباطنه باطل، ألا وهو: إنَّ المسلم أولى به الدِّين من الدُّنيا، وأولى به العبادات والطَّاعات من التِّجارات والصِّناعات.

فإذا كانت النُّفوس الإنسانيَّة جُبِلَت طبعًا على حُبِّ الدُّنيا، وتؤدي فرائضَ الدِّين بمكابدة، وكان النَّبيُّ ﷺ منتبهًا إلى هذه الخاصيَّة البشريَّة، فإنَّه طالب المسلم بالإيغال رفيقًا في دينه، لا يُشدِّد على نفسه ـ ولا على غيره ـ ومسايسة الطَّاعة بعبادات خفيفة متتالية، لا عبادات ثقيلة قائمة[٣٤]، وخلاف ذلك يُعدّ تنطُّعًا. وقد حرص

٣٣- من مرويَّات أنس بن مالك / أخرجه البخاريُّ.
٣٤- من حديث : «إن الدين يسر. ولن يشاد الدين ....» رواه أبو هريرة / رواه البخاريُّ.

النَّبيُّ ﷺ بشدَّة على الإشادة بالتَّياسر وعدم العنت، فلم يرسله الله جَلَّجَلَالُهُ مُعنِّتًا ولا مُتعنِّتًا، ولكن مُعلِّمًا ومُيسِّرًا.[٣٥]

وقد «هلك المُتنطِّعون»[٣٦]، قالها مُحمَّد ﷺ، وذلك؛ لأنَّهم يفسدون أعمال النُّبوَّة التي تُيسِّر على النَّاس، في حين هم يُعسِّرون على النَّاس؛ أعمال النُّبوَّة تُزيِّن للنَّاس دينهم، فيرغبون فيه، وينتمون إليه، ويدعون له، والتَّنطُّع يُنفِّر النَّاس من دينهم، ويُكرِّههم فيه، فيناهضونه مع المناهضين. وهذا واقع نراه اليوم رأي العين، إذ يحارب المسلمون دينَهم مع أعدائه! لا لشيء سوى أنَّ المُتنطِّعين شَدَّدوا عليهم هذا الدِّين.

هكذا تكون تبعات التَّنطُّع كارثيَّة على الدِّين، وكأنَّ أهله إخوان الشَّياطين.

وكان أن استسلمت المَسيحيَّة واليَهوديَّة لضغوط العصر العَلمانيَّة، التي عزفت على أوتار التَّشدُّد الدِّينيّ في كليهما، فغيَّرتا من تعاليمهما، ومن أسس إيمانيهما، بسبيل تنازلات ظنَّتا أنَّهما قد تستعيدا بها شعبيهما النَّافرين ـ على ما سنوضِّحه في مقاطع قادمة من هذا الكتاب ـ في حين بقي الإسلام لم يتنازل بعد، ولم يستسلم؛ وعليه، فإنَّه وحده، من بين جميع الدِّيانات، مُستهدفٌ بأعنف وأخبث أنواع الهجوم؛

إذ المسلمون وحدهم، من بين جميع الأمم، من يُحاصَرون بين خيارَين لا ثالث لهما، وأحلاهما مُرٌّ: إمَّا عليهم نزع مخالب

---

٣٥- من مرويَّات جابر بن عبدالله / أخرجه مسلم.

٣٦- من مرويَّات ابن مسعود / أخرجه مسلم.

إسلامهم، فيتحوَّلوا إلى شعوب داجنة في صورة قطعان مُستهلِكة تدرّ الرِّبحيَّة في أرصدة المصانع والشَّركات الغربيَّة الكبرى، وإلَّا فالخيار الثَّاني المُدجَّج بالسِّلاح: تفتيت كياناتهم الدُّوليَّة كيانًا تلو كيان، حتَّى لا تبقى دولة إسلاميَّة واحدة تصلح لأن تكون قاعدة إطلاق نهضة إسلاميَّة مُستقبليَّة، تنفض عن المجتمع الإسلاميّ استهلاكيَّته، وتسبغ عليه من صفات الإنتاج الحميدة، إنتاجًا فكريًّا ثقافيًّا، وصناعيًّا، وزراعيًّا.

وهذا الكتاب يطمح إلى تقليب الأفكار، واستبدال المقلوب منها بالمعدول، والمعدول منها بالمقلوب، والتَّفتيش والتَّأمُّل في هذه وتلك، محاولًا التَّوصُّل إلى مناظير أخرى لإسلامنا غير هذا المنظور الوحيد العتيق، الذي لا تفتأ أمَّة الإسلام تستخدمه طوال خمسة عشر قرنًا من الزَّمان، فمن المؤكَّد أنَّ هناك منظارًا مُستقبليًّا حديثًا حفظته لنا نصوصه الأولى، ومفتاحًا ذكيًّا للمُغلَق من أبواب القادم، مدسوسًا في طَيَّات القرآن الكريم، وفي ثنيَّات الأحاديث الشَّريفة، تنتظر مُجتهدًا رضي الله جَلَّجَلَالُهُ عنه، فيُفتَح له.

هذا الكتاب محاولة لتجديد الفهم.

وبين الفَيْنَة والفَيْنَة تتعالى أصوات من يُطلَق عليهم وصف: النُّخبة المُثقَّفة؛ مطالبة بتجديد الخطاب الدِّينيّ، وعلى سخونة مطالباتهم، فإنَّها تظلّ نَوعًا من العبث، إذ ليس ثَمَّة تجديد لو لم يسبقه فَهمٌ جديد.

من ثَمَّ هو كتاب مُوَجَّه للمسلمين خاصَّة، دون غيرهم؛ لأنَّهم المستهدفون بالتَّجديد المأمول، لكن تخصيص التَّوجيه للمسلمين لا يعني أنَّني أمنع غير المسلمين من قراءته . إذا رغبوا في ذلك . فهو بالنِّهاية كتاب، وكُلُّ كتاب فيه نفعٌ للقارئ، أيّ قارئ على أيّ مِلَّة، شريطة أن يكون هذا القارئ مِثاليًّا، يقرأ بتؤدة وتفَهُّم، دون أحكام مُسبقة، دون ترَبُّص، دون معيار يضعه في رأسه لا يقبل قياسات تخالفه؛ فالفكر والأديان شأنهما رُوحيٌّ، ولا قياسات للرُّوحيّ بمعايير الموازيين القياسيَّة والمعادلات الرِّياضيَّة، يكاد يكون معيارها الأوحد هو أمر مُحمَّد ﷺ لصاحبه وابصة بأن يستفتي قلبه، مهما أفتاه النَّاس وأفتوه[٣٧].

٣٧- "... يا وابصة، استفت قلبك،، والبِرّ ما اطمأنَّت إليه النَّفس، واطمأنَّ إليه القلب، والإثم ما حاك في القلب، وتردَّد في الصَّدر، وإن أفتاك النَّاس وأفتَوك" . أخرجه المنذريُّ في التَّرغيب والتَّرهيب، وقال الألبانيُّ: حسن لغيره.

# الفصل الثَّاني

الفرق بين الخطط الإلهيَّة والبرامج التِّقنيَّة . ضرورة تبديل أوضاع الرُّؤية . أيُّهما أهمُّ: الجهاز أم كُتيِّب تشغيل الجهاز؟ . الدِّين مُنطلَق أم اختراع؟ . دور الموت عند القائلين باختراع الدِّين . الصِّراع بين العلمانيَّة من ناحية واليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام من ناحية . نتائج الصراع . الماكينة تنتصر.

في أوَّل سُوَر القرآن الكريم ـ في الآيات الأولى منها ـ ظهر الله جَلَّجَلَالُهُ في مشهد بديع وهو يبادل الملائكة حوارًا حول خُطَّة خلق جديدة، يُوشِك على تنفيذها، هدفها: إيجاد مخلوق يصلح لأن يكون خليفةً في الأرض؛ وقد تخوَّفت الملائكة من خروج هذا المخلوق إلى الوجود مُفسدًا، سافكًا للدِّماء؛ لكنَّ الله تعالى أخبرهم بأنَّه يعلم ما لا يعلمون؛ وخلق آدم، وعَلَّمه الأسماء، ومن ثَمَّ أمر الملائكة بالسُّجود لهذا المخلوق المُتعلِّم[٣٨].

وقد خطَّ الله لآدم خُطَّة سير حياتيَّة، بمقتضاها يعرف كيف يعيش، وكيف ينتبه إلى المخاطر التي تتهدَّد عيشه، وإلى وسائل النَّجاة من المهالك التي قد تقضي عليه رُوحيًا، قبل أن تقضي عليه مادِّيًا.

في المجال الصِّناعي تُسمِّي شركات الإنتاج الصَّناعي مثل هذه الخُطَّة برنامجًا؛ ويُسجل هذا البرنامج في ما يُسمَّى بكُتيِّب إرشادات التَّشغيل، يُرفَق مع المُنتَج؛ ليساعد المستهلك في

٣٨- قرآن كريم. الآيات من ٣٠ إلى ٣٣ من سورة البقرة.

التَّعرُّف على أفضل طرق استخدامه، بحيث يظِلّ مُنتَجًا قويًّا، قادرًا على الخدمة والعطاء بأمثل طاقة طوال عمره الافتراضيّ.

لكن الإنسان ليس جهازًا مصنوعًا تسري الكهرباء في أسلاكه، وتُحرِّكه دوائر منطق إلكترونيَّة، بل جسدًا مخلوقًا تجري الدِّماء في عروقه، وتُحرِّكه دوافع مُركَّبة من عقلٍ، وضميرٍ، وروحٍ، ونفسٍ؛ وعليه، فإنَّ خُطَّة الله الموضوعة لتشغيل الإنسان لا بُدَّ أن تختلف عن البرامج التِّقنيَّة من جهات عديدة، منها أنَّها ليست خُطَّة تستهدف الإنتاج الرِّبحي بمفهومه المادِّيّ الاستثماريّ، وإنَّما هي خُطَّة خلق عظمى لم يتحَقَّق للعقول البَشريَّة فهمها وإدراكها بمجملها إلى الآن، رغم ما قدَّمته من تفسيرات دينيَّة مختلفة باختلاف العقائد على الكرة الأرضيَّة، ورغم جميع ما أنشأته من فلسفات وعلوم اجتماع مُتقدِّمة.

وخُطَّة الله لا تُسمَّى: برنامجًا، ولكن: دينًا.

كما أنَّ كُتيِّب التَّشغيل الصِّناعيّ لا يُسمَّى: كتابًا مُقدَّسًا، ولكن: كتالوجًا.

هكذا الخُطَّة الإلهيَّة، أو البرنامج التّقنيّ، على درجة من الأهميَّة عظيمة.

وعلى الدَّرجة نفسها من الأهمِّية نظر الإنسان للدِّين، فقَدَّسه تقديسه لله نفسه، ونظنّ لو أنَّ روبوتًا تلبَّس بروح إنسان حَيٍّ لقَدَّس . هذا الروبوت . برنامجه التَّقنيّ؛ لِمَ لا إذا كانت الخُطَّة الإلهيَّة تحمي ذات الإنسان من ذاته بذاته، وتُهيِّئ له سبلَ التَّواصل مع العالم الخارجيّ بأفضل الطُّرق، وأكثرها أمنًا.

ما سبق هو الفهم المعدول للأمر ـ أو بعبارة أخرى: الفهم المُعتاد للأمر ـ وهو فهم لا جديد فيه، راكد على قديمه، وسيظّلّ على ركوده إذا ظللنا ننظر إليه بصفته وضعًا معدولًا. لكن، ماذا لو غامرنا بتغيير هذا الوضع المعدول، ونظرنا إليه مقلوبًا؟

أقصد: ماذا لو نظرنا إلى الأمر نظرة على غير المعتاد؟

لا شَكَّ في أنَّنا سنرى أمورًا جديدة، ومختلفة.

هكذا ـ وعلى سبيل التَّجربة ـ لنا أن نتخَيَّل اللهَ جَلَّجَلَالُهُ، وبعد أن وضع خُطَّة تشغيل مخلوقه المُحتمَل(آدم)، استمع لتخَوُّفات الملائكة من احتماليَّة فساد هذا المخلوق ودَمويَّته، فقَرَّر التَّوقُّف عن المُضيِّ قُدُمًا في تنفيذ هذا المشروع، فإلى أيِّ مصير كان على الدِّين الانتهاء إليه؟

بطريقة عرض أخرى للمسألة: قَرَّرت الشَّركة المُنتجة، بعد أن أعَدَّت خُطَّة التَّصنيع كاملة، وجَهَّزت البرنامج وكُتيِّبات التَّشغيل، عدم تصنيع المنتج لأسباب تتعلَّق بظهور سلبيَّات، فإلى أيّ مصير يؤول هذا البرنامج وكُتيِّبات التَّشغيل؟

قبل الإقدام على طرح أيَّ إجابة علينا النَّظر أوَّلًا إلى الوضع المقلوب من مَحلٍّ آخر معاكس، ونتساءل: ماذا لو خلق اللهُ الإنسانَ، وأطلقه في الأرض مُمارسًا حياته دون خُطط إرشاديَّة مُسبَقة ؟

أو: ماذا لو قَرَّرت الشَّركة المُصنِّعة تسويق جهازها دون كُتيِّب تشغيل مُرفَق به؟

نضرب مثالًا تصويريًّا لمزيد من التَّوضيح:

بينما تجلس امرأة فقيرة في بيتها طرق أحدُهم بابها. فتحت له، ابتسم في وجهها وهو يُقدِّم لها كُتيِّبًا صغيرًا قائلًا: «سَيِّدتي، هذا كتالوج يرشدك لكيفيَّة استخدام المُبرِّد إنتاج شركتنا». قالت له: «هذا جَيِّد، لكن أين المُبرِّد؟ أنا لا أمتلك أيَّ مُبرِّدات». ابتسم المُسوِّق قائلًا: «وشركتنا لا تصنِّع أيَّ مبرِّدات، لكن تفَضَّلي الكتالوج سَيِّدتي».

بالطَّبع، إذا سيطرت تلك السَّيِّدة على أعصابها، ولم تسبّ المُسوِّق، فإنَّها قد تأخذ كُتيِّبه وتُلقي به في سلَّة القمامة.

لكن، ماذا لو أنَّ هذا المُسوِّق قَدَّم لها مُبرِّدًا ليس مُرفقًا به كُتيِّب تشغيل؟

لا شَكَّ أنَّ السَّيِّدة ستجتهد في تشغيل الجهاز، ومهما تعَدَّدت محاولاتها المُضنية، ستظلّ تكرِّرها حتَّى تتمكَّن من تشغيله.

هكذا توضِّح هذه الافتراضيَّة المُصاغة في شكل قِصَّة قصيرة أنَّ خُطَّة تشغيل لا تُرفَق بجهاز سرعان ما تفقد جدواها مهما كانت رائعة، وأنَّ جهازًا ليس مُرفقًا بخُطَّة تشغيل يمكن أن يؤدِّي أداءً رائعًا بالمحاولة والتَّعلُّم.

لنفترض أنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ خلق آدم فارغًا من الأنساق الدِّينيّة، ووضعه في الأرض، وبعد فترة أفاق آدمُ، وفتح عينَيه، فرأى أنَّه مخلوق، ثُمَّ أدرك أنَّه يُفكِّر، فهل كان بمستطاعه مع الوقت، التَّعرُّف على خالقه؟

وإذا تمَكَّن من التَّعرُّف عليه، هل كان بمستطاعه وضع دين يتقَرَّب به إلى هذا الخالق؟

أي: هل يمكن للجهاز التِّقنيّ أن يضع كُتيِّبَ تشغيله بنفسه لنفسه، ويدرك أنَّ له صانعًا؟

هناك مَن يرى أنَّ الإنسان لم يضع دياناته فقط، بل اخترع الآلهة قبلها، وبدوافع متناقضة، منها ما يندرج تحت زعم: إيجاد سبب وجوديّ.

الفيلسوف الإنجليزيّ أندرو لانج، الباحث في علم الأديان، يُؤكِّد على «أنَّ الإنسان، منذ وصوله لفكرة صنع الأشياء بنفسه، قد عَبَر منطقيًّا إلى فكرة الكائن الصَّانع لأشياء يعجز الإنسان عن صنعها. فمن الإنسان الصَّانع إلى الإله الخالق، الرَّبط منطقيٌّ وعقليٌّ؛ إذ ليس للدِّين أصل إلَّا في نفعيَّته، إنَّه يُرتِّب اعتقادًا نظريًّا في سلطة متعالية عن الإنسان، كُلُّ ذلك مع إيمان عاطفيٍّ مُعبِّر عن حُبٍّ بَنَويٍّ للأب، ووجود الآلهة المُتعالية سوف يكون أمرها الطَّبيعيُّ مقتصرًا على توفير التَّفسير المناسب للسِّياقات والوقائع العجيبة في العالم، وبذلك أثار لانج الفكرة القديمة القائلة بأنَّ الدِّين هو إبداع للبشر»[٣٩].

وهي فِقرة تُذكِّرنا بالحُجَّة التي ساقها السَّيِّد المسيح (عليه السَّلام)، إلى مستمعيه فيما يدعوهم إلى الإيمان برسالته، عندما قال: «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي»[٤٠]؛ وهي

٣٩- كتاب «علم الأديان .. مساهمة في التَّأسيس» / ميشال مسلان.
٤٠- إنجيل يوحنا / ١٠ ـ ٣٧

مقولة إيمانيَّة بحتة، نفهم منها، من بين أفهام مُتنوِّعة لها، أنَّ الإنسان مع صناعته لأولى منتجاته البدائيَّة، فطن إلى وجود صانع أكبر وأعظم، وأنَّه حين يصنع شيئًا فهو يُقلِّد خالقًا أكبر، وهو فهم إيمانيّ يخالف ما قرَّره أندرو لانج وغيره، مِن أنَّ البشر لم يهتدوا إلى خالق، بل اخترعوا وجوده لأسباب نفسيَّة مُتعلِّقة دائمًا بأحوالهم المجتمعيَّة.

وبِناءً على الفكرة القائلة بإبداع البشر لله، ووضعهم الدِّين ـ وليس العكس ـ لحاجات نفسيَّة مُتعلِّقة بوجودهم المُجتمعيّ، تكَهَّن فريدريك نيتشه، الفيلسوف الألمانيّ «بأنَّ حاجة أوروبا إلى المسيحيَّة سوف تستمر ما دام يُوجَد أناس يحتاجون إلى الإيمان بها، وليس العكس، ويؤكِّد: لا تستمرّ الأديان لأنَّها صحيحة، بل بسبب حاجة النَّاس إلى الإيمان بها»[٤١].

وبِناءً على الفكرة نفسها انطلقت دعوات عالميَّة تجديديَّة بخصوص ضرورة ظهور «معتقدات معاصرة ليست سياسيَّة ولا دينيَّة، بل هي خاصَّة: ضمير الفرد هو المسؤول عن تحديد الحقيقيّ والخيِّر والعادل»[٤٢]. وهو ما يعني تنحية كلّ ما هو لاهوتيّ، أو ميتافيزيقيّ، قائم على أصول روحيَّة غير عقليَّة، وهو شكل آخر من أشكال قدرة الإنسان على تشكيل عقائد جمعيَّة غير موحىً بها، مع ذلك يُسبِغ عليها من قداسة ليست باسم الله والدِّين، ولكن باسم النِّظام والقانون.

وهناك من يقول إنَّ البشر اخترعوا الآلهة، في محاولة منهم

٤١- كتاب «الإيمان الحرّ أو ما بعد المِلَّة» / فتحي المسكيني.

٤٢- كتاب «أزمة الهويَّات» / كلود دوبار.

للتَّخلُّص من رعبهم الوجوديّ المُتمثِّل في الموت، الذي يصفه أحدهم قائلًا: «مؤلم الموت، بل هو الأكثر إيلامًا؛ لأنِّي لا أعرف إلى أين أذهب. مُعضلة الموت الوحيدة تكمن في: لا أعرف إلى أين أذهب»[٤٣].

وللتخلُّص من هذا الألم المخيف تصَوَّر الإنسان «أنَّ هذا الآخر المَيِّت سيرجع إلى حياة أخرى جديدة، مشروطة بأن تكون مختلفة جوهريًّا عن حياته الأرضيَّة الأولى، كي لا يعاوده شعور الرُّعب القاتل مَرَّة أخرى. وهنا جاءت فكرة القيامة والحياة الثَّانية، التي كان شرطها ـ كما أسلفنا ـ التَّحرُّر من قيود الزَّمان... فجاءت فكرة الأزليَّة البشريَّة في الحياة الأخرى... وكي تكتمل القِصَّة كان لا بُدَّ من إيجاد كائن يمكنه القيام بكُلِّ تلك العمليَّة المُعقَّدة ـ القيامة، إضفاء الطَّابع الأزليّ على حياة ما بعد الموت ـ ومن هنا جاءت فكرة الإله، صار الإله المدير العام لتلك المؤسَّسة التي قامت على حقيقة الموت وتصوُّرات الزَّمن والأزليَّة والقيامة»[٤٤].

وكانت للبعض آراءٌ أخرى في مُسبِّبات ظهور الأديان، منظورة من نفس الزَّاوية التي تطرح فكرة ابتكار الإنسان لله ووضعه للدِّين، وليس العكس؛ مثل الفرنسيّ جان مارتن شاركو، أحد روَّاد علم الأعصاب،الذي يعدُّ الدِّين «مظهرًا من مظاهر الهستيريا»[٤٥]؛ وهي أحد أشهر الأمراض النَّفسيَّة العُصابيَّة. والفرنسيّ بيت سانغلي، أحد المُهتمِّين بعلم النَّفس الاجتماعيّ، والذي يعدُّ الدِّين «قتامة

---

٤٣- نبيل فيَّاض في مقدِّمة ترجمته لكتاب «أفكار حول الموت والأزلية» / لودفيج فويرباخ.

٤٤- نبيل فيَّاض في المصدر السابق.

٤٥- "علم الأديان..." / ميشال مسلان.

نفسيَّة تنتشر عدواها كالأوبئة»[٤٦]. أمَّا فون هارتمان، الفيلسوف الألماني، فيعدُّ الدِّين «شعور مُتشكِّل بواسطة اللاوعي، ناشئ عن الإحساس بالبؤس الإنسانيِّ، والرَّغبة في البحث عن السَّعادة»[٤٧].

وجميع ما سبق لا يمنع أنَّ باعثًا عقلانيًّا صادقًا، كان دافعًا قويًّا نحو التَوصُّل إلى الإله الخالق، الكائن في مكان غامض غير معروف، وليس اختراعه، أو ابتكاره، أو إبداعه؛ إذ إنَّ الإلهيِّين الإنجليز مثلًا، لا يشكّون في «مقدرة العقل البشريِّ بلوغ الإقرار بالألوهيَّة بعيدًا عن أيّ شكل من أشكال الوحي»[٤٨]؛ أي: يستطيع الإنسان الاهتداء إلى وجود الخالق، وصناعة الدِّين، دون مساعدة من وحيٍّ سماويٍّ.

لكن قبل تأكيدات الإلهيّين الإنجليز، ربما بأكثر من اثني عشر قرنًا، حكى القرآن قِصَّة توثِّق ما وصل إليه هؤلاء مؤخَّرًا، وقد صَوَّرت لنا حيرة وترَدُّد النَّبيِّ إبراهيم (عليه السَّلام)، بين الآلهة المعروفة في زمانه، باحثًا فيها عن إله حَقٍّ، دون وحيٍّ سماويٍّ يرشده، أو بالأحرى: دون «خُطَّة إلهيَّة مُسبقة»، فرفضها جميعًا بعقله، قبل أن يولِّي وجهه شطر مَنْ خلق السَّماء والأرض، حتَّى وإن لم يتمَكَّن من رؤيته بالعين المُجرَّدة[٤٩].

نحن لسنا بصدد تفنيد مزاعم القائلين بأنَّ البشر هم مَن اخترعوا الله في مُخيِّلاتهم، ووضعوا الدِّين من عنديَّاتهم، ومن ثَمَّ الرَّد عليها، ولكن حين نُورِد شيئًا من مقولاتهم، فليس إلَّا للاستدلال

---

٤٦- "علم الأديان...." / ميشال مسلان.

٤٧- المصدر السَّابق.

٤٨- "علم الأديان ..." / ميشال مسلان.

٤٩- الآيات ٧٦ ـ ٧٩ من سورة الأنعام / قرآن كريم.

بها في إثبات رؤية جديدة لإسلام الألفيَّة الثَّالثة على مسلمي الحاضر والمستقبل تبَنِّيها، إذا كانوا حريصين على استعادة قوَّة دينهم في عالم كاد ينغمر بإفاضات عَلمانيَّة تتحَدَّى الدِّين، أيّ دين، أن يكون مَرِنًا وقادرًا على المناورات الحياتيَّة، في ظِلِّ مُستجدَّات علميَّة كاسحة، دون إخلال بطبيعته الإيمانيَّة التي تزعم ـ تلك الإفاضات العَلمانيَّة ـ أنَّها إيمانات غيبيَّة ميتافيزيقيَّة مُتخلِّفة، أنتجتها البشريَّة في طور جهلها.

وقد حاولت الكنيسة المَسيحيَّة كسب التَّحدِّي العَلمانيّ، خصوصًا عندما رأت انصراف الشَّعب المَسيحيّ عن أسرارها وكهنوتها، بل والتَّعامل باستهانة فكريَّة مع أسس الإيمان المَسيحيّ، حتَّى إنَّ ثلثا قرَّاء صحيفة «فوسفور» الفرنسيَّة، مِمَّن تتراوح أعمارهم بين اثني عشر وسِتَّة عشر عامًا، في تحقيق صحافيٍّ موضوعه: (يتساوى لدَيَّ إن كان يسوع ابنًا لله أو ابنًا لفَلَّاح، المهم هو ما يُقدِّمه لي) أجابا بالإيجاب[٥٠].

بل إنَّ «الغالبيَّة العُظْمى من الفرنسيِّين أكَّدوا، بطريقة أو بأخرى، (أنَّهم يأخذون بالاعتبار ضميرهم أكثر مِمَّا يأخذون بالاعتبار مواقف الكنيسة في ما يخصّ خياراتهم الحياتيَّة). لقد تخصَّخص الدِّينيُّ. إذن: فقدت المؤسَّسة الدِّينيَّة شرعيَّتها»[٥١].

وهكذا، في محاولة أكروباتيَّة للفت الأنظار إليها، واستعادة احترامها المفقود، وإعادة الشَّعب المَسيحيِّ إلى الاهتمام بها، قَرَّرت الكنيسة تغيير جلدها، وارتداء أزياء مواكبة لعالم عَلمانيٍّ

٥٠- "أزمة الهويات" / كلود دوبار.

٥١- المصدر السابق.

يُحاكِم الدِّين بالعلم، ويضع شرطًا لا محيص للدِّين عنه إذا رغب في البقاء، هو: تنَحِّيه عن الفاعليَّة في المسيرة البشريَّة، والتزامه بأن يكون مُجرَّد ممارسة خاصَّة.

ولم يكن في جعبة الكنيسة ما يُمكِّنها من رفض مثل هذا الشَّرط المُجحف، وفرض إرادتها العقائديَّة كدين سماويٍّ عظيم، ما اضطرّت معه إلى تقديم التَّنازلات بخصوص ما يُعدُّ من صميم الإيمان المَسيحيِّ. «فلقد حدث، في منطقةٍ بألمانيا، أن أعلنت راهبة تابعة للكنيسة عدم إيمانها بحياة أخرى بعد الموت. كما قام بعض أساتذة اللاهوت بتحويل يسوع إلى مُصلح اجتماعيٍّ فقط»[٥٢].

وقد وصلت الكنيسة الكاثوليكيَّة إلى مستوى خَطِر من التَّنازلات، عندما صرَّح أحد بابوات الفاتيكان بأنَّه لا يرى ما يمنع زواج المِثليِّين «اللوطيِّين»؛ لأنَّهم أبناء الله أيضًا، ولهم حَّق تكوين عائلة[٥٣]؛ وهو التَّصريح الذي تَزَامن مع الصَّوت المرتفع لمنظمَّات حقوق الإنسان، وهي تطالب بحريَّات شخصيَّة غير مشروطة، وإن تجاوز سقفها المستويات الأخلاقيَّة والدِّينيَّة المتعارف عليها بطول التَّاريخ الإنسانيّ الأخلاقيّ والدِّينيّ ـ إنَّه تصريح بابويٌّ يمالئ العَلمانيَّة بوضوح ـ وقد تبع هذا التَّصريح، والمفترَض به أن يكون الرُّوح القُدس هو من أملاه على البابا، اعتراف بعض الكنائس النّرويجيَّة والألمانيَّة بزواج المِثليِّين.

وعلَّق الكنيس اليهوديّ ـ بدوره ـ في نفس الشَّرَك، ما اضطرَّه إلى

---

٥٢- "الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة" / مراد هوفمان.

٥٣- تصريح للبابا فرانسيس في أحد مشاهد فيلم وثائقي عنه.

إجراء «محاولات تعديل الشَّعائر اليهوديَّة، ولا سيَّما الصَّلاة، فأُدخِلت الآلات الموسيقيَّة إلى المعابد، ومنها الأرغن، وعُلِّقت على النَّوافذ ألواح الزُّجاج المُلوَّن التي تحمل صورَ الأنبياء والقادة، واستُخدِمت التَّرانيم المسيحيَّة بأنغامها مع تعديل بعض كلماتها كي لا تؤذي المشاعر اليهوديَّة، وكان يقوم بأدائها جوقة مشتركة من الرِّجال والنِّساء (بعضهم مسيحيّون)، وكانت هذه محاولة من اليهوديَّة العصريَّة للاقتراب من الكنائس المسيحيَّة. وأُلغِي الفصل في معابد هؤلاء بين الرِّجال والنِّساء، وعُدِّلت كُتبُ الصَّلاة لتُحذَف منها أيّ عبارات لا تتَّفق مع الفكر الليبراليّ الغربيّ العصريّ، كالإشارة إلى الجنَّة، أو النَّار، أو يوم القيامة، وحَلَّت اللغات الغربيَّة، كالألمانيَّة والإنجليزيَّة، محل العبريَّة»[٥٤].

بل إنَّه في عام ١٨٧٩ الميلاديّ اجتمع قادة إحدى الحركات اليهوديَّة الإصلاحيَّة، وكانت تُعرَف بـ«حركة اليهود الإصلاحيَّة»، في مدينة فلادلفيا الأمريكيَّة، و«أصدروا بيانًا يُعبِّر عن حقيقة الاتّجاه العَصريّ، أو ما انتهى إليه. فقد أعلنوا تخلِّيهم عن مبادئ الشَّريعة الموسويَّة كما يُفسِّرها التُّلمود؛ لأنَّها تناقض الحياة العصريَّة، وأصبح اليَهوديُّ - بالتَّالي - في حِلٍّ من اتِّباع هذه التَّعاليم، وأعربوا كذلك عن رفضهم للتَّوراة والإنجيل كوَحيٍّ سماويٍّ، وأكَّدوا على ضرورة تفسيرها تفسيرًا رمزيًّا»[٥٥].

لكن؛ وبعد تقديم كُلّ هذه التَّنازلات من أجل عصرنة المسيحيَّة واليهوديَّة، ماذا كانت النَّتيجة؟

---

٥٤- ”رحلتي من الكفر إلى الإيمان .. قصة إسلام مريم جميلة“ / محمد يحي.
٥٥- المصدر السَّابق..

الإجابة مُتوقَّعة بالطَّبع: «أدَّى التَّحرُّر من سيطرة الكنيسة على البشر، كنتيجة لعمليَّة التَّنوير، إلى تهميش دور الدِّين. لقد احتلَّ الإنسان الفرد مكانة الله، بحسبان أنَّه هو الإنسان الفرد مقياس ومعيار كلّ شيء. لقد تمادَى الإنسان في تقدير ذاته وقدراته حتَّى أصبح الوثن الجديد لهذا العصر»[٥٦]. أو بأقلّ الخسائر «يترك الكثير من المسيحيِّين المؤمنين الكنيسة، ليس إلى دين آخر، ولكن لينضمُّوا إلى هذا البحر الهائل من المُتشكِّكين»[٥٧].

أمَّا بخصوص التَّغييرات التي طرأت على الإنسان اليهوديّ، بعد مواءمات كنيسهِ مع العصرنة العلمانيَّة، فإنَّ الكاتبة الأمريكيَّة مارجريت ماركوس، التي ارتدَّت عن يهوديَّتها وأعلنت إسلامها، وتسَمَّت بمريم جميلة، ذكرت في كتابها «رحلتي من الكفر إلى الإيمان» تداعيات ممالأة الكنيس اليهوديّ لدعوات العصْرَنة العلمانيَّة، وأنَّ الأمر انتهى إلى «فشل الحركة (اليهوديَّة) العصريَّة في تحقيق هدفها المعلن، وهو الحفاظ على إيمان اليهوديّ، وتمسُّكه بالشَّريعة، مع الاندماج الكامل في الحياة الغربيَّة الحديثة. وتختار لذلك ما كتبه النَّاقد البريطانيّ المعروف ديفيد ديتشيز عن والده الحاخام الأكبر لمدينة أدنبرة بأسكتلندا، فعلى الرُّغم من أنَّ هذا الحَبر قد كَرَّس حياته بأكملها ليثبت أنَّ توافق اليهوديّ في الحياة الغربيَّة يمكن أن يتمّ بدون تخلِّيه عن دينه أو إيمانه وتمسُّكه بالتَّعاليم المُحدَّدة لذلك الدِّين، إلَّا أنَّه فشل في ذلك، وكانت آية إخفاقه نشوء أبنائه كلّهم، على الإلحاد، بعد تربيتهم

---

٥٦- "أزمة الهويَّات" / كلود دوبار.

٥٧- "الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة" / مراد هوفمان.

في مدارس عَلمانيَّة»[58].

والأمر أشبه ما يكون بالتحاق أحد السَّائحين برحلة سفاري ذات ترتيبات تأمينيَّة خاصَّة، منها تحريز جسم السَّائح بالسِّيور الجِلديَّة، ووضع قدميه في حذاء ثقيل، وأن يحمل حقيبة مستلزمات ثقيلة على ظهره، والسَّير لمسافة طويلة في وادٍ صحراويٍّ مشمس حار؛ وقد أكَّدت الشَّركة المُنظِّمة على ضرورة الالتزام بتعليمات الأمان، حتَّى لا يتعرَّض السَّائح إلى المخاطر؛ لكن، وبعد مسافة من المشي المُجهِد، شعر هذا السَّائح بالإنهاك، وأراد نزع السُّيور، وخلع الحذاء، ووضع الحقيبة، لكن مندوب الشَّركة لم يسمح له بذلك، فغضب السَّائح، وصاح يُخيِّر المندوب بين السَّماح له بذلك، أو مغادرة الرِّحلة، واسترداد أمواله، والإساءة لسمعة الشَّركة؛ فرفع المندوب الأمر إلى مديري الشَّركة بواسطة جهاز اتّصال خاصّته، وخوفًا على المال والسُّمعة لم تجد الشَّركة بُدًّا من الانصياع لرغبات السَّائح، الذي فور تخلِّيه عن تدابير الأمان تعرَّض إلى مخاطر جَمَّة كادت تودي بحياته. فتذَمَّر هذا السَّائح بسبب الخطورة التي تعرَّض لها، وبعد عودته أشاع الأمر في الوسط المحيط به، وانتشر لتتلقَّفه وسائل الإعلام، وليتحوَّل الأمر إلى قضيَّة رأي عامّ؛ ما كان نتيجته إدانة الشَّركة؛ لأنَّها تخَلَّت عن نظامها الأمنيّ المعياريّ انصياعًا لرغبة زبون لا يدرك حجم المخاطر التي سيتعَرَّض لها عند تخلِّيه عن إجراءات الأمان الشَّاقَّة، وقد تخَوَّفت الشَّركة من خسارة مادِّيَّة وأدبيَّة محدودة إذا هي أنفذت نظامها، فكان أن خسرت سمعتها بالكامل، وتآكلت أعمالها السِّياحيَّة، ما أدَّى إلى توقُّف نشاطها.

٥٨- ”رحلتي من الكفر إلى الإيمان ..“ / محمد يحي.

ونحن، حين نشير إلى ما سقطت فيه اليهوديَّة والمسيحيَّة، لا نفعل ذلك شماتة، ولا تشَفٍّ، ولا استعلاء، ولا تهمة لهما، فالأحرى بالمجتمع الإسلاميّ ألَّا يكون من تلك المجتمعات التي «لم يعد لها من وسائل البقاء سوى التُّهمة: هي تتَّهم كُلَّ من يخرج عن أفقها الهَوَويّ المريح بدعوى الإلحاد أو الرِّدَّة أو الخيانة ... إلخ، وليس لها من تفسير لذلك سوى أنَّها مجتمعات تشعر بمرارة أنَّ المستقبل لم يعد كما كان، كونها لم تعد تملك تبريرًا معياريًّا كافيًا، أو مناسبًا، للبقاء بذاتها، كونها لم تعد تستطيع توفير شكل الانتماء الحيويّ للمنتمين إليها»[٥٩].

والإسلام، إذ يشعر فعلًا بمرارة تجاه حاضره، وبتخوُّفات تجاه مستقبله، لا يشعر بمرارة من تلك النوعيَّة التي يشعر بها الفاشلون، أو من خاب رجاؤهم، فلا زال في جعبته ما يصلح لإنسان مُتطوِّر على طول الألفيَّة الثَّالثة، وما يجعل المسلمين، حتَّى في أشَدّ حالات ضعفهم، مطمئنِّين بانتمائهم إلى الإسلام.

والإسلام إذا كان أبعد ما يكون عن حال الشَّماتة، أو التَّشفِّي، أو الاستعلاء، أو التُّهمة، لما جرى على اليهوديَّة والمسيحيَّة، فذلك لأسباب أخرى مُضافة إلى قوَّته الذَّاتية، وصِحَّة تعاليمه، منها أنَّ هاتين الدِّيانتين هما على الحقيقة شريعتان من شرائع الإسلام القديم، غصنان من شجرة التَّوحيد، وقد سَمَّى الإسلامُ معتنقيهما: أهل كتاب؛ أي أهل وَحيٍّ سَماويٍّ مُقدَّس. لكن حين نشير إلى سقطاتهما، فإنَّنا نفعل ذلك اعتبارًا وتعَلُّمًا، لصالح مسارعة فَوريَّة إلى رأب صدوعات استجدَّت في هيكل الإسلام، ها

---

٥٩- "الإيمان الحرّ أو ما بعد المِلَّة" / فتحي المسكيني.

نحن نراها، أودت فعلًا بفرعيه السَّابقين، ولا شَكَّ في أنَّها قادرة بدورها على الإضرار به لو أصرَّ المسلمون على استِمراريَّة الرُّكون إلى حالة الاستبداد الفِكريّ، والتَّبلُّد التَّأمُّليّ، ولم ينشطوا مسارعين إلى تدارك الموقف، مع الحذر الشَّديد من أن يكون هذا التَّدارك المُنتظَر ممالأة لدعاوى العصرنة، أو خُضوعًا لإملاءات العَلمانيَّة، ففي هذين ـ تحديدًا ـ نهاية أيّ دين، سماويًّا كان أو أرضيًّا.

لماذا الحذر الشَّديد؟

لأنَّ مُحمَّدًا ﷺ تنبَّأ فرأى أُمَّته شغوفة بتقليد، واتِّباع، سنن الأُمَّتين السَّابقتين: اليهود والنَّصارى، تقليدًا دقيقًا، درجة أنَّهما إذا دخلا جُحر ضَبٍّ، دخلت أُمَّة الإسلام خلفهما.[٦٠] فإذا استُسيغ ـ على مضض ـ لأمَّة الإسلام تقليد سابقتيها في شؤون الحياة ومجاريها، فلن يُستساغ تقليدهما على المسار الدِّينيِّ، الذي سينتهي بالإسلام إلى ما انتهيا إليه.

وهكذا؛ بعد قراءة ما سبق في هذا الفصل بتمَعُّن شديد، وإذا ما طُرِح عليك خيارٌ لا مفرَّ منه حول أيّهما أهم من الآخر: هل الإنسان، الذي يمكن أن يصل إلى الله بغير دين، أم الدِّين، الذي لا يُمثِّل شيئًا ذا بال دون إنسان يعتنقه؟ هل الجهاز، الذي يمكن أن يعمل دون كُتيِّب التَّشغيل، أم كُتيِّب التَّشغيل الذي لا يُمثِّل شيئًا ذا بال دون وجود الجهاز؟ فأيّهما تختار؟

فكِّر بمقتضيات عقل حُرٍّ، وأجب.

أمَّا إجابتي الخاصَّة، فهي: إنَّ مستقبل الإسلام، في الألفيَّة الثَّالثة،

٦٠- من مرويَّات أبي سعيد الخدريّ / أخرجه البخاريُّ.

يُحتِّم عليَّ اختيار (الإنسان). اختيار (الجهاز).

فمع التَّوغُّل مستقبلًا يتواصل اكتمال النُّضج الإنسانيِّ إلى نهايته، بحيث إنَّ قراءة الإنسان للدِّين لن تكون قراءته نفسها له قبل خمسة عشر قرنًا تقريبًا، أو بعد خمسة عشر عامًا من الآن، تمامًا كما لا تكون قراءة طفل عمره عشرة أعوام لأيٍّ من الكتب المُقدَّسة هي نفس قراءته لها وقد كبر وبلغ أربعين عامًا. وإذا لم يجد البالغ الرَّشيد في الدِّين ما يوائم بين شِقَّيه ـ الرُّوح والجسد ـ فسينفر منه، ويبدأ في البحث عن سبل إيمانيَّة أخرى تُحقِّق له ذلك، ولن يجد، ما تكون النَّهاية معه هو شتات الإنسانيَّة وتمزُّقها، واستسلامها الحتميّ لشروط الميكنة الصِّناعيَّة، ونظم الشُّمول الاقتصاديّ.

وسيذخر العالم بلا منتمين عبثيِّين يُسيطر عليهم مفهوم تفاهة الحياة؛ وقد أظهر البحث الدَّقيق «أنَّ هذا السُّلوك (اللا انتماء) يرجع إلى الظُّروف الشَّاذَّة التي تتميَّز بها حضارتنا؛ لأنَّ المقاييس الرُّوحيَّة تلاشت تمامًا. واستطاع فرويد وماركس أن يقنعانا بأنَّ البشر جميعًا متشابهون، وأنَّهم يخضعون لمؤثِّرات نفسيَّة واقتصاديَّة واحدة»[٦١].

أي، وبخلاصة الكلام: ستواجه البشريَّة أزمة تحوُّل جذريٍّ. من الإنسان (الإنسان) إلى الإنسان (الماكينة)، فاقد الشُّعور بالانتماء. لهذا «أحسَّت الشُّعوب دائمًا بفائدة تشكيل العقائد الإيمانيَّة العامَّة، وفهمت عن طريق الغريزة أنَّ تلاشيها يعني بداية انحطاطها ـ والعبادة المُتعصِّبة لروما كانت هي العقيدة الإيمانيَّة

٦١- "سقوط الحضارة" / كولن ولسون.

التي جعلت من الرُّومان أسيادًا للعالم ـ ولكن ما إن ماتت هذه العقيدة حتَّى انهارت روما»[٦٢].

ولا أحسب أنَّ هناك ما يعوق الإنسان عن الاحتفاء الكامل بالدِّين سوى إنَّ رجال الدِّين يتفنَّنون في ابتكار الفتاوى التي تمنع أتباع الدِّين من التَّمتُّع بمباهج الحياة، ويتعسَّفون في استنباط الحرام فيما يرفعون راية خلَّابة ترفع شعارًا نبويًّا رائعًا: «إنَّ الدِّين يسر، ولن يشادّ الدِّين أحدٌ إلَّا غلبه»[٦٣]. وهو شعار يعني أنَّ الدِّين سهل، بسيط، يسير، لا يرغب في المُتشدِّدين به ولا في المُتشدِّدين فيه، وذلك لسبب وحيد ومعقول، هو أنَّ الإنسان لم يُخلَق ملاكًا، بل إنَّ كمال الإنسان في نقصه، لو لم يرتكب النَّقائص يكون شاذًّا عن طبيعته، وكلُّ شاذٍّ عن طبيعته فاسد بالضَّرورة، حتَّى وإن شذَّ إلى الإحسان.

ولنتخيَّل على سبيل المثال أنَّ الشَّيطان شذَّ عن طبيعته الشِّرِّيرة إلى الطَّبيعة الملائكيَّة الخيِّرة، هل تكتمل الرِّواية الكونيَّة؟

إذا شذَّ جهاز طهي الطَّعام عن طبيعته النَّارية في الصَّيف وقرَّر العمل كمُبرِّد هواء! أو إذا شذَّت الثَّلاجة عن طبيعتها المُبرِّدة في الشِّتاء وقرَّرت العمل كمدفأة!

وعليه، فإنَّ واضع خُطَّة التَّسيير قد وضعها مناسبة لجميع حالات المنتج الخاصَّة بالمُستهدَف منه، ولا تتَعدَّى ذلك، لكنَّها خُطَّة بارعة في حدود مُتطلَّباتها. وعلى المسلم الاحتفاء بخُطَّة

---

٦٢- "سيكلوجيَّة الجماهير" / جوستاف لوبون.

٦٣- من مرويَّات أبي هريرة / أخرجه البخاريُّ.

الله الموضوعة لتشغيله الدُّنيويّ احتفاءً مناسبًا بصفتها خُطَّةً إلهيَّةً وُضِعت من أجله، لا هو من وُضِع أو خُلِق لأجلها ـ وشتَّان الفرق بين وجهتي النَّظر ـ ففي اعتقاد وجهة منها سعادة البشريَّة جمعاء، وفي اعتقاد أخرى تعاسة البشريَّة جمعاء.

ولنبيِّن الفرق بين وجهتي النَّظر نستعرض حوارًا جرى بين الرَّئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الابن والواعظ الإنجيلي الشَّهير بيلي جراهام، دوَّنه جورج بوش في مُذكِّراته. قال للواعظ: أعتقد أنَّ قراءة الكتاب المُقدَّس يمكن أن تجعل منِّي شخصًا أفضل. يقول جورج:

«فبدأ بيلي بطريقته اللطيفة والمُحبَّة بتعميق فهمي الضَّئيل للإيمان. قال لي: لا مشكلة باستخدام الكتاب المُقدَّس مرجعًا لتحسين الذَّات، فحياة يسوع توفِّر مثالًا يُحتذى به، ولكن التَّحسين الذَّاتيّ ليس في الحقيقة هدف الكتاب المُقدَّس، مركز المسيحيَّة ليس الذَّات، بل المسيح»[٦٤].

ونعتقد أنَّ هذا الإيمان ـ الذي يجعل الإنسان في خدمة الدِّين، لا الدِّين في خدمة الإنسان ـ كان له دوره الأكبر في إطلاق جورج بوش الابن حربه الشَّعواء ضدّ العراق المسلم. لقد كانت حربًا من أجل المسيح ـ ولو أنَّه ضرب بكلام بيلي جراهام عرض الحائط ـ مُعتبرًا المَسيحيَّة إصلاحًا للذَّات بالأساس، لما كان لهذه الحرب، التي ضيَّعت العراق، وهدَّدت السلام العالميّ، وأجهدت أمريكا، وجود.

---

٦٤- مذكرات جورج دبليو بوش» / ترجمة سناء حرب.

وهكذا، ربما حين يعتقد المسلمون في أنَّ الإسلام خُطَّة إلهيَّة وضعت لأجلهم، لا هم من وُضِعوا لأجلها، يدخل الإسلام كُلَّ بيتٍ في هذا العالم، سواء من وَبر، أو من مدر[٦٥].

---

٦٥- قد بشَّر بذلك مُحمَّد ﷺ أمَّته في رواية لتميم الدَّاري عنه في حديث أخرجه أحمد.

# الفصل الثَّالث

النَّقد الذَّاتيّ . الحالة الإسلاميَّة . كيانات إسلاميَّة ثلاثة . التَّأثير الجاهليُّ . العربيُّ والأعرابيُّ . تحت سقيفة بني ساعدة . الحباب بن المنذر . آل البيت والصَّحابة والحُكْم . إنَّ فيك جاهليَّة . الدُّنيا تُفتَح على المسلمين الأُوَل . قصر سعيد بن العاص في المدينة . انتقالات الخلافة . تأثير الأعراف الأممية في الإسلام . الاحتلال الغربي لبلاد الإسلام وانتهاء الخلافة . النُّخبة العربيَّة المُثقَّفة ودورها في تمكين القبضة الغربيَّة النَّاعمة . محاولات إسلاميَّة ناهضة. التَّبليغ والدَّعوة.

للحيلولة دون تردِّي نسخة الإسلام المُحمَّديَّة إلى ما تردَّت إليه نسختاه السَّابقتان، الموسويَّة (اليهوديَّة) والعيسويَّة (المسيحيَّة)، علينا المبادرة بتفعيل نظام نقديٍّ ذكيٍّ بشجاعة منقطعة النَّظير، خصوصًا وأنَّنا لن نستورد أنظمة نَقديَّة من خارج الإسلام؛ إذ أحد أهمّ عناصر قوَّة هذه النُّسخة المُحمَّديَّة هو ضميرها، والضَّمير هو نظام نقد ذاتيّ التَّشغيل، يبحث القيمة المطلوب تقديرها أخلاقيًّا ـ أو يُفتِّش في مكوِّنات البرنامج التِّقنيّ للجهاز ـ؛ ليُعطي قراءات تُشير إلى مواقع الخطأ، أو الخلل، ثُمَّ على من يهمّه الأمر الاستفادة بهذه القراءات في تصحيح الأوضاع.

وكأيّ طبيب جرَّاح يُقدِم على إجراء عمليَّة جراحيَّة خطيرة لابنه، فيُحيِّد عاطفة الأبوَّة جانبًا، ويستخدام المشارط ومواد التَّخدير، ويشقّ الجلد، ويُجري اللازم من بتر أعضاء، أو أجزاء من أعضاء،

انتهاءً بتخييط الجرح، وحين يمارس كلَّ هذه القسوة فإنَّه يمارسها بحياديَّة تامَّة، مُستهدِفًا إحياء ابنه حياة أفضل، خالية من آلام المرض ووعكاته، هكذا على المسلمين تحييد عاطفتهم الدِّينيّة جانبًا، ووضع (الحالة الإسلاميَّة) المهيضة، خاصّتهم، على طاولة العمليَّات الجراحيَّة، وإجراء ما يلزمها من جراحة نقديَّة، لتستعيد رونقها القديم.

ونقصد بـ (الحالة الإسلاميَّة) ذلك التَّفاعل المُتبادل بين الإسلام والمسلمين.

أو بتعبير آخر: التَّطبيق البَشريّ للخُطَّة الإلهيَّة.

ونزعم أنَّه قد لا يكون بالإمكان إجراء تقييم صحيح لمدى كفاءة هذا التَّطبيق قبل أن نفهمَ كيف ينظر المسلم إلى الإسلام. وهو الفهم الذي لن نستوعبه ـ أيضًا ـ قبل أن نعرفَ أيّ مسلمين نعني بكلمة «مسلمين».

هل نعني المسلمين الأوائل، الذين استقبلوا الدَّعوة مباشرة من مُحمَّد ﷺ، أم نعني المسلمين التَّابعين، أم نعني المسلمين من تابعي التَّابعين وحتَّى مسلمي العصور الحديثة؟

هل نعني البدو الأعراب الأقْحَاح، أم نعني العرب متوسِّطي التَّحضُّر في مكَّة والمدينة؟ أم نعني شعوب الفتوحات في العراق والشَّام ومصر؟ أم نعني شعوب الأقاليم البعيدة عن طبائع العرب في آسيا وأوروبَّا وإفريقيا؟

فلم يعد المسلمون - بعد الفتوحات الواسعة - عربًا فقط، بل شعوبًا مختلفة الأعراق، والشُّعوب «تختلف عقليًّا ونفسيًّا اختلافًا كبيرًا، فعقليَّة الإنجليزيّ غير عقليَّة الفرنسيّ، وهما غير عقليَّة المِصريّ، وهكذا؛ وهذه العقليَّات والنَّفسيَّات تختلف تبعًا لاختلاف البيئة الطَّبيعيَّة والاجتماعيَّة التي تُحيط بالأمَّة، فالشُّعوب تقف في العالم على درجات متسلسلة الرُّقيّ، وكلٌّ درجة لها مُميِّزاتها العقليَّة والنَّفسية»[٦٦].

ثُمَّ إذا كان كُلّ فرد مسلم، في كلِّ مجتمع إسلاميٍّ، له رؤيته الخاصَّة للإسلام، تُحدِّدُها قدراته العقليَّة والوجدانيَّة؛ وإذا كان عدد المسلمين الآن يقارب الملياري مسلم، فيمكننا القول بثقة إنَّ لدينا ملياري تطبيقًا إسلاميًّا مختلفًا، مهما كانت أسس الإسلام عند جميعهم واحدة.

وعليه، فإنَّ محاولة الإحاطة بتمايزات المسلمين جميعًا، أزمنة وأمكنة وشعوبًا، قد تكون عملًا مستحيلًا.

مع ذلك، فإنَّ قراءة تاريخ الإسلام على مدى ١٤ قرنًا ونيِّف تُمكِّننا من الحصول على تقسيم بدائيٍّ، يوزِّع جميع المسلمين في ثلاثة كيانات تاريخيَّة كبرى، أوَّلها تلك التي كان المسلمون فيها أقلَّ عددًا وأعظم تأثيرًا، وهم المسلمون الأوائل مِمَّن بُعِث فيهم مُحمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، وحتَّى انتقاله إلى الرَّفيق الأعلى؛ وهو الكيان الإسلاميّ الذي لم يعمر لأطول من ثلاثة وعشرين عامًا.

---

٦٦- كتاب «فجر الإسلام» / أحمد أمين.

أمَّا الكيان الإسلاميُّ الثَّاني فقد كان أطولها عمرًا، وأوسطها تأثيرًا، عايش مسلموه عصور الخلافة، وقد بدأت في الحجاز بأبي بكر الصِّدِّيق خلافة على منهاج النُّبوَّة، وانتهت في تركيا بالسُّلطان عبدالمجيد الثَّاني مُلْكًا عضودًا ليس فيه من الخلافة النَّبويَّة سوى الاسم فقط؛ وهي فترة زَمنيَّة بسطت جناحيها على اثني عشر قرنًا زمنيًّا تقريبًا.

وأخيرًا الكيان الثَّالث، وهو الأكثر من ناحية عدد المسلمين، لكنَّه الأقلّ تأثيرًا على الإطلاق بين الكيانات الثَّلاثة، أوسطها عمرًا، إذ يبلغ ثلاثة قرون تقريبًا.

وليس معنى توزيـع المسلمين في كيانات ثلاثة أنَّ مسلمي الكيان الواحد لهم النَّظرة نفسها إلى الإسلام؛ فحتَّى بين المسلمين الأوائل من تمَيَّز بشِدَّة الإخلاص لهذا الدِّين الجديد، فكانوا لبنته الأولى التي تحَمَّلت مشاقَّه في مَكَّة، على مدى ثلاثة عشر عامًا، عُذِّبوا وقُتِلوا قبل أن يُضطرُّوا إلى الهجرة مُخلِّفين أموالهم وديارهم لا لشيء غير الحفاظ على دينهم، فسُمّوا: السَّابقون. وسُمُّوا: المهاجرون؛ ومن المسلمين الأوائل أهل المدينة، الذين قَسَّموا أموالهم وبيوتهم، وحتَّى أزواجهم، بينهم وبين المهاجرين إليهم انتصارًا لهذا الدِّين، فسُمّوا: الأنصار؛ ومن هؤلاء المسلمين الأوائل أيضًا مسلمو ما بعد فتح مكَّة، الملقَّبون بالطُّلقاء؛ ومن الأوائل أيضًا المسلمون المنافقون، الذين ما فتئ القرآن يُقرِّعهم.

لكن، ومع اختلاف درجة النَّظر إلى الإسلام بين مسلمي ذاك الكيان الأوَّل، يبقى الكيان الأقوى، فقد حظي بعمود فِقَريٍّ عظيم أكسبه هذا القوام المتين، لم يحظ بمثله الكيانان التَّاليان، ألا وهو

مباشرة النَّبيِّ ﷺ بنفسه لأمور هذا الكيان، ما جعل مسلموه يشعرون بأنَّهم على اتِّصال مباشر بالله جَلَّجَلَالُهُ الذي يوالي وحيه إلى رسوله الماكث بينهم؛ بهذا الإحساس المتسامي نظر غالبيَّة مسلمي ذاك الكيان إلى الإسلام.

هذا غير أنَّهم ـ قبل الإسلام ـ لطالما عاشوا حياةً أشبه ما تكون بحياة الغاب، شعب في كتلتين كبيرتين غير موحَّدتين، كتلة العرب، ذات الحضارة البدائيَّة الكائنة بمكَّة والمدينة، وبعض الواحات هنا وهناك مثل الطَّائف ووادي القُرى؛ وكتلة الأعراب الهلاميَّة، وهي زرافات من قبائل البدو، تنتشر مبعثرة على امتداد الصَّحراء بين البحر الأحمر غربًا والخليج الفارسيّ شرقًا، وبين اليمن وعُمان جنوبًا والحيرة الفارسيَّة والغساسنة الرُّوميَّة شمالًا، يتتبَّعون بأغنامهم وإبلهم مواقع الغيث، وبأفراسهم مواقع الغارات، يتصَيَّد بعضهم بعضًا، يتبادلون السَّلب والنَّهب حتَّى لا تكاد قبيلة تنجو من أذى أختها، ولا تكاد قبيلة تنجو. بعد هزيمتها . من تحوُّل بعض نسائها وشبابها وأطفالها إلى إماء وعبيد، يباعون في أسواق النِّخاسة، فيلحقها العار.

لم يكن ثَمَّة أمن، والأمن أثمن من الماء على عطش، والطَّعام على جوع، والدَّواء على مرض، فنظروا أخيرًا، فوجدوا الإسلام يُحرِّم تحريمًا قاطعًا هذا السَّلب والنَّهب، ويُلجِم ما بينهم من عداوات مُذلَّة، مُوحِّدًا إيَّاهم تحت راية لا تُرفَع باسم بشر، بل راية قدسيَّة مرفوعة باسم الله، الجميع تحتها سواء.

وإذا قطع الإسلام العنف فيما بينهم، فإنَّه لم يكبت فيهم خصالهم

الوحشيَّة الطَّبيعيَّة كبدو صحراء، تلك الخصال التي يرى جولد زيهر، المُستشرق مَجريّ الجنسيَّة يهوديّ الدِّيانة، أنَّ العرب الوثنيِّين يعدونها مُثلهم العليا في حياة الجاهليَّة، وأصول الفضائل عندهم، وهي: «الشَّجاعة الشَّخصيَّة، والشَّهامة التي لا حَدَّ لها، والكرم إلى حدِّ الإسراف، والإخلاص التَّامّ للقبيلة، والقسوة في الانتقام، والأخذ بالثَّأر مِمَّن اعتدى عليه، أو على قريب له، أو على قبيلته بقولٍ أو فعلٍ»[٦٧]؛ هذا غير ما يضيفه ابن خلدون، رائد علم الاجتماع العربيّ، من وصف قاسٍ للعرب، عندما يقول: «إنَّهم بطبيعة التَّوحُّش الذي هم فيه أهل انتهاب وعبث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر»[٦٨]؛ أيضًا، من خصال العربيّ أنَّه: «عصبيٌّ المزاج، سريع الغضب، يهيج للشَّيء التَّافه، ثُمَّ لا يقف في هياجه عند حَدٍّ، وهو أشدُّ هياجًا إذا جُرِحت كرامته، أو انتُهِكت حرمة قبيلته، وإذا اهتاج أسرع إلى السَّيف، واحتكم إليه، حتَّى أفنتهم الحروب، وحتَّى صارت الحرب نظامهم المألوف، وحياتهم اليوميَّة المعتادة»[٦٩].

هذه الخصال، بقضّها وقضيضها، هذَّبها الإسلام، وأعاد توجيهها بمنطلقات سامية وراقية، فالشَّجاعة الشَّخصيَّة، المتمثِّلة في الهجوم على القبائل المجاورة للسَّلب والنَّهب، تحوَّلت إلى جهاد مُقدَّس ضدّ الأمم الكافرة لنشر الإسلام؛ وتحوَّلت الشَّهامة من قيمة استعراضيَّة للشُّهرة إلى قيمة شخصيَّة للذَّات؛ وكذلك الكرم؛ أمَّا الإخلاص التَّامّ للقبيلة فقد صار إخلاصًا تامًّا للمجتمع

---

٦٧- "فجر الإسلام" / أحمد أمني.

٦٨- المصدر السَّابق.

٦٩- المصدر السَّابق.

الإسلاميّ الكبير المُحتضن لجميع القبائل، وهذه الأخيرة هي النِّعمة الكبرى التي غمرت العرب، والتي بلغ من عظمتها أن مَنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ عليهم بها، حين قال لهم: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}[٧٠]؛ أيضًا القسوة في الانتقام، والفُجر في أخذ الثَّأر، صارا بأسًا شديدًا وقوَّة عاتية ضد الأعداء في غزوات وفتوحات الإسلام.

الخلاصة: هي أنَّ الكيان الأوَّل نظر إلى الإسلام فرآه رؤية عين، وتعامل معه واقعًا مُعاشًا، استقبله دينًا، فوجد فيه دنياه، وبمعايشته وجد فيه معنى آخرته، فصَدَّقه تمامًا، ما كان معه أن آمن به صِدقًا، فلم يتوانَ عن بذل الغالي والرَّخيص في سبيله، ولِمَ لا وقد كان الإسلام ـ من منظوره ـ حياةً عزيزة مَدَّت ساعديها إليه، فانتشلته من مواته التَّاريخيّ كعرب يتصارعون تصارع وحوش البرِّيَّة فيما بينها، بلا هدف سامٍ، ولا قيمة حقيقيَّة، فإذا بهم يتَّحدون ليصارعوا القوى العالميَّة، وينتصروا عليها، لا بقوَّة سلاح، أو بكثرة عدد، بل بما في إسلامهم هذا من إيمانٍ ومَدَد.

أمَّا الكيان الثَّاني، الأطول عُمرًا والأوسط عملًا، فمثله مثل الكيان الأوَّل من جهة أنَّ ليس جميع مسلميه كانت لهم نفس النَّظرة الواحدة إلى الإسلام، فأَوَلهم، الَّذين عاصروا الإسلام في حياة مُحمَّد ﷺ، وامتدَّ عمرهم ليعيشوا الإسلام بعده، ظَلُّوا ينظرون إلى الإسلام نظرتهم له باعتبارهم أعضاءً في الكيان الأوَّل، غير أنَّ واقعة وفاة النَّبيِّ ﷺ الدَّهماء كان لها أثر بالغ في إصابة نظرتهم تلك بالعطب.

---

٧٠- الآية ١٠٣ ـ آل عمران / قرآن كريم.

إذ بغتة أظلمت المدينة، «وأظلم منها كُلُّ شيء»[٧١]، ووجدوا أنفسهم طُرحاء دنيا السِّياسة ولمَّا يُدفَن جثمان الرَّسول ﷺ بعد، وكانت الدُّنيا قبل وفاته دينًا تخالطه السِّياسة، فإذا بها بعد وفاته تُمسِي سياسة يخالطها دين، حتَّى إنَّ صاحبين من أفضل صحابة الرَّسول ﷺ وأقربهم إليه ـ أبو بكر الصدِّيق وعمر بن الخطَّاب ـ أمكن لعقلَيهما الذِّهاب بعيدًا عن موت صاحبهما الأقرب، والمسارعة إلى سقيفة بني ساعدة، بعد أن بلغهما تآمر ثُلَّة من أكابر مسلمي الأنصار تحتها لمناقشة مصير الحكم.

ولنا اليوم أن نندهش لمثل هذا التَّصرُّف الجافي، الخالي من العاطفة، لكن إذا عرفنا إلى أيّ مدى تبلغ واقعيَّة وعَمليَّة العربيّ القديم، ساكن الصَّحاري المفطور بوحشيَّة الفلاة، لزالت دهشتنا، ولتفَهَّمنا الموقف على أصولٍ قائمة في زمانه ومكانه، لا على أصول قائمة في زماننا ومكاننا. وها هو المستشرق البريطانيّ أوليري يكشف في كتابه «العرب قبل مُحمَّد» عن طبيعة أخلاقيَّة للعَربيّ تكاد تكون رُكِّبت جينيًّا، فتُنشِّط واقعيَّته وعَمليَّته لدرجة تكاد تنزع عنها أيًّا من أردية العواطف أو أقنعة المجاملات: «إنَّ العَربيَّ، الذي يُعدُّ مثلًا أو نموذجًا ماديًّا، ينظر إلى الأشياء نظرة مادِّيَّة وضيعة، ولا يُقوِّمها إلَّا بحسب ما تُنتِج من نفع، يتمَلَّك الطَّمع مشاعره، وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف، لا يميل كثيرًا إلى دين، ولا يكترث بشيء إلَّا بقدر ما ينتجه من فائدة عمليَّة»[٧٢].

---

٧١- مقولة للصَّحابيّ أنس بن مالك يصف حال المدينة لحظة وفاة النَّبي ﷺ

٧٢- ”فجر الإسلام“ / أحمد أمين.

ونحن لا نؤيِّد كلام أوليري على إطلاقه؛ لأنَّه إذا صَحَّ بخصوص الأعراب لا يصِحّ بخصوص العرب، فشتَّان الفارق بين الأعرابيّ والعربيّ؛ إذ الأوَّل هو البدويّ البدائيّ، الذي يغلب عليه مفارقة العمران، والرُّكون إلى الانعزال عن الحضارة، ثُمَّ يتعامل مع الحضارة بصفتها محلَّ ارتزاقٍ مجَّانّي، فيهاجم عمرانها، ينتهبه نهبًا، ويسلب أهله سلبًا؛ وأظنّ أنَّ هؤلاء الأعراب هم من قصدهم ابن خلدون بوصفه عندما قال: «وهم إذا تغلَّبوا على أوطان أسرع إليها الخراب؛ لأنَّهم أُمَّة وَحشيَّة، فينقلون الحجر من المباني ويخربونها لينصبوه أثافيَّ للقِدر، ويخربون السَّقف ليعمّروا به خيامهم، ويتَّخذوا الأوتاد منه لبيوتهم، وليس عندهم في أخذ أموال النَّاس حدّ ينتهون إليه، وليست لهم عناية بالأحكام وزجر النَّاس عن المفاسد، إنَّما همُّهم ما يأخذونه من أموال النَّاس نهبًا أو مغرمًا»[٧٣].

وهذه النَّوعيَّة من الأعراب لم تنقرض من الوجود بعد، ولا تزال موجودة في نواحي كثيرة من البلاد العربيَّة؛ وأذكر أنَّني - في أيَّام الشَّباب اللصيقة بالمراهقة - كنت أعمل لدى عَمٍّ لي من مقاولي الاستصلاح الزِّراعيّ، في منطقة العامريَّة جنوب الإسكندريَّة، وكانت العامريَّة قبل ثلاثين عامًا صحراء مترامية الأطراف، ليست كما تبدو عليه الآن مروجًا خضراء، فما أن ننصب خيامنا في مكان العمل، وفيها أمتعتنا وأموالنا وأدوات العمل، حتَّى تنهال علينا التَّحذيرات من الشَّركة المُنفِّذة بضرورة الاحتياط الشَّديد من «العرب»، وكُنَّا نُسمِّيهم بلهجتنا الصَّعيديَّة الدَّارجة «العِربيِّين»، والواحد منهم: «عِربِي»؛ وواضح أنَّها كلمة عاميَّة صَعيديَّة

٧٣- "فجر الإسلام" / أحمد أمني.

دارجة، اشتُقَّت من «عَرَب»، ويُقصَد بها «الأعراب». وحتَّى في القرية التي أنتمي إليها بعائلة أبي، في وسط صعيد مصر، نجع الخمايسة من محافظة سوهاج، كان النَّاس يتكلَّمون عن «عِرِبي» يقيم بأسرته غرب البلد، في الجبل، يتعَيَّش من السَّلب والنَّهب وزراعة الخشخاش والأفيون.

وقد أُنزِل القرآن على نَبيٍّ عَربيٍّ يصف الأعراب بأنَّهم: {أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ}[٧٤]

ورغم البَون الحضاري الواسع بين الأعرابيّ والعربيّ لا يمكن إنكار أنَّ الأصل واحد، شبه جزيرة العرب، وأغلبها صحراويّ الطَّقس، أعرابها يتتبَّعون مساقط القطر، وعربها يتتبّعون نوق قوافلهم التِّجاريَّة في رحلاتهم الطَّويلة إلى مختلف الأسواق الكبيرة في الشَّام واليمن والبحرين والعراق، وعليه يكون الأعراب والعرب، في ميزان الواقعيَّة العَمليَّة تحديدًا، سواء: أنَّهم مادِّيُّون بحكم الطَّبيعة، أم بحكم التِّجارة.

كما لا نستطيع الزَّعم بأنَّ المسلمين الأوائل ارتدوا ثياب التَّحضُّر الأخلاقيّ فور إسلامهم، أو أنَّ طبيعتهم الجاهليَّة زالت عنهم بضغطة زِرٍّ فور اعتناقهم الدِّين الجديد، بل المؤكَّد أنَّ تلك الطَّبيعة لم تزل تظهر فيهم بين الفينة والفينة، والواقعة والواقعة، حتَّى إنَّ وجود الرَّسول ﷺ فيهم لم يمنع ظهورها على السَّطح بكلِّ قوَّة في مناسبات عديدة، منها ما كان شديد الخطورة على المجتمع الإسلاميِّ النَّاشئ، وما وقع في غزوة بني المصطلق بين المهاجرين والأنصار مشهور، وتسبَّب في نزول آيات من

٧٤- الآية ٩٧ . سورة التَّوبة / قرآن كريم.

سورة التَّوبة، وذلك عندما سكع مُسلمٌ مهاجريٌّ مُسلمًا أنصاريًا، فنادى الأنصاريُّ حَيَّه، ونادى المهاجريُّ حيَّه (سلوك الجاهليَّة)، وأوشك الحيَّان على ترك قتال العدوِّ إلى قتال بعضهم بعضا! وبلغ ذلك مُحمَّد ﷺ، فوصف ما جرى بأنَّه جاهليَّة مُنتِنة، وأمرهم بتركها.[٧٥].

ونزعم أنَّ الدَّافع وراء تآمر بعض مسلمي الأنصار، تحت سقيفة بني ساعدة، كان جاهليًا بدوره، فلعلَّهم رأوا ـ بموت الرَّسول ﷺ ـ انقضاء الميثاق المُعلَّق في رقابهم، والذي عُقِد بينه وبينهم، قبل عشر سنوات تقريبًا، ببيعتَي العقبة تحت الشَّجرة، وأنَّهم حين ارتضوا قيادته لهم، وهو القُرشيّ الغريب عن المدينة، المهاجر إليها مُستظلًّا بحمايتهم، فذلك لأنَّه رسول الله جَلَّجَلَالُهُ، استمالوه إليهم قبل أن يستميله يهود المدينة إليهم؛ وكان اليهود قد هَدَّدوا مناوئيهم، من الأوس والخزرج، بأنَّ رسولًا سيخرج، وسيتَّبعونه، ويحاربونهم به، ويقتلونهم قتل عاد وإرم، ويُجلونهم عن المدينة[٧٦]. لكن أمَا وقد استقرت المدينة عاصمةً لشبه جزيرة العرب، وخلت تمامًا من اليهود، وروح رسول الله ﷺ جاوز صُعُدًا إلى رفيقه الأعلى، فليس لغيره من المهاجرين نفس الحَقِّ في قيادتهم بعده؛ وإذا كانوا بذلوا للمهاجرين حَقَّ الإكرام، ويد المساعدة، فهذا لا يعني أنَّهم مُستمرُّون في بذل العَون إلى أن يصير الغرباء سادة أهل البلد!

وما قد يجعل من زعمنا حقيقة هو قول الحبَّاب بن منذر الأنصاريّ،

٧٥- في حديث أخرجه البخاريُّ.

٧٦- من «دلائل النبوَّة» بتخريج البَيهقيّ . وحسَّنه الألبانيُّ.

في مؤتمر سقيفة بني ساعدة، رافضًا استبداد المهاجرين بالأمر (أي: الحكم) دونهم، وطالبًا المشاركة: «مِنَّا أمير ومنهم أمير»؛ فرفض عمر بن الخطَّاب ذاك الاقتراح، وبرَّر رفضه بعدم إمكانيَّة اجتماع اثنان في قرن واحد، أو على رأي المثل المِصريِّ بعاميِّته الدَّارجة: «المركب أمّ ريِّسين تغرق». فكان أن اشتدَّ غضب الحَبَّاب، وهتف في المؤتمرين من بني جلدته قائلًا: «يا معشر الأنصار، أملكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبَوا عليكم ما سألتموهم، فأجلوهم عن هذه البلاد، وتوَلَّوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحقّ بهذا الأمر منهم، فإنَّه بأسيافكم دان لهذا الدِّين من لم يكُ يدين به. أنا جذيلها المُحكَّك وعذيقها المُرجَّب. والله لو شئتم لنعيدنَّها جذعة»[٧٧].

ومَن هذا الحبَّاب بن المنذر الذي ينطق بلسان أشبه ما يكون لسان عبدالله بن سلول كبير المنافقين؟

إنَّه من أخلص المسلمين الأوائل للإسلام، لم يرَ مُحمَّدٌ ﷺ فيه نفاقًا، وكذلك أكابر الصَّحابة، لم يُعهَد به إلَّا إخلاص النيَّة وصدق القول؛ ولم يكن من المسلمين الرَّاكدين الهمل، بل كان صاحب سجلٍّ إسلاميٍّ نشط ناصع البياض، فهو من أشار بتعديل موقع جيش المسلمين في غزوة بدر، التَّعديل الذي كان له أبلغ الأثر في انتصار ذاك الجيش قليل العَدد، ضعيف العُدد، على جيش المشركين الأكبر عددًا وعُدَّة؛ وفي غزوة أُحُد بايع الحَبَّابُ مُحمَّدًا ﷺ على الموت، وكان من الَّذين ثبتوا وقت الهزيمة؛ وهو من

٧٧- في حدبث السَّقيفة ـ أخرجه البخاريُّ.

القلائل الذين شهدوا جميع المشاهد النَّبويَّة.

مع كلّ تلك الأعمال الجليلة في خدمة الإشراق الإسلاميّ، فإنَّ جذور الجاهليَّة كانت لم تزل ضاربة في أعماق الحبَّاب بن المنذر، درجة تأثيرها بقوَّة على أدائه في اجتماع السَّقيفة، وكان الأجدر به الدَّعوة إلى فضِّ المؤتمر احترامًا للجثمان المُكرَّم، المُوسَّد في فراشه لا يزال، وتبجيلًا للجنازة المُطهَّرة، فإذا به يُصعِّد نبرة التَّحدِّي، ويحتدّ على أعزِّ أصحاب مُحمَّد ﷺ، ثُمَّ يمنّ على الإسلام بسيوف الأنصار، وتُعمِي جاهليَّتُه الدَّفينة بصيرتَه عن مِنَّة الإسلام العظيمة على الأنصار؛ وأخيرًا، تنتهي به جاهليَّته الدَّفينة إلى تهديد المهاجرين بالطَّرد من المدينة، والاستئثار بالأمر دونهم!

والأدهى أنَّ نزعات الجاهليَّة لم تقصر ظهورها بين ظهرانيّ الأنصار فقط، بل ظهرت بين المهاجرين أنفسهم، بل وبين قرابة مُحمَّد ﷺ تحديدًا، وقبل وفاته بقليل، في مرض موته؛ عندما همس العبَّاس، عَمُّ الرَّسول ﷺ، في أذن عليٍّ بن أبي طالب، ابن عَمِّ رسول الله ﷺ، وزوج فاطمة بنت مُحمَّد ﷺ، ليخبره بأنَّه يعرف الموت في وجوه بني عبد المُطَّلب قبل رحيلهم، وأنَّه يرى الموت في وجه الرَّسول ﷺ، وطالبه بأن يذهب إليه، ويستوضحه بخصوص هذا الأمر (الحُكم)، لمن يكون من بعده؟[٧٨] ولم يقبل علِّي مقترح عَمِّه العبَّاس؛ ولسنا في معرض ذكر تفاصيل الواقعة، لكنَّنا نستشهد بالجزء منها لإثبات ما نظنّ صحَّته، وهو: أنَّ حَميَّة الجاهليَّة الأولى لم تكن نُزِعت بكاملها من قلوب المسلمين الأوائل، لذلك

٧٨- انظر «الطَّبقات الكبرى» / ابن سعد.

سرعان ما ظهرت في مرض الرَّسول ﷺ، وفي وفاته، وبعدها أيضًا.

ثُمَّ بعدُ سيكون تأثيرها الغاشم طاغيًا على مجرى التَّاريخ الإسلاميّ كله، وحتَّى وقتنا الحاضر.

على ما سبق؛ إذا كان مبدأ ظهور الكيان الإسلاميّ الأوَّل دينيًّا، فإنَّ مبدأ ظهور الكيان الإسلاميّ الثَّاني كان سياسيًّا بامتياز، فتنحَّى المحور الدِّينيّ لصالح المحور السِّياسيّ، وظلَّ مدار هذا المحور الأخير جاهليًّا.

فقد انفضَّت معظم القبائل، رِدَّة عن الإسلام، عندما طُلِب منها أداء أموال الزَّكاة كما كانوا يأدُّونها لمُحمَّد ﷺ؛ إذ أبت جاهليَّتهم الدَّفينة إلَّا أن ترى الزَّكاة ـ وهي أحد أركان الإسلام الخمسة ـ مالًا كان يُدفَع إلى كبير القبائل مُحمَّد، وقد رحل هذا الكبير وانتهى الأمر؛ خصوصًا وأنَّ طبيعة العرب بالأساس لا تأنس إلى الانتظام تحت

سلطة قائد عامّ، فأرادوا بعدم أداء الزَّكاة . فيما نرى . إعلان التَّحرُّر من ذلك السُّلطان، والعودة إلى نظامهم القَبليِّ القديم، وهو دافع مُغرِق في الجاهليَّة.

وتلك السِّياسة . ذات الدَّوافع الجاهليَّة . تسبَّبت بعد وفاة النَّبيّ ﷺ بعقدين من الزَّمان في اندلاع حروب الفتنة الكبرى، التي دارت رحاها بين البيت الهاشميّ، مُمثَّلًا في عليٍّ بن أبي طالب، والبيت الأُمويّ، مُمثَّلًا في معاوية بن أبي سفيان، وهو صراع حميَّة على الحقيقة، وُشِّي بالدِّين تزويرًا، وتَلوَّن بالدِّماء المُلطَّخة لقميص الخليفة الثَّالث، عثمان بن عفَّان، وقت اغتياله.

وقد اغتيل هذا الصَّحابي الجليل، زوج بنتَي رسول الله ﷺ، وصاحب الأعمال الجليلة، التي خدم بها الإسلام في الطَّور الأوَّل من أطوار تكوينه؛ لأنَّ وازعًا دفع به، عندما كان أميرًا للمؤمنين، إلى اختيار بعض أقاربه، وتوليَتهم عُمَّالا وأمراءً لعدد من الأمصار في أنحاء الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة الوليدة؛ ولا يمنعنا تقديرنا العظيم لعثمان، وسوابقه الإسلاميَّة المنيرة، من أن نَصِف وازعه هذا بالوازع الجاهليِّ.

وكما أنَّ أوَّل بوادر الرَّهق وجرثومة الاختلاف ظهرا في الإسلام باجتماع السَّقيفة، فإنَّ أوَّل ملامح المُلك العضود ظهر في خلافة عثمان بن عفَّان، عندما تعامل مع السُّلطة بصفتها مِلكًا شَخصيًّا، يجوز استغلاله بالهبة للأقارب أو التَّوريث للأبناء، هذا غير تَمسُّكه بالسُّلطة مع مطالبة الشَّعب له بالتَّنحِّي

وهنا لا بُدَّ من وقفة توضيحيَّة لأمر مهم، وهو: أنَّنا حين نشير إلى تصَرُّف جاهليٍّ صدر عن أحد صحابة رسول الله ﷺ، لا نقصد الإقلال من قدره الشَّخصيّ، ولا التَّشكيك في إيمانه، فلا يُنكِر الأقدار العظيمة لهؤلاء المسلمين الأوَّلين إلَّا غير مُطَّلع على منجزاتهم، أو مُطَّلع لا يفهم، أو مُطَّلع بقلب جاحد؛ كما لا يُشكِّك في إيمانهم إلَّا كلّ غير مؤمن، وإنَّما نتناول نقائص هؤلاء القوم، وهم الأقرب إلى الكمال، بهدف التَّحليل الأمين، الذي يراهم ـ مهما بلغ قدرهم الإيمانيّ والشَّخصيّ ـ بشرًا، يتنازعهم ما يتنازع البشر، وقد يغلبهم، على إيمانهم وعزيمتهم الماضيين، الضَّعف الإنسانيُّ المُركَّب قسرًا في طبيعة آدم وبنيه. ونستضيء في هذا بمقولة مُحمَّد ﷺ لأحد أخلص المسلمين الأُوَل، نقصد أبا ذَرٍّ

الغفاري: «إنَّك امرؤ فيك جاهليَّة»، وذلك لأنَّ أبا ذرٍّ عَيَّر رجلًا بأُمِّه، فكيف بمن فعل أعظم من هذا بمراحل: سفك بسيفه المسلم دماء مسلم؟!

كما أنَّنا بوقفتنا التَّوضيحيَّة هذه، نُلفِت الانتباه إلى نقطة أخرى غاية في الأهميَّة، قد تَّعدُّ واحدة من أهمِّ مُرشدات مسيرة الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة، وهي: ضرورة الضَّبط التَّعريفيّ للصَّحابة الكرام، وذلك عبر الإجابة على سؤالين اثنين مُحدَّدين، أوَّلهما: مَن مِن المسلمين الأوَّلين مُستحقٌّ لوصفه بالصَّحابي؟ وثانيهما: هل الصَّحابيّ شخصيَّة دينيَّة مُقدَّسة لا علاقة له بالشَّخصيَّة الدنيويَّة المُدنَّسة؟

ثُمَّ كان للفتوحات الإسلاميَّة الواسعة والسَّريعة، دورها المؤثِّر في تحديد نمط مسلمي ذلك الكيان الثَّاني، وإزكاء سيادة العامل السِّياسيّ على العامل الدِّينيّ؛ فقد انطلقت جحافل المسلمين الصَّحراويين تفتح الممالك والحضارات، فداسوا بأقدامهم، وسنابك خيولهم، وأخفاف نوقهم وجمالهم، أراضٍ جديدة خضراء مُزهِرة، لا صفراء كئيبة قاحلة، أشبه ما تكون بجنَّات النَّعيم التي خلبت أوصافها ألبابَهم وهي تُتلَى عليهم بآيات من القرآن؛ فها هي الأنهار والأشجار والحور العين في العراق والشَّام ومصر، وفي أواسط آسيا والجنوب الشَّرقيّ من أوروبَّا، ثُمَّ بعد في الجنوب الغربيِّ منها: الأندلس الإسبانيّ.

ومع أنَّ مسلمي تلك المرحلة تمتَّعوا بإيمان لا شَكَّ في قوَّته، لكن ـ بلا شَكَّ أيضًا ـ نستطيع القول إنَّه ليس ذات الإيمان القويّ الذي أفعمت به قلوب المسلمين الأوائل؛ ومرجعنا قول مُحمَّد

ﷺ: «خير النَّاس قرني، ثُمَّ الذين يلونهم، ثُمَّ الذين يلونهم، ثُمَّ يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»[٧٩]؛ وهو القول النبويُّ الذي فصَّل المسلمين زمنيًّا، بحسب قُوَّة إيمانهم، لا بمعايير أخرى، فالأقوام الأخيرون يستهترون بدينهم درجة اللعب بشهادتهم، وهو خلل إيمانيٌّ جسيم.

هكذا نجحت الدُّنيا في اللعب برؤوس أكثر القادة والملوك، المُلقَّبين زورًا وبهتانًا بالخلفاء أو بأمراء المؤمنين، وأسكرتهم، حتَّى اتَّخذوا مساكن أشبه ما تكون بمساكن الَّذين ظلموا، وقد نُهوا عن سكناها من قبل، شيَّدوا القصور الفخمة بديلًا عن الخيام والبيوت، واقتنوا الإماء المُنوَّعة والعبيد المُلوَّنين بديلًا عن عبد واحد، أو أَمَة واحدة؛ ولم يرتبط قادة وأمراء الأقاليم بهذا النَّمط، حيث عثروا به في البلاد المفتوحة، ارتباطًا مَرحليًّا ينتهي بانتهاء الظَّرف زمانًا أو مكانًا، بل استقَرَّ ذاك النَّمط المعيشيّ الفاخر في قلوبهم، درجة أنَّ الواحد منهم إذا عُزِل، أو انتهت خدمته، وحَنَّ إلى وطنه في شبه جزيرة العرب، ينقل ذلك النَّمط القشيب معه، فبُنِيَت القصور الفخمة في ذات المدينة التي انطلقت منها الدَّعوة إلى الزُّهد وضبط الإسراف، ولنا مثال على ذلك في قصر سعيد بن العاص، المعدود من الصَّحابة رغم صغر سِنِّه وقت معاصرته للرَّسول ﷺ! وكان واليًا للكوفة في خلافة عثمان، وواليًا للمدينة في خلافة معاوية، وهو القصر الباقية آثاره إلى الآن، وقد بلغ من جمال ذاك القصر ومحيطه أن أنشد فيه الشُّعراء بعض قصيدهم، وبعض ذاك القصيد نال الدَّرجة الأولى كأفضل ما غنَّاه مَعبَد

٧٩- رواه البخاريُّ ومسلم.

.أحد مُطربي المدينة العظماء .للخليفة العبَّاسيّ هارون الرَّشيد، حيث عَدَّ الشَّاعر، واسمه أبو قطيفة، قصر سعيد، والنَّخل المحيط به، والجَمَّاء بينهما، أشهى إلى قلبه من مُتنزَّه أبواب جيرون في دمشق، ولا نحسب أبا قطيفة مُبالغًا وقد شُيِّد ذاك القصر على حافَّة وادي العقيق، وهو الوادي الذي كانت تتجَمَّع فيه مياه السُّيول الموسميَّة، فيصير أشبه ما يكون بنهر كبير يمكث في الأرض بضعة شهور، فتخضرّ على ضفافه بساتين يمرح فيها مراهقو الجنسين بقصص الحبِّ وأشعار الغزل؛ وصارت لعلية القوم منهم مجالس شرب ومنادمة، وغناء ومسامرة، حتَّى إنَّ الغناء فشا في المدينة ومَكَّة، وصار له مُغنُّوه ومُغنِّياته المشهورين[٨٠].

وهكذا، صارت من شيم مسلمي ذلك الكيان الثَّاني التَّبغدد والتَّنعم ولم يزل بعضٌ من رعيل الكيان الإسلاميّ الأوَّل يسعى حَيًّا في الأرض؛ لتتمَكَّن آفة أخرى من قلوبهم لربما أشدّ خطرًا من النَّزعة الجاهليَّة، وهي: حُبُّ الدُّنيا.

وتوالت الخلائف الأمويَّة، ومن بعدها الخلائف العبَّاسيَّة، والصِّراعات السِّياسيَّة المدعومة بالنَّزعات الجاهليَّة، وحُبِّ الدُّنيا، تفتك بمسلمي ذلك الكيان الثَّاني، صراعات التَّنافس على المُلك بين الهاشميِّين والأمويِّين من ناحية، وبين العبَّاسيِّين والعلويِّين داخل البيت الهاشميّ من ناحية أخرى، وصراعات ذات صبغة قوميَّة بين القحطانيِّين والعدنانيِّين، أو بين المُضريِّين والقَيسيِّين، من ناحية ثالثة، هذا غير الصِّراع العُنصريّ بين العرب

٨٠- انظر كتاب «الأغانيُّ» / أبو الفرج الأصفهانيّ.

والموالي من أهل البلاد المفتوحة، هؤلاء الموالي الذين عندما التحقوا بالخدمة العسكريَّة العربيَّة حرصوا على أن يكونوا فرسانًا مهرة، وعندما التحقوا بمختلف وظائف الدَّواوين حرصوا على أن يكونوا إداريِّين مهرة؛ ليتخرَّج فيهم وزراء وقادة بارعون، فكان أن استقوى الطَّموحون منهم بقواهم، وبضعف الخلافة العباسيَّة، وبكرههم لنظرة العرب لهم على أنَّهم موالي درجة ثانية وإن أسلموا، لينشَقُّوا بما يحكمون عن دولة الخلافة، فتفتَّتت الدَّولة الإسلاميَّة إلى ممالك أشتاتًا: الحمدانيّون في سوريا والعراق، والبويهيّون في إيران، والمَطالبيّون في اليمن وعمان، والفاطميّون في مصر، وغيرها كثير، حتَّى إنَّه في كل زمان تنمحي دول أسلاميَّة وتظهر غيرها. وتشتدّ الاختبارات الوجوديَّة لبلاد الإسلام بزحف التَّتار مرَّة، وبزحف الصَّليبيين مرَّة، إلى أن أوشكت الخلافة على قضاء نزعها الأخير، لينتزعها العثمانيُّون الأتراك بدولتهم القويَّة النَّاهضة من القُرشيِّين الحجازيِّين العجزة.

وقد فتحت الخلافة العُثمانيَّة بيزنطة، فأسبغ عليها ذلك الفتح كثيرًا من دلائل القوَّة والهيمنة؛ ودامت الخلافة العثمانيَّة لأكثر من سِتَّة قرون، وهي مدَّة من الزَّمن تساوي ـ على التَّقريب ـ نصف عمر زمن الخلافة الإسلاميَّة مجتمعة، مع ذلك لم يتمَكَّن العثمانيُّون، حين دالت دولتهم، من تسليم الخلافة لدولة إسلاميَّة قويَّة، أو بالأدقّ: لم تكن على الخريطة الإسلاميَّة دولة قويَّة يمكنها انتزاع الخلافة من الأتراك الجدد، هؤلاء العَلمانيِّون المتأثِّرون برياح التَّغريب الأوروبيَّة، لتأتي نهاية الخلافة على يد أوَّل رئيس تُركيٍّ عَلمانيٍّ، لينفرط ـ إثر هذا الحادث الأليم ـ عقد الولايات الإسلاميَّة إلى دول ودويلات تساقط معظمها رُطبًا

جَنيًّا في حجر الاستعمار الأوروبيّ المُكوَّن من ثلاث دول: فرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا.

عند هذا التَّفتُّت والتَّشظِّي المواكب لانتهاء الخلافة انتهت حدود الكيان الإسلاميُّ الثَّاني. وهو الكيان المُتميِّز عن الكيان الأوَّل بنظرته إلى الإسلام لا بصفته عقيدة تستقيم بها حياة المسلم على المستوى الشَّخصيّ والجماهيريّ، يجب أن تُهدَى للعالم ولو بالقوَّة؛ لأنَّها عقيدة «تُخرِج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رَبِّ العباد»[٨١]، بل نظر إلى الإسلام بصفته قُوَّةً سياسيَّةً تلعب بها السُّلطات العليا، وتُفتَح بها الدُّول لا لنشر الإسلام كما هو مُعلَن، وإنَّما لتحصيل أموال الجزية، حتَّى إنَّ أحد أشهر الخلفاء العبَّاسيِّين، وهو يستلقي مُنعَّمًا في بستانه، نظر إلى سحابة عابرة، فقال لها بثقة شديدة: «شَرِّقي أو غَرِّبي، أينما أمطرتِ سيأتيني خراجُك»[٨٢].

بناءً على ما سبق نكتشف مفارقة عجيبة، وهي أنَّ التَّوسُّع الإسلاميّ بفتوحاته شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، كان بذاته سببًا من أسباب ارتكاس نظرة مسلمي الكيان الثَّاني إلى الإسلام؛ فقد دخل في الإسلام من ليس والده ولا مولوده؛ والده الذي تلقَّى دعوة مُحمَّد ﷺ وهي لم تزل بعد رضيعًا ضعيفًا، فاعتنقه وغزَّاه وربَّاه، وعمل له، وصبر عليه، أو ولده الذي وُلِد لأسرة مسلمة، فيكون انتماؤه للإسلام أشبه ما يكون انتماءً عصبيَّة قويًّا؛ أمَّا الفتوحات فكانت سببًا في اضطرار كثير من أهل البلاد المفتوحة

٨١- مقولة منسوبة للصحابيّ ربعيّ بن عامر أمام رستم القائد العسكريّ لجيوش الفُرس.

٨٢- مقولة منسوبة للخليفة العبَّاسيّ هارون الرَّشيد.

إلى اعتناق الإسلام رهبة لا رغبة، وهروبًا من الدُّونيَّة التي ستُلصَق بهم بصفتهم على غير مِلَّة الإسلام، إلى العِزِّ الذي سيغمرهم فيما لو اعتنقوا دين الحُكَّام العرب الجُدد، ما كان نتيجته أنَّ «العقيدة الإسلاميَّة لم تخل من تأثُّرٍ بهذا الامتزاج، أتظنّ أنَّ الفارسيَّ، أو السُّوريَّ النَّصرانيَّ، أو الرُّومانيَّ، أو القِبطيَّ، إذا دخل في الإسلام، انمحت منه كُلُّ العقائد التي ورثها من آبائه وأجداده قرونًا، وفهم الإسلام كما يريد الإسلام من تعاليمه؟ كلَّا. لا يمكن أن يكون ذلك، وعلم النَّفس يأباه كُلّ الإباء.»[٨٣].

لكن، ورغم ارتكاس نظرة الكيان الثَّاني للإسلام عن نظرة الكيان الأوَّل، استطاع على مدى قرون طويلة من هذه المرحلة الاستمرار كقوَّة مَدٍّ جغرافيٍّ، حتَّى عندما حصل الجزر ظلَّ الإسلام مُحتفظًا بمئات الملايين من الأميال المُربَّعة على سطح الكرة الأرضيَّة.

هكذا ـ إجمالًا ـ نستطيع القول بأنَّ الكيان الأوَّل رأى الإسلام قوَّة هجوميَّة نافذة، لا يتصَدَّى لها حائل، فيما رآه الكيان الثَّاني قوَّة صامدة، تارَّة تهاجم، وتارَّة تدافع.

بالأخير انتهَينا إلى الكيان الثَّالث، وهو أكبر كتلة إسلاميَّة من ناحية عدد النَّسمات، مليارا مسلم تقريبًا موزَّعان بمختلف أقطار العالم، مع ذلك هو أضعف الكيانات الثَّلاثة تأثيرًا على الإطلاق.

بدأ ظهور هذا الكيان الأخير بحادث مأساويٍّ: (سقوط الخلافة في إسطنبول)؛ فسقطت تلو ذلك بلاد الإسلام سريعًا، وعلى التَّوالي، في ملاقف دول أوروبَّا المُستعمِرة، وصارت بلادًا قيد

---

٨٣- كتاب «فجر الإسلام» / أحمد أمين.

الاحتلال ذليلة، بعد أن كانت هي نفسها بلاد احتلال عزيزة؛ وفي هذه الحياة، وفي هذا العالم، قانون سائد يضع الإنسان بين حالين لا ثالث لهما: منتصر، أو مهزوم. سَيِّد، أو مَسود. غالب، أو مغلوب؛ وعلى نول هذه الثُّنائيَّة السَّاخنة يمكن للمرء نسج ما بدا له. تهاونت الأمَّة الإسلاميَّة في أمر دينها قبل سقوط الخلافة، وذلك بعد تكلُّس الفكر الإسلاميّ، أو بالأحرى الفقه الإسلاميّ، الَّذي صار ترسًا صدئا يُعيق المجتمعات الإسلاميَّة عن الحركة القويمة السَّلسلة، ما لم يكن إزاءه بُدٌّ من استسلام عاصمة الخلافة، إسطنبول، لدواعي المُغرَّبون، والمُغرِّبون أيضًا، وركونها إلى «النَّظريَّات الفلسفيَّة والسِّياسيَّة القويَّة التي تؤيِّد قوميَّة عَلمانيَّة في تركيا، وإلغاء الخلافة العثمانيَّة عام ١٩٢٤»[٨٤].

ولم يتوقَّف اتِّساع الجرح الإسلاميُّ عند هذا الحدّ الإليم، بل تمدَّد وتصَدَّد، بحيث لم ينته السُّقوط إلى سيطرة الغرب على بلاد الإسلام ثقافيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا ـ حتَّى بعد تحرُّرها من احتلاله العسكري ـ بل تَمَّ زرع مُستعمِر خبيث من نوع جديد، في إحدى أشرف بقاع العالم الإسلاميِّ ـ فلسطين ـ أُطلِق عليه اسم إسرائيل، ليكون هذا الاحتلال البغيض وريثًا صليبيًّا سرطانيًّا في الشَّام، ينشر منه تأثيراته الهَدَّامة في الجسد الإسلاميِّ المريض، بنشاط ودون هوادة، ما ترتَّب عليه ـ بعد نصف قرن من زرع هذا السَّرطان ـ الهجوم الأميركيِّ الأوروبيِّ على العراق بمزاعم مُفبرَكة، ومن ثَمَّ احتلاله، وتدمير قواعد تقدُّمه؛ ثُمَّ بعد عقد زمنيّ يتمّ تفجير فتن دهماء، سُمِّيت بثورات الرَّبيع العربيّ، وما أثمرته أبعد

٨٤- من مقدمة المترجم مُحمَّد فاضل لكتاب «بديع الزَّمان النُّورسي ـ الإسلام في تركيا الحديثة» / شكران واحدة.

من أن يكون ربيعيًّا، بل ثمارًا شيطانيَّة سَمَّمت أجزاءً كبيرة من بلاد العرب والإسلام: ليبيا واليمن وسوريا ومصر.

ولم تزل في جعبة الخُطَّة الصَّليبيَّة الكثير من البنود يجري العمل على تنفيذها، فالغاية واضحة لهم، وهي ببساطة، ودون لفٍّ أو دوران: هدم الإسلام؛ ويتمّ هذا عبر هدم بلاده، أو السَّيطرة عليها بالقبضة النَّاعمة، إذا كانت القبضة العسكريَّة مُكلِّفة، أو غير مجدية.

في هذه الأجواء الانهزاميَّة عاش الكيان الإسلاميُّ الثَّالث، ولا يزال يعيش، مثل جمل جاثٍ على رُكبه، كُلَّما هَمَّ بالوقوف ضُرِب على مفاصل قوائمه، ليبقى قابعًا، لا ينهض أبدًا.

والحقُّ أنَّ هذا الكيان الإسلاميّ الثَّالث، رغم كونه أضعف الكيانات الإسلاميَّة الثَّلاثة، فإنّه يُواجَه بأعتى الأسلحة، التي لم تتوَفَّر على مدى الأزمنة الفائتة لأعداء الإسلام، لا نقصد الأسلحة العسكريَّة على تطوِّرها الرَّهيب، بل نقصد أسلحة الميديا من تلفاز وإذاعة وصحافة، وأخيرًا وليس آخرًا: شبكة الإنترنت، وما يستتبعها من مواقع التَّواصل الاجتماعيّ؛ وجميع ما سبق تهيمن عليه، في بلاد العرب الإسلاميَّة، قِلَّة من المُثقَّفين، أُطلِق عليها وصف: النُّخبة.

والنُّخبة العربيَّة المُثقَّفة (الرَّائجة إعلاميًّا) غالبًا ما تُثار بهبوب رياح التَّغريب، ومعظم أفرادها ينتمي ظاهرًا إلى الإسلام، لكنَّهم بعد نظر وتأمُّل طويل في حال الأُمَّة الإسلاميَّة وجدوا ـ مثلما وجد الغرب الصَّليبيّ تمامًا ـ أنَّ الإسلام هو سبب تخلُّف العرب، وأنَّ المسلمين لن يتقدَّموا في ركب الحضارة ما لم يزيحوا الإسلام عن

المجتمع الفاعل، ويركنوه على رفوف قلوبهم بصفته شعورًا دينيًّا خاصًّا يُمارَس بين الله والشَّخص المؤمن، لكن أن يستمرَّ تفعيل هذا الإسلام مُجتمعيًّا فهو إذن التَّخلُّف المقيم.

وما تدعو إليه هذه النُّخب المُثقَّفة (المسلمة!) هو نفسه ما استجابت له الكنيسة بعد ضغط عَلمانيٍّ عارم، ناتج عن إثباتات عِلميَّة تؤكِّد خطأ معتقداتها في علوم الكون، وخطأ مسلكها تجاه كثير من العلماء والمُفكِّرين، ممَّن أثبتوا علميًّا ما تنكره الكنيسة دينيًّا، فقامت بإيداعهم إلى التَّفتيش، وإخضاعهم لمحاكمات هزليَّة طائشة، وإعدامهم حرقًا وقتلًا. وبعد اضطرار الكنيسة إلى الاستسلام أخيرًا، أعلن الفيلسوف الألمانيُّ الشَّهير فريدريك نيتشه موت الإله المسيحيّ، فـ «لقد أيقن من منطلق خبراته الخاصَّة ما عرفه المسلمون من قبل، وهو أنَّ اقتصار الدِّين على المجال الخاصّ للشَّخص هو أولى الخطوات للقضاء عليه والتَّخلُّص منه»[٨٥].

إذن، يسعى دعاة التَّغريب من النخب العربيَّة المسلمة إلى الهدف نفسه الذي اجتهدت إرساليَّات التَّبشير الصَّليبيّ ـ منذ ظهورها على

ساحة العمل قبل بضعة قرون ـ في تحقيقه، ألا وهو أن يضعف لدى المسلمين تدريجيًّا «الاعتقاد بالفكرة الإسلاميَّة، وما يتبع هذا الضَّعف من الانتقاض، والاضمحلال الملازم له سوف يفضي ـ بعد انتشاره في كُلِّ الجهات ـ إلى انحلال الرُّوح الدِّينيَّة من

٨٥- ”الإسلام في الألفيَّة الثالثة“ / مراد هوفمان.

أساسها، لا إلى نشأتها بشكل آخر»[٨٦].

أي: ليس الهدف هو تجديد الخطاب الدِّينيّ، وتقوية الإسلام بهذا التَّجديد المزعوم، ولا أيًّا من جميع المغريات التي يسوقها الثَّعلب المكَّار للدَّجاج، بل هو الشَّرك الخداعيّ الذي سيؤدِّي إلى تقويض الإسلام كلّه من الدَّاخل.

هذا مع عدم إنكارنا استفادة دعاة التَّغريب المعاصرين من ظهور جماعات إسلاميَّة مارست العنف المُسلَّح؛ ولسنا في معرض تحليل أسباب ظهور هذه الجماعات، ولا في معرض تحليل الأسباب التي دعتها ـ ولا تزال تدعوها ـ لممارسة العنف المُسلَّح، لكن على أيٍّ حال، وُظِفت تلك العمليَّات الإجراميَّة إعلاميًّا، بواسطة دعاة التَّغريب تحديدًا، وبإشراف أنظمة عربيَّة حاكمة يلزمها طوال الوقت توظيف فزَّاعات مختلفة الأيديولوجيَّات والعقائد من أجل تفعيل خاصِّيَّة الخوف لدى شعوبها، ما يضطرّ هذه الشُّعوب ـ وغالبيَّتها يعاني أميَّة قراءة وكتابة وثقافة ما يجعلها فريسة سهلة لأبواق إعلام مُوظَّف سياسيًّا ـ إلى الرُّكون لهذه الأنظمة بصفتها السُّلطةَ الوحيدة القادرة على حمايتها من بطش الوحوش الإسلاميَّة الدَّمويَّة.

أي: يعيش هذا الكيان الإسلاميّ الثَّالث أجواء المثل الشَّعبيّ المصريّ القائل: «من دقنه وافتل له». أو المثل الفصيح القائل: «لا يفِلّ الحديد إلَّا الحديد»، أو بالتَّطبيق الطِّبيّ: «مواجهة الفيروس بتلقيح من نفس نوع الفيروس»؛ هكذا يتمّ ضرب الإسلام «المعتدل» بالإسلام «الإرهابيّ»، حتَّى صار المسلمون أنفسهم،

٨٦- "الغارة على العالم الإسلاميّ" / لو شاتليه.

حُكَّامًا ومحكومين، من يلقون باللائمة على الإسلام «الإرهابيّ»، مُتودِّدين بذلك إلى حكومات الغرب، الصَّليبيَّة بالوراثة.

وقد كان مسلمو هذا الكيان ضحيَّة تطوُّرات عِلميَّة كبرى، أدَّت إلى قفزات اقتصاديَّة واسعة، ارتبكت لها الأوعية العقليَّة للمسلمين، وجعلتهم يقفزون بدورهم إلى ما قفز إليه سابقوهم من أهل الكيان الثَّاني: حبّ الدُّنيا. فالأموال تكثر، والأعمال تزيد، وصوت السِّياسة اقتصاديُّ النَّبرة، والسِّلاح يُشَكُّ لحماية المال، وتأمين منابعه. ظهر البترول، ولوَّن أرواح المسلمين بلونه الأسود، وأكسب دماهم من لزوجته، وتصاعد بخره من قلوبهم ليعمي عيونهم، بعد أن كانوا ورثوا بصائر عمياء، فلم يعودوا يروا بعين أو بقلب؛ إنَّهم على العكس تمامًا من مسلمي الكيان الأوَّل، الرَّعيل الذي رأى أنَّ الله ابتعثه لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، أمَّا هؤلاء المُحدَثين فقد صاروا عبيد الغرب، ولا غضاضة، إذا كان الغرب يشتري الزَّيت ويدفع بالدُّولار.

إنَّهم لم يكتفوا بحبِّ الدُّنيا كسابقيهم، بل كرهوا الموت. فصدق فيهم ما رواه صحابيٌّ يدعى ثوبان، عن مُحمَّد ﷺ أنَّه قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قِلَّة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنَّكم غثاء كغثاء السَّيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حُبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت»[٨٧].

هكذا، يتَّضح لنا أنَّ نظرة الكيان الإسلاميّ الثَّالث للإسلام نظرة

٨٧- سنن أبي داود ـ وصحَّحه الألبانيُّ.

دونيَّة، تناسب مهزومًا لا يثق في قواه، مُكبَّلًا بقيده، مُستكينًا لأسره، مع إقرارنا بأنَّ روح الإسلام العفيّ لا يزال يسري فيه؛ إنَّه مهزوم، مُكبَّل، أسير، مفتون، موهوم، طامع، طامح، لكن روحه نابض فَتِيٌّ بحبِّ الإسلام، ما يدفع ببعض أهل هذا الكيان إلى العمل من أجل صحوة إسلاميَّة مأمولة.

فهناك جمعيَّات دعويَّة لا تزال تنتشر في مجاهل أفريقيَّا وآسيا، تعمل على نشر الإسلام بالجهود الذَّاتيَّة.

وقد كنت . قبل عقد ونيِّف من الزَّمان . عضوًا في جماعة التَّبليغ والدَّعوة، وهي جماعة دينيَّة سلفيَّة مُهتمَّة بتنشيط الوازع الدِّيني لدى المسلمين في بلاد الإسلام، وبالدَّعوة إلى الإسلام في غير بلاد الإسلام، ولتحقيق ذلك تعتمد هذه الجماعة نظامًا فاعلًا يقوم على تفريغ الوقت من مشاغل الدُّنيا وتكريسه لمشاغل الدِّين، وعليه فإنَّ من ترتيبات أعمالها ما يُطلَق عليه اسم: الخروج؛ والخروج يعني أن يتركَ المرء بيته ووظيفته، ويخرج في سبيل الله إلى العمل الدَّعويّ لثلاثة

أيَّام، أو لأربعين يومًا، أو لحول كامل. ويكون الخروج في ذات القرية أو المدينة، أو ارتحالًا إلى خارج البلاد، نحو إفريقيَّة وآسيا وأمريكا، وغيرها من بلاد الله، بالجهود الذَّاتيَّة، أي على الخارج للدَّعوة توفير تكاليف خروجه من ماله الخاصّ؛ وهو الخروج الذي عملت التبشيريَّة الصَّليبيَّة على محاربته طيلة الوقت، لا للتَّخلُّص من الإسلام رغبة في التَّخلُّص من الإسلام، ولكن لسبب آخر، يكشف عنه المُبشِّر البروتستانتيُّ أدوين بلس في كتابه «ملخَّص تاريخ التَّبشير»، فيقول: «إنَّ الدِّين الإسلاميَّ هو العقبة القائمة

في طريق تقدُّم التَّبشير بالنَّصرانيَّة في أفريقيَّة، والمسلم فقط هو العدوّ اللدود لنا؛ لأنَّ انتشار الإنجيل لا يجد مُعارضًا لا من جهل السُّكَّان، ولا من وثنيَّتهم، ولا من مناضلة الأمم المسيحيَّة وغير المسيحيَّة. وليس خصمنا هو العربيّ الذي يرتاد البلاد للإتجار بالرَّقيق ـ لأنَّ هذه التِّجارة صارت صعبة ـ بل إنَّ هذا الخصم المعارض هو الشَّيخ، أو الدَّرويش، صاحب النُّفوذ في أفريقيَّة أكثر ممَّا هو كذلك في فارس، فالشَّيخ، أو الدَّرويش، يجوبان شواطئ البحر الأحمر والنَّيجر والمغرب ووداي، ويبثَّان في الأهالي أنَّ المهدي يُنتظَر ظهوره، وسينشر الإسلام في كلِّ الأقطار»[٨٨].

وفي المؤتمر التبشيريّ العامّ الذي انعقد بعد مؤتمر القاهرة الأوَّل بخمس سنوات في مدينة (لكنو) بالهند، سنة ١٩١١ميلاديَّة، وُصِف كتاب للمستر جوردنر، السِّكرتير العامّ لجمعيَّة الطَّلبة المسيحيِّين يتناول فيه الأعمال التبشيريَّة في أفريقيَّة، بأنَّه «أشبه باستصراخ وإعلان حرب يحوي كيفيَّة وأدوار النِّزال الذي ستدور رحاه بين الإسلام وحاملي لواء التَّنصير في أفريقيَّة الجنوبيَّة»[٨٩]. فلا نملك غير لفت الانتباه إلى أنَّ هذه الحرب (بحسب تعبير المؤتمر التَّبشيريّ!) دائرة بين مؤسَّسات تنصيريَّة كبرى، مدعومة ببلايين الدُّولارات، والتي قد يقود حملات التَّبرُّع لها رؤساء الدُّول الغربيَّة[٩٠] بأنفسهم، وتُعقَد لها المؤتمرات لمتابعة أعمالها، وبني فرادى من شيوخ، أو دراويش، يخرجون للدَّعوة الإسلاميَّة على نفقاتهم الشَّخصيَّة المُقتطَعة من قوت يومهم، مع ذلك فالحرب

---

٨٨- "الغارة على العالم الإسلاميّ" / لو شاتليه.

٨٩- المصدر السَّابق.

٩٠- انظر مذكِّرات جيمي كارتر وجورج بوش الابن.

سجال، ويُحقِّق (دراويش) المسلمين فيها انتصارات ساحقة!

وهكذا بأعمال جماعة التَّبليغ والدَّعوة، أو بأعمال غيرها من الجماعات الإسلاميَّة الدَّعويَّة الأخرى، لم يزل يواصل الإسلام انتشاره، لكنه مع ذلك يظلّ انتشارًا روحانيًا، لا سياسيًّا، لا يحثّ نظام حكم دولة إسلاميَّة ما على أن تَتَّخذ من تعاليمه شرعًا ومنهاجًا.

إذن، وباستعراض ما سبق، نكون قد وضعنا «الحالة الإسلاميَّة» على طاولة العمليَّات، ولدينا خُطَّة علاجيَّة لا تغفل معطيات الكيان الإسلاميّ الأوَّل، ولا الثَّاني؛ إذ نعتقد أنَّ في تاريخ الإسلام، لا في غيره، علاجه، وفي إعادة النَّظر بنصوصه المُقدَّسة، من قرآن وسُنَّة، دواؤه، فقط نحتاج إلى قراءة ذلك التَّاريخ القديم بعقل معاصر، وتعديل التَّركيبة القديمة للدَّواء من أجل مناسبة أمراض العصر الحديثة.

# الفصل الرَّابع

الاختلاف بين الأصوليِّين والمُحدِّثين حول تعريف الصَّحابي . نقد الصَّحابة وعلاقته بتقويض بنيان الإسلام . عدالة الصحابي ودورها في نقل الحديث النبوي . خطورة وجود منافقين بين الصحابة لم يعلمهم النبي . أيهما يقدم في قبول الحديث: المتن أم السند؟ . المسلمون بين تقديس الصحابة وتدنيسهم.

ذكر أحد الدَّارسين المسلمين بإحدى جامعات المملكة العربيَّة السُّعوديَّة، في تصدير بحثه المُتقدِّم به لنيل درجة الدُّكتوراه، أنَّ سبب اختياره لموضوع البحث هو تأكيد المنزلة العالية للصَّحابة؛ لأنَّ القدح فيهم «تقويض لبنيان الإسلام، ونقض له من أساسه»[٩١]. وفي هذا السَّبب تكمن المشكلة التي تواجه العالم الإسلاميّ، والتي وضعه فيها بعض المستشرقين الأجانب، وبعض المستغربين العرب، الَّذين أولعوا بتدنيس الصَّحابة، ما كان نتيجته أن قامت رؤوس الثَّقافة الإسلاميَّة بالرَّدّ على التَّدنيس بالتَّقديس، وربط قوام الإسلام بقوامة الصَّحابة، بما يعني أنَّهم إذا استقاموا قام الإسلام، وإلَّا فالإسلام ينهدم.

ولهذا الفهم المتخوِّف من نقد الصَّحابة حرصًا على الدِّين جذور قديمة، أقدم من زمننا المعاصر بأحد عشر قرنًا تقريبًا. فقد قال أحد أئمَّة الحديث في القرن الثَّالث الهجريّ: «إذا رأيت الرَّجل

٩١- بحث بعنوان «موقف المستشرقين من الصَّحابة رضي الله عنهم» / سعد بن عبدالله سعد الماجد

ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فاعلم أنَّه زنديق، وذلك أنَّ الرَّسول حقٌّ، والقرآن حقٌّ، وما جاء به حقٌّ، وإنَّما أدَّى ذلك كلّه إلينا الصَّحابةُ، وهؤلاء الزَّنادقة يريدون أن يجرحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسُّنَّة»[٩٢].

وما عبَّر عنه الإمام أبو زرعة الرَّازيّ قديمًا، بـ«إبطال الكتاب والسُّنَّة» هو نفسه ما عبَّر عنه الباحث السُّعوديّ حديثًا، بـ«تقويض لبنيان الإسلام، ونقض له من أساسه». وكلاهما يظنّ أنَّ تقديس الصَّحابة، ودفع الدَّنس عنهم، ضرورتان مُلحَّتان، لا لأنَّ الواحد منهم يستحقّ ذلك بذاته، وإنَّما حفاظًا على الإسلام من الانهيار إذا مسَّ المسلك الأخلاقيّ للصَّحابيّ شيءٌ من السُّوء.

وقد أسبغ علماء وأئمَّة المسلمين الأوَل. من أهل العلم بالحديث النَّبويّ- صفة الصَّحابيّ على كل «من لقي النَّبيَّ ﷺ مؤمنًا به ومات على الإسلام.. ومَن طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يروِ، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى»[٩٣]. ويدخل في ذلك «كلُّ مُكلَّف من الجنِّ والإنس»[٩٤]. وذلك على أساس «أنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ قد أعلمنا أنَّ نفرًا من الجنِّ آمنوا، وسمعوا القرآن من النَّبيِّ ﷺ، فهم صحابة فضلاء»[٩٥]. وقدَّر بعضهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ توفِّي «من رآه، وسمع منه، زيادة على مائة ألف إنسان، من رجل وامرأة،

---

٩٢- مقولة لأبي زرعة الرَّازي أوردها مقدِّمو كتاب «أسد الغابة في معرفة الصَّحابة» لابن الأثير / طبعة دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ـ لبنان

٩٣- "الإصابة في تمييز الصَّحابة" / ابن حجر.

٩٤- المصدر السَّابق.

٩٥- المصدر السَّابق.

كلُّهم رووا عنه سماعًا أو رؤية»[٩٦]. ومع أنَّ الرُّواة الذين اهتمُّوا بتراجم الصَّحابة، وعدّهم في أسفار كبيرة، ذكروا منهم بأسمائهم آلافًا مؤلَّفة، إلَّا أنَّ ـ بذلك المفهوم التَّعريفيّ للصَّحابيّ ـ أسماءَ الأكثريَّة منهم قد

خفيت عليهم؛ لأنَّ «أكثرهم أعراب»[٩٧]، ممَّن حضروا حجَّة الوداع.

ومن العجب أن أفرد ابن حجر بابًا من كتابه «الإصابة في معرفة الصَّحابة»، عنونه: «فيمن ذُكِر في الصَّحابة من الأطفال الذين وُلِدوا في عهد النَّبيّ ﷺ لبعض الصَّحابة من النِّساء والرِّجال ممَّن مات ﷺ وهو في دون سن التَّمييز»، معتبرًا هؤلاء الأطفال، وكان منهم رُضَّع، صحابة لمُحمَّد ﷺ!

غير أنَّ كرم المُحدِّثين الحاتميّ ـ الذي أسبغ على جميع من رأى الرَّسول ﷺ، حتَّى الجنّ والأطفال، منزلة الصَّحابي ـ لم يرق بالكلِّيَّة لعلماء آخرين، فقرَّروا ضبط المسألة شيئًا ما، وذلك بتسكين الصَّحابة في طبقات، ولسان حالهم يقول «كلّ من رأى رسول الله ﷺ وقد أدرك الحلم فأسلم، وعقل أمر الدِّين ورضيه، فهو عندنا ممَّن صحب رسول الله ﷺ ولو ساعة من نهار، ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدُّمهم في الإسلام»[٩٨]. وهو الضَّبط الذي لا يُسمن ولا يُغني من جوع، إذا كان قد أجاز الصُّحبة لمن رآه ولو ساعة من نهار!

---

٩٦- أبو زرعة الرازيُّ في «الإصابة في تمييز الصَّحابة».

٩٧- "الإصابة..." ، ابن حجر.

٩٨- نقله الواقديُّ في «أسد الغابة» / ابن الأثير.

بيد أنَّ هناك من ضرب بالرَّأيين السَّابقين عرض الحائط، فلا يُثبِت الصُّحبة إلَّا لمن «أقام مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين، وغزا معه غزوة أو غزوتين»[٩٩]. ووجه هذا الرَّأي هو «أنَّ لصحبته ﷺ شرفًا عظيمًا، فلا تُنال إلَّا باجتماع طويل، يظهر فيه الخُلُق المطبوع عليه الشَّخص، كالغزو المُشتمِل على السَّفر الذي هو قطعة من العذاب، والسَّنة المُشتملة على الفصول الأربعة التي يختلف فيها المزاج»[١٠٠].

وهو تصوُّر يفترض أنَّ طول الصُّحبة يُحصِّن الصَّحابيَّ، ويجعله أمينًا على أقواله وأفعاله، التي سينتقل بها الدِّين منه لغيره، لا كمن ليس له من الصُّحبة سوى رؤية النَّبيّ ﷺ، أو صحبته السَّاعة والسَّاعتين.

وهناك العديد من المواقف والتَّصرُّفات، من المفترض أنَّها غير لائقة بالصَّحابة، دوَّنتها الأسفار القديمة لرواة الإسلام الأوَّلين، ولم تُخفِها صحاح الأحاديث، وعجَّت بها كتب الأدب، وأشهرها على الإطلاق كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهانيّ، وهو الكتاب الذي رسم عمقًا حقيقيًّا لشخصيَّات بعض الصَّحابة وتابعيهم، عندما أظهرهم بشرًا طبيعيِّين، يُحبُّون سماع الأصوات «الأغاني» ويطربون لها، ويأتنسون بصحبة المُغنِّيِّين والمُغنيَّات ممن اشتهروا واشتهرن بهذه الصَّنعة، وكان لهم في إجازتها تأويل ربما حرص الفقهاء ـ وقد غلبهم طبعهم الدِّينيّ ـ على تغطيتها وكفرانها.

---

٩٩- التعريف لسعيد بن المسيّب، من سادة التَّابعين، في «أسد الغابة في معرفة الصَّحابة»، ابن الأثير.

١٠٠- «أسد الغابة في معرفة الصَّحابة»، ابن الأثير.

ومن الأمثلة الدَّالَّة على أنَّ بعض الصَّحابة ـ بحسب التَّعريف الذي يُسبِغ على جميع من رأى الرَّسول ﷺ ومات مؤمنًا برسالته ـ قد سقط في بعض التَّصرُّفات المُستهجَنة، تلك الواقعة التي حكاها أحدهم عن جماعة ضَيَّفهم الصَّحابيُّ الجليل أبو سعيد الخدريّ، فتكلَّموا في وقائع الفتنة التي جرت بين عليٍّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، « فتناول رجلٌ معاويةَ (شتمه وسبَّه)، فاستوى أبو سعيد الخدريّ جالسًا، ثُمَّ قال: كنَّا ننزل رفاقًا على رسول الله ﷺ فكنَّا في رفقة فيها أبو بكر، فنزلنا على أهل أبيات،

وفيهم امرأة حُبلى، ومعنا رجل من أهل البادية، فقال للمرأة الحامل: أيسرُّكِ أن تلدي غلامًا؟ قالت: نعم. قال: إن أعطيتني شاة ولدتِ غلامًا. فأعطته. فسجع لها أسجاعًا، ثُمَّ عمد إلى الشَّاة فذبحها، وطبخها، وجلسنا نأكل منها ومعنا أبو بكر، فلمَّا علم بالقصَّة قام فتقيَّأ كلَّ شيء أكل. قال (راوي الواقعة): ثُمَّ رأيتُ ذلك البدويّ أتي به عمر بن الخطَّاب وقد هجا الأنصار، فقال لهم عمر: لولا أنَّ له صحبة من رسول ﷺ ما أدري ما نال فيها لكفيتكموه»[١٠١].

إنَّها، إذن، حكاية تُخبِر ببساطة عن مسلم (يُفترَض به أنَّه صَحابيٌّ) استغلَّ سذاجة امرأة من البدو ليأخذ منها، دون وجه حقّ، شاةً، ويذبحها، ويأكلها برفقة مجموعة من المسلمين الأوائل، منهم أبو بكر الصِّدِّيق (الذي فور علمه بما فعله صاحبهم قام بتقيُّوء ما أكله)، كانت في طريقها للقاء مُحمَّد ﷺ. وأنَّ ذلك المسلم المُعتدِي قُبِض عليه، بعد سنين، في خلافة عمر بن الخطَّاب،

١٠١- "الإصابة في تمييز الصَّحابة" / ابن حجر.

بجُرم سبّ الأنصار، مع ذلك، ولفضل صحبة له برسول الله ﷺ (لم يعرف عمر بن الخطاب مقدارها)، لم يُوقِع به العقاب.

هذه الواقعة تفيد بأنَّ للصَّحابة خصِّيصة اختُصُّوا بها دون غيرهم من المسلمين «وهي أنَّه لا يُسأل عن عدالة أحد منهم، وذلك أمر مُسلَّمٌ به عند كافَّة العلماء؛ لكونهم على الإطلاق مُعدَّلين بنصوص الشَّرع من الكتاب والسُنَّة، وإجماع من يُعتدّ به في الإجماع من الأُمَّة»[١٠٢]. لكن هذه الواقعة، نفسها، تفيد بأنَّ لزمن الصُّحبة دورًا في منح شرفها للصَّحابي، أو منعها عنه، كما قرَّر ابن الخطَّاب، الذي امتنع عن إيقاع العقوبة بالرَّجل لعدم معرفته مقدار صحبته لمُحمَّد ﷺ، وربما لو بلغه أن ليس للرَّجل سوى رؤية للنَّبيّ ﷺ، أو جلسة ساعة أو ساعتين معه، لأوقع به العقاب، لكن لرغبته في الاحتراز توقَّف. وهذا فقه للقصَّة يوثِّق صِحَّة رأي سعيد بن المسيّب ومن تبعه.

لكن ما الذي يعنينا، نحن مسلمي الألفيَّة الثَّالثة، من تعريفات الفقهاء والمُحدِّثين للصَّحابيّ، وما إذا كان رأى النَّبيَّ، أو جالسه قليلًا، أو صاحبه طويلًا؟

يعنينا أنَّ الصَّحابيّ يمتلك خصيصة خطيرة ـ سبق لنا الإشارة إليها قبل أسطر ـ وهي أنَّه مُعدَّل بالقرآن والسُنَّة. أي: أثنى الله جَلَّجَلَالُهُ عليه في القرآن، وأثنى مُحمَّد ﷺ عليه في أحاديثه. وهذا الثَّناء الأجلّ يضع الصَّحابيَّ في مكانة إيمانيَّة وأخلاقيَّة لا شكَّ فيها، ما يعني أنَّ كلامه يُسمَع دون احتياط، ولا قِبل للسَّامع أن يردَّه برأي، فضلًا عن تكذيبه؛ فكيف يُرَى على رأي من زكَّاه الله

١٠٢- من مقدِّمة "أسد الغابة في معرفة الصَّحابة" / ابن الأثير.

ورسوله، وأيُّ كفر سيبوء به إذا فكَّر في تكذيبه. هنا مَربَط هذه القضيَّة الشَّائكة.

فالذين قالوا بأنَّ كُلَّ من رأى الرَّسول ﷺ ومات على الإسلام صحابيٌّ، فتحوا الطَّريق واسعًا لأكثر من مائة ألف مسلم (قيل إنَّهم رأوا الرَّسول ﷺ من المسلمين الأوائل أن يقولوا ما لا يمكن ردَّه، بصفتهم صحابة عدَّلهم الله ورسوله، مهما كان ما قالوه مجافيًا للعقل والمنطق، وكأنَّه قد فاتهم أنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ أخبر في القرآن عن وجود منافقين، حول الرَّسول ﷺ، من الأعراب، ومن أهل المدينة أيضًا، لا يعلمهم مُحمَّد نفسه ﷺ، لكن يعلمهم الله جَلَّجَلَالُهُ[١٠٣]، هذا غير المنافقين الذين علمهم النَّبيُّ، وذكر أسماءهم لأحد أصحابه الأمناء، باعتبار أمرهم سرًّا غير قابل للإفشاء[١٠٤].

وكان البعض قد أشار على مُحمَّد ﷺ بقتل عبد الله بن أبيٍّ بن سلول، لما بدر منه من إيقاظ الفتنة بين المهاجرين والأنصار في طريق العودة من غزوة بني المصطلق، فرفض قائلا: «لا يتحدَّث النَّاس أنَّ مُحمَّدًا يقتل أصحابه»؛ وهنا تجب الإشارة إلى أنَّ النَّبيَّ، حين وصف ابن أبيٍّ بن سلول بالصَّاحب، لم يكن يعني معنى الصُّحبة على الحقيقة، وإنَّما تكلَّم بما يظُنّه المحيطون به من أنَّه صاحبه، وإلَّا فإنَّ كلَّ مجتمع الصَّحابة كان يعرف أنَّ الرَّجل رأس النِّفاق في المدينة.

لكن خطورة القضيَّة ليست في المنافقين الذين يعلمهم الرَّسول

---

١٠٣- الآية ١٠١ ـ سورة التَّوبة / قرآن كريم.

١٠٤- من مرويَّات حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من أصحابي اثنا عشر منافقًا...» / أخرجه مسلم.

ﷺ، فهؤلاء حوصروا، بحيث لم يتمَكَّنوا من رواية الحديث عن النَّبيّ ﷺ قطُّ، وإنَّما تكمن الخطورة في المنافقين الذين لم يعلمهم مُحمَّد ﷺ، وبالتَّالي لم يعلمهم أحدٌ من الصَّحابة المخلصين؛ ليحاصرهم إذا رغبوا في الرِّواية عن النَّبيِّ ﷺ.

فإذا كان الأمر على هذه الدَّرجة من الخطورة، أفلا يحقّ للمسلم في الألفيَّة الثَّالثة تداركه، وتدبُّر الحديث بالنَّظر في متنه قبل النَّظر إلى سنده؟

أي: إعلاء المتن على السَّند عند إنكار المعنى، لا العكس.

وكان ابن خلدون يضع القرآن معيارًا لصِحَّة الحديث، لا سنده، فقال: «وإنَّني لا أعتقد صحَّةَ سند حديث، ولا قولَ عالم صحابيٍّ، يخالف ظاهر القرآن، وإن وثَّقوا رجاله؛ فرُبَّ راوٍ يُوثَّق للاغترار بظاهر حاله، وهو سيِّئ الباطن»[١٠٥].

ولا أظنُّ ابن خلدون، ولا ناهجي منهاجه إزاء هذه الإشكاليَّة القديمة المعاصرة في آنٍ، إلَّا مُتَّبعًا تعليم النَّبي ﷺ بخصوصها، عندما أمر المسلمين الذين سيأتون بعده، إذا اختلفوا في صِحَّة كلامه، أن يعرضوا المعنى على ما جاء في القرآن، كتاب الله المحفوظ، فإذا وافقه فهو كلامه، وإلَّا فليس من كلامه في شيء[١٠٦]. وهو حديث قَيَّمه علماء الحديث ما بين موضوع ومنكر وضعيف جِدًّا وضعيف!

ولا نشكُّ في أنَّ تقييمهم اعتمد ضعف السَّند، رغم أنَّ المعنى

---

١٠٥- انظر مقدمة الطبعة الثانية لكتاب «حياة محمد» بقلم مؤلفه محمد حسين هيكل.

١٠٦- من مرويَّات ثوبان مولى الرَّسول قال: قال رسول الله ﷺ: «اعرضوا حديثي على كتاب الله....» / أخرجه السيوطيُّ.

نَبويٌّ حكيم، يدلّ على حصافة لا يؤتاها إلَّا رسول كريم، علم أنَّ خلافًا سيكون في مستقبل الأمَّة حول صحَّة أحاديثه، وكفاءة الآليَّات التي ستُنقل بها، فرحم الأمَّة بإرشادها إلى كيفيَّة الوصول إلى الحكم الفصل.

أمَّا عن نزاهة وعدالة الصَّحابيّ، فلا شكَّ فيهما فعلًا؛ إذ إنَّ ما أثبته القرآن وصحيح السُّنَّة لا يحلّ الشكّ فيه إلَّا على أسس من إخلاص الفكر وصِحَّة العقيدة، وقد اشتكى بعض الصَّحابة للنَّبيّ ﷺ من أنَّ شكوكهم تتعاظم أحيانًا، ولا يستطيعون التَّكلُّم بها، فأخبرهم بأنَّ هذه الشُّكوك من صريح الإيمان[١٠٧]، ولم ينههم عنها.

لكن؛ أيّ صحابيٍّ هذا الذي لا شكّ في نزاهته وعدالته؟

نظنُّ أنَّ في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدريّ، وأخرجه البخاريُّ، إجابة وافية.

وجاء فيه أنَّ خالدًا بن الوليد سبَّ أبا عبدالرَّحمن بن عوف لشيء بينهما، فبلغ ذلك النَّبي ﷺ، فقال لخالد: «لا تسبُّوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنَّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نُصيفه». وفي موضع آخر قال ﷺ: «الله الله في أصحابي، لا تتَّخذوهم غرَضًا، فمن أحبَّهم فبحُبِّي أحبَّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضَهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى اللهَ، ومَن آذى الله فيوشك أن يأخذه»[١٠٨].

١٠٧- / أخرجه مسلم. من مرويَّات أبي هريرة، قال: «جاء ناس من أصحاب النَّبي...»

١٠٨- من مرويَّات عبدالله بن مغفَّل وأخرجه الترمذي وابن حبَّان.

ورغم أنَّ لخالد بن الوليد منقبة عظيمة اختصَّه بها النَّبيّ ﷺ، عندما وصفه بسيف من سيوف الله، بعد نجاحه في قيادة الجيش الإسلاميّ إلى انسحاب مُشرِّف أنقذه من مهلكة منكرة على يد الرُّومان في مؤتة، فإنَّ مُحمَّدًا ﷺ، بما نفهمه من نصِّ الحديث، لم يكن يعدّه من أصحابه، في حين كان يعدّ عبد الرَّحمن بن عوف كذلك.

فما السَّبب؟

نحسب أنَّ تاريـخ الرَّجلين في مسيرة الدَّعوة الإسلاميَّة يحمل الإجابة.

فعبد الرَّحمن بن عوف أحد أوَّل ثمانية اعتنقوا الإسلام، وصدَّقوا مُحمَّدًا ﷺ حين كذَّبه النَّاس جميعًا، فاستحقَّ بذلك أن يكون أحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة. وقد أوذي بسبب إسلامه، واستُضعِف، حتَّى اضطرّ إلى اللحاق بالموجة الأولى من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة. ثُمَّ عاد وهاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا، ولمن شهد بدرًا منزلة خاصَّة جدًّا، فهو مغفور له ما سبق من ذنبه وما لحق[١٠٩]. وقد شهد عبد الرَّحمن المشاهد كلَّها مع النَّبيّ ﷺ، وبيعة الرِّضوان، وصلح الحديبيَّة، وفي جميع تلك الرحلة الجهاديَّة الطَّويلة كان خالد بن الوليد لم يزل وثنيًّا كافرًا،

يناجز المسلمين العداء، بل إنَّ الهزيمة الوحيدة التي لقيها المسلمون في غزوة أُحُد، كانت على يد خالد وهو قائد جيش الأعداء. وأخيرًا، قبل فتح مكَّة بقليل، أسلم خالد، وحَسُن

١٠٩- انظر قصَّة حاطب بن أبي بلتعة في الحديث الذي رواه عليٌّ بن أبي طالب، وأخرجه البخاريّ

إسلامه، وصار واحدًا من أروع وأبرع قادة جيوش الإسلام، لكنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ كان قد وضع قاعدة في القرآن، مفادها أنَّه لا يستوي من أسلم قبل الفتح وقاتل بمن فعل ذلك بعد الفتح[١١٠]، والحقُّ أنَّها قاعدة سماويَّة عادلة، كما أنَّ شعور مُحمَّد ﷺ بأنَّ أصحابه على الحقيقة هم مَن تحمَّلوا مشاقَّ البداية الوعرة، وقت لم تك تظهر فيه ثمرة تُغري بتحمُّل المَشاقّ، فلم يتحمَّلوها إلَّا بدوافع إيمانيَّة بحتة، هو شعور عادل أيضًا. والعقل الرَّشيد، والمنطق القويم، مع أنَّ أصحاب الدَّوافع الإيمانيَّة، المنتصرين للحقّ وقت ضعفه، لا المُلتحقين به بعد قوَّته وظهوره، هم المُعدَّلون ربَّانيًّا على الحقيقة، فهذا التَّعديل الإلهيّ هو الذي أرشدهم من البداية

إلى طريق الصَّواب، وهداهم قبل غيرهم إلى جادَّة الحقّ، ونحسب أنَّهم من بين الرَّعيل الإسلاميّ الأوَّل على جلال أقدارهم جميعًا، هم المُستحقُّون لأن يُسمَّوا أصحاب مُحمَّد ﷺ، وقد تَربُّوا تربية كاملة، ووافية، في المدرسة المُحمَّديَّة، والتزموه ملازمة التَّلامذة النُّجباء لأستاذهم المُعلِّم، بحيث يؤخذ عنهم الحديث النَّبويّ بثقة متناهية، تليق بتعديل الله ونبيِّه لهم.

وكان مُحمَّد ﷺ خرج ليلةً من بيته إلى المسجد لصلاة العشاء، فوجد أصحابًا له لم يبرحوا مكانهم من المسجد بعد صلاة المغرب، فاستحسن ذلك منهم، ثُمَّ أخبرهم بأنَّ كما النُّجوم أمان أهل السَّماء، بحيث إذا زالت جاءهم ما يوعدون، فإنَّه (هو) أمان أصحابه، فإذا رحل عنهم جاءهم ما يوعدون، كما هم (الصَّحابة) أمان الأُمَّة الإسلاميَّة، فإذا رحلوا أتى الأُمَّة الإسلاميَّة

---

١١٠- آية ١٠ ـ سورة الحديد / قرآن كريم.

ما توعِّدت به[١١١]. وما يتَّضح لنا من نصِّ هذا الحديث هو أنَّ هذا الوعد ـ الذي يتحقَّق بغياب النُّجوم عن السَّماء، أو النَّبيِّ ﷺ عن الصَّحابة، أو الصَّحابة عن الأُمَّة ـ وعد شَرٍّ، لا وعد خير، فلا خير مُحتمَل عقليًا في ذهاب النُّجوم، أو ذهاب مُحمَّد ﷺ، أو ذهاب الصَّحابة. خصوصًا وأنَّ الوقائع التي أثبتها مؤرِّخو الإسلام أثبتت أنَّ الشَّرَّ ضرب بأطنابه بين الصَّحابة فور وفاة النَّبيِّ ﷺ، بانقسامهم حول الخلافة، بين المهاجرين والأنصار مرَّة، وبين المهاجرين والمهاجرين أخرى، عندما رأى بعضهم أحقِّيَّة عليٍّ بن أبي طالب بالأمر دون أبي بكر الصدِّيق. ثُمَّ حصلت الرِّدَّة. ثُمَّ من بعدُ أحداث الفتنة الكبرى، التي ضرب فيها الصَّحابة رقابَ بعضهم بعضًا.

وبرحيل الصَّحابة جاءت الأُمَّة الإسلاميَّة جميعها ما تُوعِّدت به: زيادة في الانقسامات، وضعف الرُّوح الإسلاميّ، وصراعات سياسيَّة على المُلك لا تنتهي، يقع ضحيَّتها حالُ الأُمَّة الإسلاميَّة، بحيث مهما كانت تنتصر، انتهى أمرها إلى الهزيمة الكاملة، حث حاقت بها بسقوط الخلافة العثمانيَّة في الرُّبع الأوَّل من القرن العشرين، لتأخذ المذاهب العَلمانيَّة، القائمة بطبيعتها على غير أصول الدِّين، في التَّمدُّد والانتشار، ولا زالت تفعل. ومن أهمِّ وسائلها ـ الموجَّهة للقضاء على الفكرة الإسلاميَّة تحديدًا ـ تجريح الصَّحابة، باقتناص بعض الأحاديث غير المنطقيَّة مرَّة، أو التَّشكيك في نزاهة الرُّواة منهم مرَّة أخرى، وهم بذلك يلعبون على وتر قداسة الصَّحابة (المائة ألف) في قلوب عامَّة المسلمين،

---

١١١- من مرويَّات أبي موسى، قال: «صلينا مع النَّبيّ ﷺ المغرب» / أخرجه مسلم.

القداسة التي تُؤمِّن لهم طمأنينة قلبيَّة وعقليَّة إزاء الأحاديث النَّبويَّة التي عليها يقوم الدِّين بسكينة وثقة.

لكن كيف حال عامَّة المسلمين، أولئك مِمَّن تتحكَّم العاطفة بوعيهم أكثر ممَّا يتحكَّم العقل، إذا كانت خُطَّة العَلمانيِّين والملاحدة هي ضرب قداسة هؤلاء الصَّحابة (الجانب العاطفيّ في الإدارك الجَمعيّ لدى المسلمين) باستخدام أحاديث نبويَّة صحيحة، وأدلَّة عقليَّة معتبرة؟

المؤكَّد أنَّ من بنى إيمانه على عاطفة القداسة، دون وعي عقليٍّ، سيسقط في جُبِّ الشَّكِّ، قبل أن يموت كُفرًا في ذلك القعر المظلم، عندما يعتقد في الصَّحابة قداسة تنزيهيَّة تعيقه عن إعمال عقله فيما وصل إليه عنهم، أو وصل إليه بواسطتهم.

وعليه؛ نرى وجوب تخلُّص مُسلمي الألفيَّة الثَّالثة من نزعة تقديس البشر بأيِّ زعم، وإن كانوا الصَّحابة الأجلَّاء الأقربين من مُحمَّد ﷺ. إذ المدرسة المُحمَّديَّة، بكلِّ أساتذتها ومُعلِّميها، من الصَّحابة السَّابقين إلى الإسلام، حرصت أبلغ الحرص على نزع القداسة عن الآباء الأوَّلين، تلك القداسة التي تطمس الوعي، وتُكلِّس الفهم، وتُعطِب العقل، ما يؤدِّي بالضرورة إلى الإشراك بالله شركا مُعلنًا ـ كما حدث لوثنيِّي مكَّة، وكانوا من قبل مؤمنين، فبالغوا في تقديس صالحيهم حتَّى عبدوهم ـ وشركًا خَفيًّا أيضًا.

فلا قداسة على الحقيقة لغير الله جَلَّجَلَالُهُ. وهذا هو المنهج القرآنيّ، الَّذي «جعل العقل حكمًا، والبرهان أساس العلم، وعاب التَّقليد، وذمَّ المُقلِّدين، وأنَّب من يتَّبع الظَّنَّ (والظنّ شعور

عاطفيٌّ)، وقال: {إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}[١١٢]، وعاب تقديس ما عليه الآباء، وفرض الدَّعوة بالحكمة لمن يفقهها».[١١٣]

فإذا أدرك مسلمو الألفيَّة الثَّالثة هذا الفهم أمكنهم تفويت الفرصة على كلِّ مُتربِّص بالإسلام، يسعى إلى التَّشكيك فيه باستغلال بعض تصَرُّفات الصَّحابة غير المحسوبة، أو بتسويق بعض مَرويَّاتهم غير المنضبطة بضوابط المنطق، إذ مثل هذه الملحوظات مهما عظمت، لا يمكنها إلحاق أدنى ضرر بجوهر الإسلام، الذي هو: توحيد الله.

---

١١٢- آية ٣٦ ـ سورة يونس / قرآن كريم.

١١٣- من مقدِّمة الشَّيخ مُحمَّد مصطفى المراغيّ لكتاب «حياة محمد» لمُحمَّد حسين هيكل.

# الفصل الخامس

العلاقة المُتوتِّرة بين فرنسا والإسلام . الحرب الصَّليبيَّة المعاصرة . انحياز الإعلام الغربيِّ ضدّ الإسلام . المُثقَّف الصَّليبيُّ المسلم . التَّبشير حرب صَليبيَّة ناعمة . دعاوى الغرب بخصوص حقوق الإنسان وحقوق المرأة ودورها في الحرب الصَّليبيَّة النَّاعمة . المدارس والمستشفيات قواعد التَّبشير الصَّليبيّ في البلاد الإسلاميَّة . فشل التَّبشير الصَّليبيّ . التَّوسُّع الإسلاميّ . الكيان الصُّهيونيُّ في فلسطين رأس حربة التَّبشير الصَّليبيّ في القلب الإسلاميِّ . المصير الأندلسيُّ.

في أحد أيَّام أكتوبر من العام الميلاديِّ 2020 قال الرَّئيس الفرنسيُّ إيمانويل ماكرون للصَّحافة الفرنسيَّة: «الإسلام في أزمة»، مُعقِّبًا بذلك على مقتل أحد مُدرِّسي التَّاريخ الفرنسيِّين بيد طالب مُسلم مُتطرِّف أغضبه ما قامت به إحدى الصُّحف الفرنسيَّة من إعادة نشر رسوم تُسيء لرسول الإسلام؛ وكان المُدرِّس الذي تلقَّى رَدَّة الفعل القاتلة مؤيِّدًا بدوره لما قامت به الصَّحيفة، والتي سبق لإحدى الصُّحف الدَّنماركيَّة ـ قبل عقد تقريبًا ـ أن نشرت الرُّسوم نفسها قبل عقد من الزَّمان تقريبًا، فتسَبَّبت في طروء حالة من الاحتقان الشَّديد، تفجَّرت على الفور بغضب عارم اجتاح جميع الشُّعوب المسلمة بمختلف أنحاء الأرض، والتي لم يكتفِ بعضها بالمسيرات والمظاهرات الغاضبة، بل أقدم على حرق سفارات أوروبيَّة في بعض الدُّول ذات الغالبيَّة الإسلاميَّة، قبل أن تتصاعد دعواتها المطالِبة بالمقاطعة الاقتصاديَّة للمنتجات الدَّنماركيَّة.

وبعيدًا عن البحث في الدَّوافع التي جعلت الجريدة الفرنسيَّة تُعيد نشر تلك الرُّسوم المُسيئة لمشاعر المسلمين، مع علمها بالتَّوابع الخطيرة المعتادة لهذا الفعل، فإنَّ تصريـح ماكرون، الذي انتُظِر إنصافه بصفته رئيسًا لدولة أوروبيَّة تضُمّ حدودها أكبر عدد من المسلمين (قُدِّر عدد مسلمي فرنسا في أحدث إحصائيَّات ٢٠٢٠ بـ 8.5 مليون مسلم، بنسبة 12.7٪ من العدد الإجماليِّ للفرنسيِّين) فإذا به يعدُّ ما قامت به الصَّحيفة الفرنسيَّة، من استفزاز قميء للمسلمين لا تقبله أبسط المبادئ الإنسانيَّة، حُريَّة تعبير! ثُمَّ يُثنِّي بتوجيه الإدانة لا لمن بدأ بتوجيه الإساءة للإسلام، ولا للمسلمين الذين رَدُّوا الإساءة بعنف غير مقبول، وإنما أدان الإسلام نفسه، واصفًا إيَّاه بأنَّه في أزمة! ليضع في أيدينا، بتصريحه هذا، دليلًا حَيًّا على أنَّ حتَّى أكثر النَّاس تَفتُّحًا وتعَقُّلًا، في أوروبًّا النَّيِّرة، يمكن أن تُصاب عقولهم بذات ضيق الفهم، وضبابيَّة الرُّؤية، المُميِّزان لكُلِّ مُتعصِّب مُتطرِّف.

فهل يُعقل، إذا احتفظ أحدهم بسبيكة كبيرة من الذَّهب شديد النَّقاء ولا يستخدمها في التَّخلُّص من فقره، إلقاء اللوم على سبيكة الذَّهب، واتّهامها بأنَّها تعيش «أزمة فقر»!

هل يُعقل إذا امتلك أحدهم طائرة خاصَّة لا يعرف كيف يقودها، إلقاء اللوم على الطَّائرة، واتّهامها بأنَّها تعيش «أزمة تحليق»!

هذا اللا معقول في المثالين، كان أنموذجًا مضبوطًا لمنطقيَّة ماكرون تجاه الإسلام: اتَّهم سبيكة الذَّهب بأنَّها تعيش «أزمة فقر»، والطَّائرة بأنَّها تعيش «أزمة تحليق»!

ولو كان وَجَّه إدانته للمسلمين قائلًا أنَّهم يعيشون «أزمة تخلُّف» لربما أصاب.

لكن؛ ماذا لو أنَّ ماكرون أصاب؟

لا شَكَّ في أنَّه سيساهم في توعية المسلمين، ما يؤدِّي إلى إزالة الرُّكام عن الوجه الأبيض المشرق للإسلام، و«إزالة الرُّكام عن وجه الإسلام» لن يكون يومًا غاية غَربيَّة، فضلًا عن أن يكون غاية أوروبيَّة، وفرنسيَّة تحديدًا؛ فأوروبَّا مجتمع مثل أيِّ مجتمع، حاضره ومستقبله قائمان على قواعد ماضيه، المُنصبَّة في تاريخه؛ وجزء مهم من تاريخ أوروبَّا غارق حتَّى أذنيه في حروب صَليبيَّة شهيرة، لطالما أشعلها الأوروبيّون ضدّ الإسلام والمسلمين ـ ولن نتجاوز الحقيقة إذا قلنا: ولا زالوا يشعلونهاـ ف«ما زالت العقليَّة التي نتجت عن الحروب الصليبيَّة تُشكِّل، وتُحدِّد، العلاقات المشتركة بين الغرب والإسلام».[١١٤]

ولدينا من الشَّواهد البَيِّنة، على استمراريَّة الحرب باسم الصَّليب حتَّى الوقت المعاصر، ما يثبت صِحَّة تقريرنا، منها ـ على سبيل المثال لا الحصرـ ما صَرَّح به الرَّئيس الأمريكيُّ بوش الابن لإحدى صحف الكيان الصُّهيوني المُحتلّ لفلسطين، بعد نجاحه في غزو العراق سنة ٢٠٠٣ ميلاديَّة، عندما قال: «طلب مِنِّي الرَّبُّ أن أضرب القاعدة، وقد ضربتها، ثُمَّ إنَّه أمرني بأن أضرب صَدَّامًا، وهذا ما فعلته»[١١٥]؛ وقد يشُكّ المُطالِع لتلك المقولة في أنَّها لأحد

١١٤- كتاب «الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة» / مراد هوفمان.

١١٥- كتاب «الحُكَّام العرب في مُذكِّرات زعماء وقادة ورجال مخابرات العالم» / مجدي كامل.

باباوات الحروب الصَّليبيَّة القديمة، لا لرئيس أمريكيٍّ معاصر!

يقول أحد الكتَّاب الأمريكيين: «خلال حرب الخليج والإبادة الجماعيَّة وصلتني عشرات الرَّسائل تسألني كيف يمكن أن أعارض (حرب مَسيحيَّة ضد العراق). كيف يمكن أن أشكّ في أنَّ الدَّعم الأصوليَّ المَسيحيَّ للحرب على العراق لم يكن مَبنيًّا على الكتاب المُقدَّس، وفوق ذلك، ألم يؤدِّي بيلي جراهام الصَّلوات مع الرَّئيس بوش قبل بدء إطلاق النَّار؟ ألم يتحدَّث الكتاب المُقدَّس عن (الحروب وأخبار الحروب)؟»[116]

كذلك الجنرالات العسكريّة الأمريكية، لم يبعد فهمهم لغزو العراق المسلم عن الفهم الصَّليبيّ الذي تبَنَّاه بوش الابن، فيقول الجنرال توم فرانكس، قائد القوَّات الأمريكيَّة التي غزت العراق، مُتحدِّثًا عن ظروف بدء الحرب، ما نَصّه: «في يوم ١٧ مارس، قبل يومَين من بدء العمليَّات، بعثت بخطاب نوايا عن طريق الفاكس إلى نائب رامسفيلد بول وولفويتز، وبالرَّغم من أنَّني أعددت الرِّسالة بطريقة مُهذَّبة، فإنَّ محتوياتها كانت واضحة ومباشرة، ومفادها: اجعلوا واشنطن تُركِّز على السِّياسة والاستراتيجيَّة. اتركوني وحدي أدير الحرب. وفي نهاية مُذكِّرتي ذَكَّرت وولفويتز بالنِّطاق الأخلاقيِّ الذي سأعمل من خلاله في الأيَّام المقبلة: أحمل عَلَمًا أمريكيًّا، وإنجيلًا في جيبي، وأضع رباط الزَّواج في يدي اليسرى. أفهم المُهمَّة والمحتوى الاستراتيجيّ الذي ستُنفَّذ من خلاله، ولن أحيد عن طريقي إلَّا إذا تلَقَّيت تعليمات بذلك»[117]

١١٦- "التَّسلسل الهرميُّ للمتآمرين. لجنة الـ300" / جون كوليمان.

١١٧- كتاب «الحُكَّام العرب في مُذكِّرات زعماء وقادة ورجال مخابرات العالم»/ مجدي كامل.

واستشهدت مادلين أولبرايت، وزير خارجيَّة أمريكيَّة أسبق، في كتابها: «تأمُّلات في أمريكا» بأجزاء من آيات قرآنيَّة، أخرجتها من السِّياق مع سبق الإصرار والتَّرصُّد؛ لتُثبت أنَّ الإسلام دين قتال وحرب، وهي رؤية صَليبيَّة إذا صَرَّح بها من يُفترَض بهم أنَّهم سياسيُّون، وتأكيد على أنَّ ما يظهروه من عَلمانيَّة هو إعلان مُزوَّر، وأنَّ الدَّافع الدِّينيَّ ـ مواجهة الإسلام ـ يبقى أقوى الدَّوافع السِّياسيَّة التي تُحرِّك سياسيّ الغرب.

ويؤكِّد مراد هوفمان ـ وهو سياسيٌّ ألمانيٌّ اعتزل السِّياسة وتفَرَّغ للكتابة عن الإسلام بعد اعتناقه ـ رؤيتنا هذه، عندما يكتب قائلًا: «إنَّ التَّحليل لعَلمانيَّة الغرب، وفكّ الرِّباط الدِّينيّ بين الكنيسة والدَّولة يوضِّح

ـ بالرُّغم من كُلِّ ما يقال ـ أنَّ الدَّولة والمجتمع، أي السِّياسة في أوسع معانيها، إنَّما هي ذات صبغة مسيحيَّة ـ بالرُّغم من كُلِّ ما يساق لنفي هذه الحقيقة ـ سواء كان هذا من الدِّين المسيحيّ أم الحضارة المَسيحيَّة؛ لذلك يرى جيفري لانج (أستاذ رياضيَّات أمريكيّ وحائز على شهادات جامعيَّة في الفلسفة ومِمَّن اعتنقوا الإسلام) أنَّ تعبير عَلمانيَّة الغرب تعبير خاطئ، ويجانبه الصَّواب تمامًا».[١١٨]

وللإعلام الغربيّ، مهما ادَّعى استقلاله عن سياسات الحكومات التي يتبعها، دوره الواضح في رسم صورة مقلوبة للإسلام، ومُشوَّهة للنِّهاية، فهو بريشتهم: «دين عفى عليه الزَّمن بلا أدنى بادرة أمل في إصلاحه أو تنويره، وبذلك لا يزال قابعًا في ظلمات العصور الوسطى، والنَّمط السَّائد لتحقيق هذا الانطباع وتقويته

١١٨- "الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة" / مراد هوفمان.

هو إبراز ثغرات الإسلام، خاصَّة إذا ما قورنت بالنموذج الغَربيّ فيما يخصّ الجانب الشَّخصيّ للإنسان: الوعي الفَرديُّ، المواطنة، المجتمع المَدنيُّ والعَقلانيَّة».[١١٩]

وتبلغ ادّعاءات الإعلام الغَربيّ ذروتها عندما «تذكر الإسلام مصحوبًا دائمًا بصفات مثل الاستبداد الشَّرقيّ، والوحشيَّة في قطع الأيدي، وقمع النِّساء المخالف لحقوق الإنسان، وتمَسُّكه بأخلاقيَّات بالية عفى عليها الزَّمن، مثل العِفَّة قبل الزَّواج، وموقفه من العلاقات خارج الزَّواج، والخيانة الزَّوجيَّة، والإجهاض، والشُّذوذ الجنسيّ. وموقف الإسلام من كُلِّ ما سبق ذكره يخالف موقف الغرب تمامًا، وبشكل جَوهريٍّ وعَمليٍّ، وهو موقف غريب تمامًا لا يستسيغه الغرب».[١٢٠]

وإذا كان مفهومًا إطلاق الفكر الغَربيّ لهذه الادّعاءات عن الإسلام، فليس مفهومًا أن يتبَنَّاها مُثقَّفون ومُفكِّرون مسلمون، ويؤمنون

بصِحَّتها، بل يحاربون لصالح ترسيخ هذا الفهم المغلوط بمختلف الوسائل المؤثِّرة ثقافيًا، سواء بإصدار الكتب، أم بكتابة المقالات لصحف لها نفس التَّوجُّه، أم بترديد هذه الأفكار السَّامَّة في برامج تلفزيونيَّة واسعة الانتشار في الوطن العربيّ خِصِّيصًا.

وقد كانت لي تجربة شخصيَّة مع زميل عمل في إحدى المجلَّات المصريَّة المَعنيَّة بالثَّقافة والأدب، امتهن حرفة الكتابة، وانضم لقافلة الكُتَّاب، قبل أن يتوَجَّه أخيرًا لتسفيه الفقه الإسلاميّ،

١١٩- "الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة" / مراد هوفمان.
١٢٠- المصدر السابق.

والتَّبشير بحضارة الغرب. سألني هذا الزَّميل يومًا، وقد جحظت عيناه تحَدِّيًا، وتصَلَّبت ملامح وجهه رَفضًا، عمَّا إذا كنت أقبل بعقوبة قطع اليد المنصوص عليها في الشَّريعة الإسلاميَّة؟ هل أقبل بالرَّجم البشع؟ هل أقبل بالجلد غير الإنسانيّ؟ هل أقبل - عمومًا - بعقوبة تقع على الجسم الإنسانيِّ؟

وأنا، هنا، لست في معرض ذكر إجاباتي، المدعومة صحَّتها بعدم فهم هذا الزَّميل، ومن ينسجون نسجه، للجزء الخاصّ بالحدود من الشَّريعة الإسلاميَّة، ما يتخَيَّل معه الإسلامَ دينًا ساديًّا، تدفع به الرَّغبة في المتعة - ولا شيء غير المتعة - إلى قطع يد أيّ سارق، أو رجم أيّ زانٍ وزانية، أو جلد المُفسدين في الأرض، وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، دون مواصفات مُحدِّدة للجريمة المُستحِقَّة لتطبيق الحَدّ على مرتكبها؛ هذا غير تجاهل الزَّميل أنَّ الحبس في السِّجن، مهما كان سجنًا تتوفَّر فيه شروط المعاملة الإنسانيَّة، هو بدوره عقوبة تقع على الجسم البشريّ، وأنَّ عقوبة الإعدام - المُتعدِّية إصابة الجسم البشريّ بعاهة مستديمة إلى إفنائه بالكامل - لا تزال قائمة في دول غَربيَّة وولايات أمريكيَّة عديدة. لكن بلا شكّ أنا هنا، بمعرض النَّظر فيما قد يكون سببًا لالتباس الإسلام في ذهن هذا الزَّميل وغيره، من المُثقَّفين المسلمين المناهضين للإسلام. إنَّهم حصاد الزَّرع التَّبشيريّ الصَّليبيّ القديم، الذي طالما اجتهد وراهن، على لعبة غسل العقول، تلك اللعبة التي تؤتي ثمارها أكيدًا بالعمل الدَّؤوب مع الصَّبر.

يقول لو شاتليه، وهو أحد مُبشِّري النِّصف الأوَّل من القرن العشرين الكبار: «لا شَكّ في أنَّ إرساليَّات التَّبشير من بروتستانتيَّة

وكاثوليكيَّة تعجز عن أن تزحزِح العقيدة الإسلاميَّة من نفوس منتحليها، ولا يتمّ لها ذلك إلّا ببثِّ الأفكار التي تتسَرَّب مع اللغات الأوروبيَّة، فبنشرها اللغات الإنجليزيَّة والألمانيَّة والهولنديَّة والفرنسيَّة يتحَكَّك الإسلام بصحف أوروبَّا، وتتمَهَّد السُّبل لتَقدُّم إسلاميٍّ مادِّيٍّ، وتقضي إرساليَّات التَّبشير لُبانتها من هدم الفكرة الدِّينيَّة الإسلاميَّة»[١٢١]؛ كما يؤكِّد على أنَّ «إرساليَّات التَّبشير الدِّينيَّة التي لديها أموال جسيمة، وتُدار أعمالها بتدبير وحكمة، تأتي بالنَّفع الكثير في البلاد الإسلاميَّة، من حيث إنَّها تبثّ الأفكار الأوروبيَّة».[١٢٢]

أمَّا عن بثّ الأفكار الأوروبيَّة بصفتها وسيلة تبشيريَّة تستهدف العالم الإسلاميّ، فيتِمّ ذلك بوسائل ذكرها تبشيريٌّ آخر، من الزمان ذلك نفسه، يدعى فليمنج، في تقرير له عن أوَّل مؤتمر تبشيريّ عامٍّ، انعقد في القاهرة! سنة ١٩٠٦ ميلاديَّة، ذكر فيه أنَّ سكرتير المؤتمر قال في محاضرته أمام المؤتمرين: «إنَّ الخُطَّة العدائيَّة التي انتهجها الشُّبَّان المسلمون المُتعلمّون اضطرَّت المُبشِّرين في القطر المِصريِّ إلى محاولة إعادة ثقة الشُّبَّان المسلمين بهم، فصار هؤلاء المُبشرّون يلقون محاضرات في موضوعات اجتماعيَّة وخُلقيَّة وتاريخيَّة، لا يستطردون فيها إلى مباحث الدِّين، رغبة في جلب قلوب المسلمين إليهم. وأنشأوا بعد ذلك في القاهرة مجلَّة أسبوعيَّة اسمها (الشَّرق والغرب) افتتحوا فيها بابًا غير دينيٍّ، يبحثون فيه بالشّؤون الاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة، وأسَّسوا أيضًا مكتبة لبيع الكتب بأثمان قليلة، والغرض من ذلك

---

١٢١- "شنّ الغارة على العالم الإسلاميّ" / لو شاتليه.

١٢٢- المصدر السَّابق.

استجلاب الزَّبائن، ومحادثتهم في أثناء البيع.... وبِناءً على هذا ساعد المُبشرّون الشُّبَّانَ المسلمين في تأسيس جمعيَّة الغرض منها إيجاد صلة تُقرِّب بين الطَّبقة المُتعلِّمة والطَّبقات المُتعدِّدة التي تتألَّف الأُمَّة منها، وإنماء روح الاتِّفاق. هذه هي الطَّريقة التي استحسنها المُبشرّون بعد أن علموا أنَّ الأمور التي يتذرَّعون بها، وتكون صبغتها دينيَّة، لا ريب أنَّ عاقبتها الفشل».[١٢٣]

وهذا المؤتمر. الذي عُقِد في القاهرة ١٩٠٦ الميلاديّ. «لم يفته البحث في حركة الإصلاح التي دخلت في مسلمي الهند، والإشارة إلى السِّير سَيِّد أحمد خان زعيم تلك النَّهضة، وما تبذله مدرسته الإسلاميَّة في عليكر، ومؤتمر التَّربية الإسلاميَّة. ولقد خطب القسِّيس ويتبر تشت في مؤتمر القاهرة بموضوع (الإسلام الجديد) فذكر أنَّ تعاليم أوروبَّا تُقرِّب المسلمين من النَصرانيَّة».[١٢٤]

ويمكننا ملاحظة أنَّ تعبير «تعاليم أوروبَّا» هو نفسه تعبير «الأفكار الأوروبيَّة».

ويؤكِّد صمويل زومير على الفكرة نفسها في كتابه «العالم الإسلاميُّ اليوم»، فيقول: «ينبغي للمبشرّين ألَّا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة؛ إذ من المُحقَّق أنَّ المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشَّديد إلى علوم الأوروبيِّين وتحرير النَّساء».[١٢٥]

ها هو الرَّجل التَّبشيريّ التَّاريخيّ يُكرِّر أنَّ «علوم الأوروبيِّين»، بالإضافة إلى «تحرير النِّساء» (بالمفهوم الأوروبِّي طبعًا)، عاملان

١٢٣- "شنّ الغارة على العالم الإسلاميّ" / لو شاتليه.
١٢٤- المصدر السابق.
١٢٥- المصدر السابق.

رَئيسان لمواجهة الإسلام ونشر المَسيحيَّة.

والمتأمِّل في منتجات معظم المنتمين للنُّخبة المُثقَّفة العربيَّة (المُسلمة!) من كتب ومقالات ومحاضرات، ولقاءات صَحافيَّة مقروءة ومسموعة ومَرئيَّة، يُدرك أنَّ الخُطَّة التَّبشريَّة، بخصوص تكوين ثقافة مُحبَّة للأفكار الأوروبيَّة، قد طرحت ثمارها على أنضج ما يكون، وأوفر ما يكون؛ ليظهر أخيرًا هذا الجيل اللامنتمي لجذوره العَربيَّة الإسلاميَّة، المنتمي للتَّعاليم الأوروبيَّة؛ الجيل الطَّالح عربيًا وإسلاميًا، الطَّامح أوروبيًا ولا دينيًا؛ وقد ارتمى في حضن الغربيِّين للدَّرجة التي أهمل معها حتَّى أبسط صور شعائر إسلامه، وازدرى أبسط سلوكيَّاته الأخلاقيَّة، حتَّى إنَّه صار يُلحِق ضررًا بالغًا بمستقبل الإسلام لا في الشَّرق فقط، بل وفي الغرب، على سبيل المثال نرصد صورة مُصغَّرة لإضراره بالإسلام في ألمانيا «وهو مُتمثِّل في النَّشاط الذي يمارسه بعض الأفراد الذين استوطنوا ألمانيا من القادمين من العالم العربيّ، خاصَّة هؤلاء مِمَّن لهم مكانة مرموقة، وكذلك خلفيَّة ليبراليَّة أو ماركسيَّة، هؤلاء المسلمون الثَّقافيُّون يستغلِّون المِصداقيَّة التي يحظَون بها في وسائل الإعلام للدِّعاية لما يُسمَّى باليورو إسلام (قليلٌ من الإسلام وكثيرٌ من الأوروبِّي) وهؤلاء يجعلون المسلمين النَّشيطين يظهرون بمظهر المُتطرِّفين.... هذا الأمر يؤدِّي دومًا إلى أمثلة من هذا القبيل: لماذا لا تستطيعون أن تكونوا مثل هؤلاء المُثقَّفين؟ فهم لا يريدون بناء مساجد، ولا يحجّون، ولا يُصلُّون دومًا، كما أنَّهم يتناولون الخمر، ويسمحون لنسائهم بالخروج مكشوفات الأذرع. أو ليسوا هم الآخرون مسلمين؟».[١٢٦]

١٢٦- "الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة" / مراد هوفمان.

وفي أحد التَّقارير الصَّادرة عن مؤتمر لكنو التَّبشيريّ العامّ، الذي انعقد في الهند سنة ١٩١١ مِيلاديَّة، كتب القسيس ينج، يرجو «أن يكون إنشاء الطُّرق والسِّكك الحديديَّة وتشييد المدارس أبوابًا ومنافذ بين المسلمين والمَسيحيَّة، وختم تقريره بالقول: إنَّه قد أزف الوقت لارتقاء العالم، وسيدخل الإسلام في شكل جديد على الحياة والعقيدة، ولكن هذا الاسلام الجديد سينزوي في النِّهاية، ويتلاشى بالمَسيحيَّة».[١٢٧]

هكذا حتَّى صنعة التَّمدُّن والارتقاء بالمجتمعات صارت أداة تبشيريَّة صليبيَّة تستهدف غزو العالم الإسلاميّ من الدَّاخل، والتَّخلُّص من الإسلام.

ثُمَّ . وأخيرًا . انتهى الإعلام الغَربيُّ الحديث إلى ما بدأ به إعلام الأجداد، المَملوك لباباوات الحروب الصَّليبيَّة الأولى، ليقطع بأنَّ «الإسلام دين عِدوانيٌّ وتَوسُّعيٌّ، يجنح إلى التَّعصُّب والعنف والإرهاب».[١٢٨]

وعليه تواصل أمريكا الجديدة مع أوروبَّا القديمة، تسخير معظم الجهود والقوى، من بينها جهود وقوى الدُّول العربيَّة المُسلمة نفسها! في ما يُمكن وصفه بحرب عالميَّة كبرى على الإسلام، ذات طبيعة عَسكريَّة في أجزاء من العالم الإسلاميّ، مثل العراق وأفغانستان (وقت كتابة هذا الجزء من الكتاب لم تكن أمريكا وحلفاؤها قد انسحبت من أفغانستان) وسورية، وذات طبيعة ثقافيَّة في باقي دوله؛ حروب ماديَّة بالسِّلاح، وأخرى معنويَّة

١٢٧- "شنّ الغارة على العالم الإسلاميّ" / لو شاتليه.
١٢٨- "الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة" / مراد هوفمان.

بالفكر والإعلام. حروب لا يمكن فصلها عن امتدادها الطَّبيعيِّ الضَّارب بجذوره التَّاريخيَّة في الحروب الصَّليبيَّة التَّاريخيَّة ذات النَّصلين: العسكريُّ والتَّبشيريُّ.

وها هو أحد التَّبشيريِّين الصَّليبيِّين، الأحدث عهدًا، يقول: «نزع الاعتقادات الإسلاميَّة ملازم دائمًا للمجهودات التي تُبذَل في سبيل التَّربية المَسيحيَّة، والتَّقسيم السِّياسيُّ الذي طرأ على الإسلام سيُمهِّد السُّبل لأعمال المدنيَّة الأوروبيَّة، إذ من المُحقَّق أنَّ الإسلام يضمحلّ من الوجهة السِّياسيَّة، وسوف لا يمضي غير زمن قصير حتَّى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبيَّة».[١٢٩]

وقد استلزم تحقيق هذا الهدف الثَّمين إعداد جيش من التَّبشيريِّين البروتستانت الصَّليبيِّين، دون إشارة إلى التَّبشيريِّين من الملل المسيحيَّة الأخرى، بلغ عدده بحسب وثائق مؤتمر أدنبرة التَّبشيريّ بأسكتلندا، المنعقد سنة ١٩١٠ميلاديَّة، نحو ٩٢ ألفًا و٩١٣ مُنصِّرًا، تدعمهم ٥ آلاف و٥٠٠ لجنة.[١٣٠]

وفي سبيل نزع الإسلام من جميع أنحاء الكرة الأرضيَّة لم تسلم الجزيرة العربيَّة، محلّ انبلاج شمس الإسلام، من الهجوم التَّبشيري الصَّليبي الشَّرس؛ فيشير صمويل زويمر إلى أنَّه «منذ عام ١٨٨٩ وحتَّى الوقت الحالي (وقت كتابة تقريره في ١٩١٠ تقريبًا) هناك ما لا يقلّ عن ثمانين مُنصِّرًا ذهبوا إلى الجزيرة العربيَّة، من خلال بعثتهم، لخدمة طويلة أو قصيرة فيها، وأنَّ

١٢٩- "شنّ الغارة على العالم الإسلاميّ" / لو شاتليه.
١٣٠- كتاب «صمويل زومير حياته وجهوده التَّنصيريَّة» / ناصر بن إبراهيم آل تويم.

سبعة مستشفيات أصبحت مراكزًا للتَّأثير، وخلال سنة واحدة بلغ عدد المُستفيدين مئتين وسبعة وثلاثين ألف مستفيد من الخدمات الطِّبيَّة، ومئات من أطفال العرب تخَرَّجوا في مدارسنا، وعشرات الآلاف من الإنجيل تَمَّ توزيعها».[١٣١]

وتؤكِّد الكاتبة الأمريكيَّة ساندرا مكي، بنفس النَّظرة الغربيَّة الصليبيَّة المُحِطَّة من قدر العالم الإسلاميّ: «ومنذ منتصف القرن التَّاسع عشر بدأت البعثات التَّبشيريَّة، والتي كانت تؤمن إيمانًا قويًّا بالصَّليب، تجوب كافَّة أرجاء العالم العربيّ بأعداد كبيرة، وحماس مُقدَّس، حاملة لواء الخلاص لتلك المنطقة من العالم، والتي كانت ترضخ في ظلمات الجهل، حتَّى لقد قال دانيال بليس، عضو الكنيسة البروتستانتيَّة، أمام مجلس المُفوّضين الأمريكيِّين للبعثات الخارجيَّة: إنَّ واجب أمريكا نحو العرب هو التَّعليم... واقتنع المجلس بهذا الرَّأي، وقرَّر تخصيص أموال لبناء كُليَّة على مساحة من الكثبان الرَّمليَّة المهجورة، والتي كانت تُستخدَم كمقلب للقمامة في بيروت، وهكذا دخلت الولايات المُتَّحدة عالم العرب لأوَّل مرَّة من خلال ما يُعرَف بالجامعة الأمريكيَّة في بيروت»[١٣٢]. ما يكشف لنا عن الجوهر التَّبشيريّ الصَّليبيّ للجامعات الأمريكيَّة الموزَّعة في العواصم العربيَّة الإسلاميَّة، يقصدها الطلَّاب المسلمون بصفتها أرقى منافذ العلم، ثُمَّ يتخرَّج معظمهم فيها وقد فقد اعتزازه بعروبته، وشرع في مهاجمة إسلامه، لصالح تبييض وجه أوروبَّا، الوجه الذي تُظهِره لهم مدنيًّا عَلمانيًّا وهو على الحقيقة تبشيريٌّ صليبيٌّ، ليتحوَّل هؤلاء الطُّلاَّب ـ مع

١٣١- كتاب «صمويل زومير حياته وجهوده التَّنصيريَّة» / ناصر بن إبراهيم آل تويم
١٣٢- "ملفَّات الحكَّام العرب" / ساندرا مكى .

الوقت ـ إلى مُثقَّفين من تلك النَّوعيَّة التي أُطلَق عليها بعض مُفكِّري الإسلام اسم «المسلمون الجُغرافيُّون»؛ لأنَّهم في الوقت الذي يُقِيمون فيه داخل جغرافيا الإسلام، فإنَّهم يُحادُّون تاريخه وقِيمَه، الَّذين، مثلًا، «برغم ما عملته جمهوريَّة فرنسا (اللادينيَّة!) في قضية البربر لمآرب دينيَّة كاثوليكيَّة، وبرغم حماية هولاندة لمُبشِّري الإنجيل في الجاوي، وبرغم قرار الحكومة البلجيكيَّة رسميًّا إكمال تنصير أهل الكونغو، وبرغم منع الإنكليز في الأوغندا وفي دار السَّلام ـ وكذا السُّودان ـ من بثِّ الدِّعاية الإسلاميَّة بين الزُّنوج، وبرغم أمور كثيرة لا يسعنا الآن شرحها، لا يزالون (هؤلاء المسلمون الجُغرافيُّون) يخدعون المسلمين قائلين لهم: إنَّ أوروبَّا قد رفست الدِّين برجلها، وصارت على خُطَّة لا دينيَّة، وبذلك قد اتَّسق لها الرُّقيُّ ونجحت، ونحن لن نفلح ما دمنا سائرين على خُطَّة إسلاميَّة.»[١٣٣]

لكن، ومع جميع تلك المُعوِّقات الكبرى؛ أثبت الوقت أنَّ الرّؤية الدّراماتيكيَّة لنهاية الإسلام، وقد توقَّعها له التَّبشيريُّون الصَّليبيُّون في أوائل القرن الماضي، لم تكن صائبة، ولا حتَّى قريبة من الصَّواب، بل طائشة، أخطأت هدفها تمامًا.

فالإسلام، بعد مرور أكثر من مائة عام من العمل التَّبشيريّ الصَّليبيّ، لم ينته به الأمر إلى الاضمحلال بأيِّ حالٍ من الأحوال، ولا صار مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبيَّة الشَّائكة، بل توَسَّع كَمًّا وكيفًا، فصار عدد المسلمين اليوم يقارب المليارين، وكان عددهم وقتها مائتي مليون فقط. أمَّا عن التَّأثير الإسلاميّ، فالإسلام اليوم

١٣٣- "لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم" / شكيب أرسلان.

أحد أكبر تخَوّفات الغرب؛ ولا نعرف على أيِّ أساس بنى لو شاتليه رؤيته السَّوداويَّة لنهاية الإسلام إذا كان هو نفسه من دَوَّن في كتابه «الغارة على العالم الإسلاميّ» أنَّه - بعد ستّ سنوات فقط من المؤتمر التَّبشيريّ العامّ الأوَّل، الذي انعقد في القاهرة ١٩٠٥ ميلاديَّة- انعقد في لكنو بالهند المؤتمر التَّبشيريّ العامّ الثَّاني، وأن من كان يدخل إلى باحة ذلك المؤتمر «يرى جدرانه مستورة بالخرائط والإحصائيَّات التي يتبيَّن منها مبلغ اتّساع نطاق الإسلام وارتقائه وتقدمّه في الأيَّام الأخيرة».[١٣٤]

أي بعد خمس سنوات من العمل التَّبشيريّ الجادّ ضدّ الإسلام اتَّسع نطاقه بدرجة ملفتة استلزمت رسم خرائط!

وفي الكتاب نفسه دوَّن لو شاتليه نَصَّ كلمة صمويل زويمر الافتتاحيَّة للمؤتمر الهنديّ، وهي كلمة تعكس نجاحات إسلاميَّة محبطة للتَّبشيرِّين، وقعت خلال تلك الخمس سنوات فقط.

يقول زويمر: «يدور على الألسنة، منذ انعقد مؤتمر القاهرة، أنَّ كثيرًا من القبائل المسيحيَّة التي في شمال الحبشة دخلت في الإسلام، وإن كان أسماء أفرادها لا تزال كما كانت من قبل. والمُبشِّرون المنتشرون على ضَفَّتي النِّيل وشرقي أفريقيَّة وبلاد النَّيجر والكونغو يرفعون أصواتهم بالشَّكوى من انتشار الإسلام بسرعة في هذه الأنحاء، وبالرَّغم من أنَّ انتشاره في الهند الهولنديَّة قد لقي موانعَ من مجهودات جمعيَّات التَّبشير الهولنديَّة والألمانيَّة، فهو يتوَطَّد ويثبت هناك؛ لأنَّ المسلمين

---

١٣٤- "الغارة على العالم الإسلاميّ" / لو شاتليه.

أخذوا يستعيضون عن التَّقاليد الحشويَّة والخرافيَّة بعقائد ثابتة قويمة. ففي سومطرة اكتسح الإسلام الأرجاء الوَثنيَّة، وفي جاوة ظهر بمظهر جديد على أثر تأسيس المدرسة الجامعة الإسلاميَّة، وكثرة طبع القرآن، وازدياد عدد الدُّعاة والمرشدين المسلمين، وما زال الوَطنيّون يدخلون في شبكة الإسلام إلى درجة يتعذَّر فيها على المُبشِّرين المسيحيِّين أن يلقَوا لأعمالهم رواجًا»[١٣٥].

أمَّا عن مصير الإرساليَّات التَّبشيريَّة الصَّليبيَّة في الجزيرة العربيَّة فقد انتهى إلى ما أثبته الباحث هـ. كوني زيكلر في تقريره عنها «فشلها في تحويل أيّ عدد ذي قيمة من المسلمين إلى النَّصرانيَّة منذ وصولها الخليج قبل نيِّف وسبعين سنة؛ لذلك تحوَّلت البعثة إلى دور رَعويٍّ جديد، وهو وعظ الجاليات الجديدة من المتعاقدين النَّصارى الذين أتوا إلى الخليج من الخارج، وهكذا وبحلول عام ١٩٧٣تمَّ التَّخلِّي عن الهدف الأصليِّ الذي وُضِع عام ١٨٨٩ لتنصير الجزيرة»[١٣٦].

والخلاصة التي أقرَّها مرور الوقت، هي أنَّ تلك الحملات التَّبشيريَّة لم يتوَقَّف فشلها عند عدم قدرتها على صَدّ التَّمدُّد الإسلاميّ في بلدان أفريقيَّة وآسيا ـ وحتَّى في البلدان العَربيَّة ـ وحسب، بل إنَّها لم تستطع مواجهة انهيار المَسيحيَّة نفسها في معقلها الأوروبيّ، الذي انطلقت منه الإرساليَّات التَّبشيريَّة، إذ بعد ثمانين عامًا تقريبًا، خرج آلاف المسيحيِّين من الإيمان الكنسيّ «لقد فقدت الكنيسة الكاثوليكيَّة في ألمانيا عام ١٩٩٧ الميلاديّ ١٢٤ ألفًا من

---

١٣٥- "الغارة على العالم الإسلاميّ" / لو شاتليه.

١٣٦- "صمويل زوير .. حياته وجهوده التَّنصيريَّة" / ناصر بن إبراهيم آل تويم.

أعضائها»[١٣٧].

وكانت مجلة ديرشبيجل الألمانيَّة ـ قبل خمس سنوات من هذا التَّاريخ ـ ذكرت في عددها المؤرَّخ بـ ١٥ يونيو عام ١٩٩٢ الميلاديّ، من خلال مقالة بعنوان «وداع الله» «أنَّ ألمانيا قد تحوَّلت إلى بلد كافر، به بقايا مَسيحيَّة»[١٣٨].

أمَّا في فرنسا، فإنَّ «التَّحقيقات الوطنيَّة الأولى في مطلع الخمسينيَّات، كان الممارسون المواظبون ـ أولئك الذين صرَّحوا بأنَّهم يحضرون القُدَّاس كلّ يوم أحد ـ يُمثِّلون نحو ٤٠ بالمائة من الفرنسيِّين الذين تزيد أعمارهم عن ١٥ عامًا.. في منتصف التِّسعينيَّات أفضت إجراءات مقارنة إلى مُعدَّل يتراوح بين ٩ و١٠ بالمائة.. ينخفض إلى نسبة تقارب الصِّفر. ٢ بالمائة فقط ـ في العام ١٩٩٤ الميلاديّ. (ما يترتَّب عليه أنَّه) يمكن الحديث عن انهيار في ممارسة الشَّعائر الدِّينيَّة، لا سيَّما في صفوف الشَّباب، (وأنَّ) هذا الانخفاض ملموس في أرجاء أوروبَّا كافَّة، وفي الأجيال كلّها»[١٣٩].

حدث هذا قبل أن يجد الغرب المَسيحيُّ نفسه ـ الذي كان يطمح قبل مائة سنة إلى محاصرة الإسلام بأسلاكه الشائكة ـ محاطًا بأسلاك الإسلام الشَّائكة في عصرنا الحاضر، حيث «يبدو أنَّ الإسلام قد وجد لنفسه موضعًا رصينًا وعميقًا في أمريكا وغربي أوروبَّا، خاصَّة منذ سبعينيَّات القرن (العشرين). وهذا الوجود

١٣٧- "الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة" / مراد هوفمان.
١٣٨- المصدر السابق.
١٣٩- كتاب «أزمة الهويَّات» / كلود دوبار.

الذي ترسَّخ بمرور الوقت يُعدّ نقلة وقفزة نوعيَّة في العلاقات الثُّنائيَّة، أي علاقات الإسلام بالغرب، فلقد أصبح الإسلام، حتَّى في ألمانيا ـ سواء باعتراف حكوميٍّ أم لاـ ظاهرة دائمة، مُتمثِّلة كذلك في الـ ٢٥٧٨ مسجدًا حسب إحصائيات دير شبيجل»[١٤٠].

وثمَّة تَقدُّم إسلاميٍّ في أمريكا أيضًا، فبحلول العام الميلاديّ ١٩٨٨ كان عدد المسلمين هناك يتراوح بين سِتَّة وسبعة مليون نسمة، يتعَلَّمون في شبكة من المدارس الخاصَّة تضُم حوالي أربعمائة مدرسة إسلاميَّة خاصَّة، ويُصلُّون في مساجد بلغ عددها ٣٥٩٦ مسجدًا[١٤١].

ولا شكّ في أنَّ هذه الأرقام قد تضاعفت بعد مرور أربعة عقود، ولم يقتصر النّموُّ الإسلاميُّ على المستوى الكمِّيّ فقط، بل حدث ذلك على المستوى الكَيفيّ أيضًا، فقد صار في أوروبَّا وزراء مسلمون، وصار في الكونجرس الأمريكيّ أعضاء مسلمون، بل وفي كُلّ محفل عِلميٍّ، أو ثقافيٍّ، يوجد مسلمون بارزون، يشاركون في إدارة مؤسَّسات عالميَّة ضخمة.

هكذا، وبعد الفشل الذَّريـع لحملات إرساليَّات التَّبشير ظاهرًا، الصَّليبيَّة باطنًا، في تدجين الإسلام، ونجاحه في الإفلات من براثنها ليتوسَّع في قلب بلادها، وبعد عجزها عن الصُّمود بإزائه، فإنَّ الحرب الصَّليبيَّة التي ما زالت تدفق في عروق سياسيٍّ الغرب أخذت في التَّشكُّل بطور جديد، هو أضعف أطوارها من وجهة نظرنا؛ لأنَّه طور يأخذ سمة الدِّفاع عن النَّفس، بعد أن كان هجومًا،

---

١٤٠- "الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة" / مراد هوفمان.
١٤١- المصدر السابق.

تمَثَّل في لجوء بعض السِّياسيِّين الغَربيِّين إلى استحداث قوانين الغرض منها تقييد حُريَّة المسلم تجاه ممارسة الطُّقوس الظَّاهريَّة من دينه، رغم أنَّ مؤسَّسات الحكم في هذه البلاد الغربيَّة ترفع راية احترام حقوق الإنسان، وحقّه الأصيل في ممارسة شعائر دينه كاملة، في كُلِّ خطاب «حتَّى يظنّ المرء أنَّ الغرب أصبح يُطبِّق فعلًا مبدأ التَّسامح الذي دعا إليه الملك فريدريك الثَّاني ملك بروسيا: (ليمارس كُلُّ امرئ دينه وفق طريقته)؛ ولكن تتَغيَّر الصُّورة تمامًا عندما يكون الأمر مرتبطًا بالإسلام، وفي الحال يتضاءل هامش التَّسامح، إن لم يختف تمامًا، فاللحية التي تدلّ على التَّقدميَّة عند جيفارا تكون دليل رَجعيَّة عند المسلم، أمَّا غطاء الرَّأس الذي تتحلَّى به العذراء في الأيقونات وفي صورها، ويثير مشاعر إيجابيَّة، فإنَّه يتحَوَّل إلى شيء سلبيٍّ تمامًا إذا ما ارتدته مسلمة، أمَّا نحر الذَّبائح وفق الشَّريعة الإسلاميَّة فهو مخالف تمامًا لما تنصّ عليه قوانين حماية الحيوان»[١٤٢].

هذا بخلاف التَّصريحات المسيئة للإسلام بعد كلّ عمليَّة عنف ترتكبها جماعة إسلاميَّة مُسلَّحة، يتبارى في إطلاقها سياسيّو الغرب، كلٌّ منهم بحسب حصافته، فبعضهم يُصرِّح، دون اعتبار لمشاعر ما يقرب من ملياري مسلم يعيشون بسلام في مختلف أنحاء العالم، بأنَّ الإسلام دين إرهابيٌّ، ومنهم من يُلمِّح إلى ذلك، مع توجيه سبَّابة اللوم إلى آيات قرآنيَّة تحضّ المسلمين على القتال، وإعداد القوَّة لإرهاب أعداء الله.

إذن: الحرب الصَّليبيَّة لا تزال سجال، مهما أطلق العالم الغَربيُّ

١٤٢- ”الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة“ / مراد هوفمان.

من دعاوى السَّلام والمَحبَّة تجاه العالم الإسلاميّ، والرَّغبة في التَّعايش معه؛ لأنَّ العالم الغَربيَّ اليوم هو ابن العالم الغربيِّ أمس، يحمل أحفاده راية أجداده، ولم يسالم الأجداد الغربيُّون الصَّليبيُّون، أو يُحبُّوا، إسلامًا فاعلًا حضاراتًّيا، ولا تسامحوا مع مسلمين يطمحون إلى نوال حَقِّهم في ريادة العالم، وقد بذل أولئك الأجداد جهودًا خارقة مَكَّنتهم بالأخير من تقسيم الخريطة الجُغرافيَّة الإسلاميَّة، وتقزيم دولته العظمى، وتفصيصها إلى ممالك وجمهوريَّات ودول ضعيفة، تتناثر حول الخليج الفارسيّ (العربيّ)، وحتَّى المحيط الأطلنطيّ؛ هذا التَّفتيت الذي هو نتاج طَبيعيٌّ لأيّ استعمار، والذي أشار إليه رودجر أوين قائلًا: «يلاحظ جان فرنسوا بايار بشأن الوضع الأفريقيِّ بأنَّ الاستعمار عادة ما يُخلِّف وراءه ليس مشاكل اقتصاديَّة واجتماعيَّة ضخمة فحسب، بل مصادر مُتعدِّدة للسُّلطة، ومجموعة كبيرة من السِّياسيِّين الطَّموحين المُتعطِّشين إلى السُّلطة، الذين يمتلكون علاقات مع الجيش ومع القبائل، وفي بعض الحالات مع السَّفارات الأجنبيَّة النَّافذة في بلادهم».[١٤٣]

أما التَّبشيري الصَّليبي صمويل زويمر، وهو من عائلة فرنسيَّة هاجرت إلى هولندا قبل استقرارها في أمريكا، فيقول في كتابه «الطُّفولة في العالم الإسلاميِّ»، الذي صدر عام ١٩١٥ الميلاديّ، بعد الاحتلال الإنجليزيّ للعراق والإيطاليّ لليبيا: «لقد فقد الإسلام قوَّته في كُلِّ مكان. وبينما كانت غيرة الحُكَّام المسلمين في السَّابق تمنع جهود التَّبشير بين المسلمين، أو تعرقلها، فإنَّ سيف الإسلام الآن قد انكسر، وذَلَّت قلوب المسلمين وخضعت

١٤٣- "أزمة الهويَّات" / كلود دوبار.

في كُلِّ الأرجاء بسبب الكوارث التي قام بها هؤلاء الحُكَّام. ولا ريب أنَّ وقوع البلدان الإسلاميَّة تحت الحكم الأوروبيّ، بما يعنيه من استقرار الإدارة والتَّعليم، يعني حتميَّة انهيار المعارضة الإسلاميَّة. وقد عقد ممثِّلو الجمعيَّات التَّبشيريَّة مؤتمرًا لهم في القاهرة، منذ وقت قريب، أكَّدوا فيه أنَّ العناية الإلهيَّة فتحت الأبواب أمام تنصير المسلمين».[١٤٤]

ولنقرأ بتمعُّن أيضًا، في بعض ما جاء بالتَّقرير الختاميّ لمؤتمر الاستعمار الألمانيّ الذي انعقد سنة ١٩١٠ ميلاديَّة: «والمؤتمر الاستعماريّ ـ مع اعترافه بضرورة المحافظة على خُطَّة الحياد تمامًا مع الشّؤون الدِّينيَّة ـ يشير على الذين في أيديهم زمام المُستعمَرات أن يقاوموا كلَّ عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام، وأن يزيلوا العراقيل من طريق انتشار النَّصرانيَّة، وأن ينتفعوا من أعمال إرساليَّات التَّبشير التي تبثّ مبادئ المدنيَّة، خصوصًا بخدماتهم التَّهذيبيَّة والطِّبيَّة. ومن رأي المؤتمر أنَّ الخطر الإسلاميَّ يدعو إلى ضرورة انتباه المَسيحيَّة الألمانيَّة لاتِّخاذ التَّدابير من غير تسويف في كلِّ الأرجاء التي لم يصل الإسلام إليها بعد»[١٤٥].

فإذا كان الإفساد هو مسلك الاستعمار العاديّ، فكيف بإفساد يقوم به استعمار تُحرِّكه دوافع دينيَّة صَليبيَّة مُعبَّأة بالرغبة في الثَّأر والانتقام؟ لا بُدَّ وأن يكون استعمارًا طويلَ الأجل، خبيث الطَّويَّة، والذي يُعدُّ الاحتلال الإسرائيليّ الصُّهيونيّ اليهوديّ لأرض فلسطين العربيَّة المسلمة أحد أوضح وجوهه البغيضة، فاللورد

١٤٤- كتاب «رحلتي من الكفر إلى الإيمان .. قصَّة إسلام مريم جميلة» / محمد يحيى.
١٤٥- "شنّ الغارة على العالم الإسلاميّ" / لو شاتليه.

الإنجليزيّ آرثر بلفور، صاحب الوعد الشّهير لليهود بمنحهم فلسطين وطنًا لهم، هو بنفسه أحد ركائز التَّبشيريَّة الصَّليبيَّة، وذلك بحسب ما جاء في كتاب «الغارة على العالم الإسلاميّ»، للمستشرق التَّبشيري شاتليه، الذي نقل بدوره عن مقالة في مجلة «إرساليَّات التَّبشير البروتستانيَّة» بقلم تبشيريٍّ آخر اسمه شلاتار إشارته إلى: «أهميَّة اللجنة السَّابعة التي كان اللورد بلفور، وزير اسكتلندة السَّابق، وهو الآن عضو في المجلس الأعلى، ورئيس شرف لها»[١٤٦]. وورد في تقارير ذلك المؤتمر التَّبشيريّ أنَّ: «لمَّا انتهت اللجنة من أعمالها قال اللورد بلفور رئيس الشَّرف: إنَّ المُبشِّرين هم ساعد لكُلِّ الحكومات في أمور مهمة، ولولاها لتعذَّر عليها أن تقاوم كثيرًا من العقبات، وعلى هذا فنحن في حاجة إلى لجنة دائمة يُناط بها التَّوسُّط والعمل لما فيه مصلحة المُبشِّرين»[١٤٧].

ولم يكن اللورد بلفور هو السِّياسيَّ الغربيّ الوحيد الذي اهتمّ بالتَّبشير درجة أن يكون عضوًا تنظيميًّا في مؤتمرات التَّبشير، بل إنَّ رئيسًا أمريكيًّا أسبق، هو تيودور روزفلت، شارك بلفور الاهتمام نفسه، وكان رفيقه بالمؤتمر نفسه المذكور أعلاه، حيث جاء في مجلة «الشَّرق المسيحيّ»، وكانت تصدر عن جمعيَّة التَّبشير الشَّرقيَّة الألمانيَّة، بمقالة عنوانها: «دخول التَّبشير العامّ في طور جديد»، بقلم فون لبسيوس، كتب: «ومن مندوبي التَّبشير الأمريكيِّين المستر روزفلت، رئيس جمهوريَّة الولايات المُتَّحدة السَّابق، لكنَّه أرسل رسالة اعتذار عن عدم تمكُّنه من

---

١٤٦- "شنّ الغارة على العالم الإسلاميّ" / لو شاتليه.

١٤٧- المصدر السَّابق.

الحضور»[١٤٨].

أمَّا جيمي كارتر، وهو أيضًا رئيس سابق للولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة، فكتب في مذكِّراته تفاصيل أحد أيَّام رئاسته الأولى، منها: «بعد مدرسة الأحد والكنيسة، تحدَّثت مع الرَّئيس ماريون جي رومني، من الكنيسة المورمونيَّة، في مدينة سولت ليك، ثُمَّ التقيت بالمُدرِّس الدَّائم في مدرسة الأحد، فريد جريج، لاستكشاف إمكانيَّة بذل جهد أكبر في مُهمَّة العمل التَّطوُّعي لكنيستنا؛ إنَّ إجمالي المجهود التَّبشيريّ للطَّوائف البروتستانتيَّة مُكوَّن من حوالي خمسة وعشرين ألف شخص، وتقوم الكنيسة المورمونيَّة وحدها، وبالمجهود قصير المدى لمُتطوِّعيها، بتوظيف نحو ستَّة وعشرين ألفًا. كنت أودُّ أن أرى الكنيسة المعمدانيَّة تتبنَّى مشروعًا كبيرًا كهذا، إذا كنَّا نستطيع القيام به»[١٤٩].

ومؤكَّد أنَّ ممارسي التَّبشير من السَّاسة الغربيِّين المؤثِّرين في السِّياسة العالميَّة، من القدامى والمُحدَثين، أكثر عددًا من التَّصوُّر، يلوذون بالسِّرِّيَّة، يُظهِرون العَلمانيَّة، ويُبطنون الصَّليبيَّة.

على ما سبق لن يسمح أحفاد الصَّليبيِّين بفقد الثَّمرة التي حصدها أجدادهم بشقِّ الأنفس، ولن يتسامحوا بإزاء أيّ مشروع ينفخ في الشِّقِّ السِّياسيّ من الإسلام قبلة حياة تنتشله من مواته، لكن ـ وربما لاستكمال الدِّيكور الإنسانيِّ للحضارة الغربيَّة المعاصرة ـ قد يفعلون ذلك برحابة صدر إزاء الشِّقِّ الأخلاقي التَّقليديِّ من الإسلام. وقد كتب رئيس أمريكيٌّ آخر، بيل كلينتون، في مذكراته

---

١٤٨- «شنّ الغارة على العالم الإسلاميّ» / لو شاتليه.

١٤٩- "جيمي كارتر. مذكِّرات البيت الأبيض" / ترجمة سناء شوقي حرب.

المُعنونة بـ«حياتي»، ما يؤكِّد رؤيتنا للأمر، عندما قال: «كنت أوَّل رئيس أمريكيٍّ يخاطب البرلمان الأردنيَّ في عَمَّان، وكانت الكلمات الأكثر تقَبُّلًا هي تلك التي وَجَّهتها إلى العالم العربيِّ حين قلت: إنَّ أمريكا ترفض أنَّ حضارتَينا مكتوب لهما أن تتصادما، إنَّنا نحترم الإسلام، القيم التَّقليديَّة في الإسلام، التَّفاني من أجل الإيمان، والعمل الطَّيِّب للأسرة والمجتمع، وهي قيم منسجمة مع قيم المجتمع الأمريكيِّ ومُثُله، وعليه، فنحن نعرف أنَّ بوسع شعبَينا وعقيدتَينا وثقافتَينا أن يتعايشا بانسجام ووئام معًا»[١٥٠].

ويمكننا تقدير المُحصِّلة الآنيَّة لما انتهى إليه الواقع الإسلاميُّ بسهولة ويسر إذا تصَوَّرنا أنفسنا ندور في مسار فضائيٍّ قريب، ننظر منه إلى الأرض بالمجمل، ثُمَّ بالتَّحديد إلى جغرافيا بلاد الإسلام؛ حينئذ، ولا شَكّ، سنصاب بالهلع؛ لأنَّنا سنرى الفيروس الإسبانيَّ القديم، الذي تسَبَّب في فناء الأندلس المسلمة، قد انتقل حديثًا إلى الوطن العربيِّ الكبير، الوطن الأمّ للإسلام، وحاضنته الرَّئيسة، ففَتَّته إلى كيانات دُوليَّة صغيرة، يحكمها ملوك ورؤساء أصحاب أنظمة حُكْمٍ هزيلة، يرتكن كُلٌّ منهم إلى قوَّة غربيَّة أو شرقيَّة ـ أوروبيَّة أو أمريكيَّة أو روسيَّة ـ تحمي عرشه، يركنون بثقة عمياء إلى قوى ماكرة، تعرف ما يجب عليها عمله بسبيل التَّخلُّص من إسلام طال أمده على الأرض سَيِّدًا وسيادة، وقد أزف وقت القضاء عليه، ليفقد المسلمون مُحرِّكهم الرُّوحيُّ نحو نهضة جديدة، فيئولوا ـ أخيرًا ونهائيًا ـ إلى المصير المرسوم لهم: سوق استهلاكيَّة كبيرة، يبيع فيها الغرب منتجاته مُتنوِّعة الأصناف، والأهداف.

---

١٥٠- "الحُكَّام العرب..." / مجدي كامل.

إذن: قد يكون الوطن العَربيُّ الآن في الطَّور الأندلسيِّ الأخير، تشَعَّع دولًا وإمارات وممالك شَتَّى، يحكمها ملوك ورؤساء طوائف، مُستعدُّون للتَّحالف مع الشَّيطان، ولو أمرهم بتبديل هُويَّاتهم وتغيير دينهم، إذا كان هذا سبيل احتفاظهم بعروشهم الخاوية على عروشها، المنخورة بالسُّوس، لا حول لها ولا قوَّة.

ولو أنَّهم - الحُكَّام العرب- قرأوا التَّاريخ، وفهموه، لأدركوا أنَّ حماتهم الغربيِّين، ليس غيرهم، من يؤلِّب بعضهم على بعض، لغاية أوضح من قرص الشَّمس في سماء صافية: القضاء عليهم بقواهم، قبل أن يقضوا على من تبقَّى منهم قضاءً مبرمًا، بأقلِّ مجهود وكلفة. وحتَّى لو لم يقرؤوا التَّاريخ، وقرؤوا فقط واقعهم المعاش لاعتبروا من نهايات رفقاء لهم، كانوا حُكَّامًا لطالما تنَكَّروا لقضايا أُممهم وعقائدها، ولطموحات شعوبهم، رغبةً في الاستحواذ على رضا حُماتهم وثقتهم، مع ذلك سرعان ما تخَلَّى عنهم هؤلاء، لينتهي بهم استبدادهم وطغيانهم إلى نهايات دراميَّة أغرب من الخيال، حتَّى إنَّ أحدهم، قذَّافي ليبيا، فَرَّ من شعبه إلى ماسورة مجاري، وآخر، صالح اليمن، قُتِل، وجُمِع جثمانه في جوال؛ لينقل إلى مثواه الأخير في صندوق عربة مُخصَّصة لنقل البهائم، وصدَّام العراق يُعدَم في صباح أحد أعياد الأضحى في رمزيَّة مهينة، وبعد قصَّة إذلال طويلة فقد في حبكتها عرشه وأولاده وكلَّ أهله، وزين عابدين تونس يُنفَى مقهورًا إلى صحاري نجد، ومبارك مصر يُحاكَم ويُسجَن مع ولدَيه، قبل أن يموت شريد نظامه، وبشير السُّودان يُقبَض عليه، ويزجّ به في الحبس، وجميع هؤلاء كانوا حُكَّامًا ديكتاتوريِّين، يسوسون شعوبهم بالحديد والنَّار، لم يظنّ أحدُهم، لوهلة خاطفة، أنَّ استبداده سينتهي به إلى مثل هذا المصير الدَّراماتيكيّ.

ويشير مجدي كامل ـ صحافيٌّ مِصريٌّ ـ إلى الكيفيَّات التي يؤدِّي بها السَّاسة الغربيُّون عملهم الفاسد في جسم الوطن العربيِّ، فضلًا عن جسم الوطن الإسلاميّ، فيقول: «مُذكِّرات إيزنهاور ـ أحد رؤساء أمريكا التَّاريخيِّين ـ التي رتَّبها وجمعها وعَلَّق عليها الصَّحافيُّ الأمريكيُّ المعروف ستيفن أمبروز، توضِّح لنا تداعيات الثَّورة المِصريَّة وخارطة الشَّرق الأوسط كما تراها واشنطن في الخمسينيَّات. كما تكشف هذه المُذكِّرات أسرار المناورات السِّياسيَّة الكبرى التي أطاحت بكثير من الأنظمة والرّؤوس، وغَيَّرت المعادلات، وقلبت التَّحالفات، وأعطت لعصرنا الرَّاهن طابعه المُتميِّز خاصَّة بالانشقاقات العربيَّة والإسلاميَّة، وهشاشة تَوجُّهات الأنظمة في الشَّرق الأوسط في الخمسينيَّات، وتغلغل التَّدخُّلات الأجنبيَّة في قلب الأمَّة العربيَّة».[١٥١]

إذن؛ يواجه المسلمون ـ حُكَّامًا وشعوبًا ـ مستقبلًا إذا نظروا إليه بمنظور الحاضر لن يرَوه مُشرقًا، أو مُضيئًا، أو مُتفائلًا، بل خابيًا مظلمًا متشائمًا، ما يُمثِّل لكُلّ مسلم يقظ الضمير حيّ الإحساس أزمة كبرى، أقلُّ ما تُوصَف به أنَّها أزمة وجود، فمثلها تسَبَّب من قبل بإبادة دولة الإسلام في إسبانيا، وفي بعض مناحي آسيا، قبل أن تستشري لتُمزِّق الوطن العَربيَّ إلى أشلاءٍ وأوصال، كان الإسلام قد وَحَّدها قديمًا لتكون أعضاءً في خدمة جسم إسلاميٍّ واحد، فإذا بها تتحَوَّل إلى أعضاء ينهش بعضُها بعضًا في جسد إسلاميٍّ واهن.

وإذا كان الإسلام قد بدأ قويًّا، بحكومة يرأسها مُحمَّد ﷺ، فلا

١٥١- "الحُكَّام العرب...." / مجدي كامل.

يمكن إنكار دور الحاكم المسلم في خُطط الإثمار الخاصَّة بالإسلام في الألفيَّة الثَّالثة، هذا السُّلطان الذي نظر إليه الإسلام نظرة تُعلي من شأنه لدرجة قيل معها إنَّ الله يزع بالسُّلطان ما لا يزع بالقرآن؛ أي يضبط من الأمور بالسُّلطان ما لا يضبطه القرآن[١٥٢].

١٥٢- تعدَّدت الأقوال في هذا المأثور، فمنهم من قال إنَّه حديث شريف، ومنهم من نسبه إلى عمر بن الخطَّاب، ومنهم من نسبه إلى عثمان بن عفان.

# الفصل السَّادس

السُّلطة ودورها في صناعة الحضارة. شخصيَّة الحاكم. نظرة المواطن المسلم لمن يحكمه. دور الجاهليَّة القديمة في صناعة الحاكم المسلم. الأسس الدِّينيَّة لتشبُّث الحاكم المسلم بالحكم. الحاكم المسلم المعاصر بين الملكيَّة والجمهوريَّة. الحاكم المسلم المعاصر بين العقيدة والوطنيَّة. فساد الحاكم المسلم الجُمهُلَكيّ. الإسلام يضع الحاكم في درجة سامية. الحاكم المسلم ودوره تجاه المؤسَّسات المُوحِّدة للمسلمين.

مع إيماننا العميق بأنَّ السُّلطة الحاكمة تُعيق الحُريَّة الخاصَّة للأفراد إلَّا أنَّه يستحيل قيام الحضارة بدونها. والسُّلطة الحاكمة هي القوَّة التي يمكن بواسطتها تقييد الحُرِّيَّات الخاصَّة للأفراد، بنسب مُقدَّرة، من أجل صالح المجموع، هذا التَّقييد الذي يؤدِّي بدوره إلى بناء المجتمعات، والذي ينتهي بالضَّرورة إلى صناعة الحضارات.

وعلى قدر قُوَّة السُّلطة الحاكمة، وكفاءة سياساتها، تكون قوَّة الحضارة النَّاتجة عنها.

وقوَّة السُّلطة الحاكمة تتناسب طرديًّا مع كفاءة سِياساتها، وقد قيل إنَّ «مدار السِّياسة كلّها على العدل والإنصاف، ولا يقوم سلطان لأهل الكفر والإيمان إلَّا بهما، ولا يدور إلَّا عليهما».[١٥٣]

---

١٥٣- "العقد الفريد. كتاب اللؤلؤة في السُّلطان. / ابن عبد ربّه.

وشخص الحاكم هو المُحدِّد الأساسيّ لقُوَّة السُّلطة وكفاءة السِّياسة؛ وعليه فإنَّ مركز الحاكم هو أهمّ وأخطر المراكز القياديَّة في المجتمع، إذ به تُدار كامل الحياة من اقتصاد، وتسليح، وتثقيف، وتعليم، وتصنيع، وقضاء، وخلاف ذلك، من مستلزمات قيام الحضارة.

والعرب ترى الحاكم «زمام الأمور، ونظام الحقوق، وقِوام الحدود، والقطب الذي عليه مدار الدِّين والدُّنيا»[١٥٤]، ثُمَّ يُصعِّدون من نظرتهم إليه حتَّى يرونه «حمى الله في بلاده، وظِلّه الممدود على عباده».[١٥٥]

لكن تلك النَّظرة المُشربة بالقداسة للحاكم لم تكن هي نفسها نظرة مسلمي الكيان الأوَّل للحاكم، والَّذي كان هو النَّبيُّ ﷺ نفسه، ولا كانت نظرة مسلمي العقود الثَّلاثة الأوَل من الكيان الثَّاني، وكان حُكَّامهم الخلفاء الرَّاشدون، وإنَّما رأوه عاملًا يُحسن ويسيء، فإذا أحسن وجبت طاعته عليهم، وإلَّا فإنَّهم قادرون على زجره، حتَّى إنَّ أحدهم لم يرعوِ عن الهتاف غضبًا في وجه النَّبيِّ ﷺ، عندما ظَنَّ أنَّه لم يُسوِّ في قسمة أموال الغنائم، قائلًا له: «اعدل يا مُحمَّد، فإنَّك لم تعدل»[١٥٦]. وآخرون هتفوا بعمر بن الخطَّاب في ساحة المسجد، بعد مبايعته بالخلافة، يحذِّرونه من أنَّهم قادرين على تقويمه بسيوفهم إذا اعوجَّ حكمه فيهم.

وكان الحاكم، في تلك الأربعة العقود الأولى من تاريخ الإسلام،

---

١٥٤- "العقد الفريد. كتاب اللؤلؤة في السُّلطان. / ابن عبد ربّه.

١٥٥- المصدر السَّابق.

١٥٦- في حديث صحيح رواه جابر بن عبدالله، وأخرجه ابن ماجه.

يتحرَّى النُّصح والعظة، بل ويطلب من شعبه في خطبة تنصيبه حاكمًا أن يطيعوه إذا أطاع الله، فإذا لم يفعل، فلا طاعة له عليهم، ولهم خلعه.[157]

ثُمَّ مع تقدُّم مسلمي الكيان الثَّاني في الفتوحات الإسلاميَّة الواسعة بدأت تنحدر تلك العلاقة العزيزة بين الشَّعب المسلم وحاكمه الذي يستَنَّ بنهج النُّبوَّة؛ ليتبدَّل الحكم من خلافة نبويَّة إلى ملك عضود.

«وقد سأل عمرُ بن الخطَّاب سلمانَ الفارسيَّ عن الفرق بين الخليفة والمَلِك، فقال سلمان: إن أنت جبَيت من أرض المسلمين درهمًا، أو أقلّ، أو أكثر، ثُمَّ وضعته في غير حَقِّه فأنت مَلِك، وأمَّا الخليفة فهو الذي يعدل في الرَّعيَّة، ويقسم بينهم بالسَّويَّة، ويشفق عليهم شفقة الرَّجل على أهل بيته، والوالد على ولده، ويقضي بينهم بكتاب الله»[158]. كما أكد له آخر على أنَّ: «الخليفة لا يأخذ إلاَّ حقًّا، ولا يضعه إلَّا في حقٍّ، وأنت (يقصد عمر) بحمد الله كذلك، والمَلِك يعسف النَّاس، فيأخذ من هذا ويعطي هذا»[159]. وعليه نهر عمرُ أحد أصهاره، عندما طلب منحه شيئًا من بيت مال المسلمين، قائلًا: «أردتَ أن ألقى الله مَلِكًا خائنًا؟»[160].

ثُمَّ كان أن تخلَّي العربيُّ البدويُّ عن طبيعته الصَّحراويَّة الحُرَّة لصالح الطَّبيعة المُتحضِّرة (المُقيَّدة بالضَّرورة) للبلدان والممالك التي فتحوها وهيمنوا عليها، وانبهر الحاكم المسلم بمظاهر حكم

١٥٧- انظر خطبة أبي أبكر الصدِّيق يوم مبايعته بالخلافة.
١٥٨- من رواية مردان عن سلمان الفارسيّ / أخرجه ابن سعد.
١٥٩- من رواية ابن أبي العرجاء / أخرجه بن سعد.
١٦٠- "جامع الأحاديث" / الإمام السُّيوطّي.

القياصرة الرُّوم، وأُشرِب من فلسفة الحكم لدى الأكاسرة الفرس؛ الذين كان لفلسفتهم بعد أثرها «في سياسة الحُكَّام المسلمين، فالمأثورات الفارسيَّة تذكر أنَّه: إذا كان الوزير يساوي المَلِك في الهيبة والمال والطَّاعة بين النَّاس فليصرعه الملك، وإن لم يفعل، فليعلم أنَّه المصروع؛.. وعاد من جديد مفهوم: من لا يظلم النَّاس يُظلَم.. والخليفة العاجز هو الذي لا يستطيع أن يستَبدّ»[١٦١].

لكنَّ سببًا ثالثًا، غير تغَيُّر طبيعة الحاكم والمحكوم العربيَّين، أدَّى إلى ذلك، يلوح بقوَّة في أفق الأسباب، وهو: نعرة الجاهليَّة الأولى؛ جاهليَّة ما قبل الإسلام، تلك التي لم يتخلَّص منها العرب تمامًا بعد إسلامهم، والتي نرى أنَّها ظلَّت بالقوَّة واليفوع الكافيين للدفع بالحاكم المسلم القديم (أمير المؤمنين) إلى الحرص على الاستئثار بالحكم حتَّى النِّهاية، بصفته سربالًا (قميصًا) سربله الله جَلَّجَلَالُهُ إيَّاه[١٦٢]، فلا يحقّ لغير الله جَلَّجَلَالُهُ نزعه عنه، ثُمَّ لا يلبث يُفكِّر في توريث الأمر (الحكم) إلى أحد أبنائه من بعده، ويلتمس جميع الأسباب لتحقيق ذلك قبل موته.

وكان معاوية بن أبي سفيان أوَّل من تبهرج، في مظاهر حكمه، بالبهرجة الرُّوميَّة؛ ورغم المشهور من شدَّة أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب تجاه عمَّاله على الولايات إذا توسَّعوا في معيشتهم، ودوام مطالبته لهم بالتَّقشُّف، وتخوُّفه على الخلافة من المُلك، فإنَّه قبل من معاوية ـ وكان عامله على الشَّام ـ مبرِّرات بهرجته، ورأها مقنعة بدوره!

١٦١- "تاريخ الحكم في الإسلام" / محمود عكّاشة.

١٦٢- انظر صفة مصرع الخليفة الثَّالث عثمان بن عفَّان في «البداية والنَّهاية» / ابن كثير.

ثُمَّ كان أن كلَّما استبدَّ الحاكم المسلم (المُسربَل من لدن الله بالخلافة)، وظهر منه الجور بأكثر من ظهور العدل، والحيف بأكثر من الإنصاف، ظهرت أحاديث نبويَّة عديدة تصبّ في مصلحة تمييز هذا الحاكم واستقراره وترقيته، منها ما يصفه بأنَّه ظلّ الله على الأرض[١٦٣]، ومنها ما يحضَّ المسلمين على طاعته، وعدم الخروج عليه، مهما ظلم وتجبَّر، وضرب محكوميه، وأخذ أموالهم[١٦٤]، ما انبنى على ظهور هذه الأحاديث أن بدأ المسلم في النَّظر إلى حاكمه بشكل عكسيّ، وبتدريج سريع اختفى من منظوره الحاكم الذي يخدم الشَّعب، والذي إذا أساء يمكن الاعتراض عليه، وتقويمه بالسَّيف إذا لزم الأمر، وظهر الحاكم السُّلطان المُتمتِّع بالقداسة العلويَّة المُكتسبة من كونه ظِلّ الله على الأرض؛ وإذا كان الله لا يُسأل عمَّا يفعل، فمن المؤكَّد أنَّ ظِلَّ الله لا يُسأل أيضًا، ولا يُمسّ، ولا يُراجَع، مهما جار وظلم واستبدّ، فقضاء الله لا يُردّ، وكذلك قضاء ظِلّ الله.

وكان زياد بن أبيه من هؤلاء الحُكَّام المسلمين القدامى الذين غمروا أنفسهم في الظِلِّ الإلهيّ الحاكم غمرًا مُستَغرقًا، حتَّى إنَّه خطب في محكوميه، من أهل العراق، قائلًا: «أيُّها النَّاس، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونزود عنكم بفيء الله الذي خوَّلنا»[١٦٥].

وفي أهل العراق أنفسهم، وبعد ١٤٠٠ سنة تقريبًا من خطبة زيادة بن أبيه فيهم، «كانت من المفردات الجديدة للثَّناء على صدَّام

١٦٣- حديث «السُّلطان ظلُّ الله في الأرض» / أخرجه البيهقي وآخرون.
١٦٤- في حديث من مرويَّات حذيفة بن اليمان / أخرجه البخاريُّ
١٦٥- انظر الخطبة البتراء في «الكامل في التَّاريخ» / ابن الأثير.

حسين أنَّه يأتي بعد الله مباشرة»[١٦٦].

هذا التَّوحُّد، بين الحاكم والإله، يكون نتيجته تعاظم ذات الحاكم تعاظمًا مُنفلتًا، ليتنامى عنده «الإحساس بالحضور في كُلِّ الأمكنة، وأنَّ كلَّ شيء ينبع منه، وأنَّ كلَّ شيء يتحَدَّث عنه»[١٦٧]. وهو المسلك الذي لا بُدَّ يواكبه المزيد والمزيد من استبداد وديكتاتوريَّة الحاكم، مع الانتقاص المستمرّ لحقوق المحكوم؛ لينتهي إلى نتيجة لا تتبدَّل مهما تبدَّلت الأمم والحضارات: ذبول الدَّولة واضمحلالها؛ لتصبح فريسة سهلة لأيّ مغامر، علا قدره أو سَفُل؛ إذ سلطة الحاكم الأوحد عادة ما تكون «شديدة الهشاشة، ومُزعزَعة، بسبب وجودها في يدي فرد واحد. إنَّ سلطة كهذه تعدُّ خطرًا على مصلحة الأمَّة؛ لأنَّها تُنمِّي الكبرياء والاستخفاف في نفس صاحبها، وتُنمِّي الخضوع والذُّلّ في نفوس الآخرين. تتعرَّض هذه السُّلطة، بسهولة، للتَّشوُّش بالمعنى الحقيقيّ للكلمة؛ لأنَّها لا تحاكي السَّعي وراء الواقع الحقيقيّ، أو التَّقويم المُتأنِّي والمناقشة.... إنَّها تقود الدَّولة، وهي رفيقتها الحميمة، إلى عالم الفوضى»[١٦٨].

وهذا الرَّبط بين سلطة الحُكَّام وسلطان الله، باعتبار الحاكم ظِلًّا لله على الأرض، لم تبتكره الأحاديث النَّبويَّة سالفة الذِّكر، سواء الصَّحيح منها أو الموضوع، بل المؤكَّد أنَّ تلك الأحاديث كانت آخر حلقة من حلقات توثيق هذا الرَّبط المُشبع برائحة القداسة.

فقديمًا جِدًّا، قبل مُحمَّد ﷺ بأكثر من ألفي عام، في أيَّام النَّبيّ

---

١٦٦- "الحكَّام العرب. مراحل الصُّعود والهبوط" / رودجر أوين.

١٦٧- المصدر السَّابق.

١٦٨- المصدر السَّابق.

إبراهيم، عليه السَّلام، «نرى سكَّان قرى فلسطين، ومدنها، كانوا قد لقَّبوا أنفسهم بلقب ملك، مع أنَّهم لم يكونوا إلَّا رؤساء قرى أو مدن، وقد كان أكثرهم كهنة في الأصل، أي حُكَّامًا حكموا رعيَّتهم باسم الآلهة، فكان لهم الحكم في الدِّين، وفي تدبير أمور الرَّعيَّة من النَّاحية الدُّنيويَّة، ثُمَّ عافوا هذا المركز وتركوا المعبد، وخصَّصوا أنفسهم بالنَّظر في الأمور الدُّنيويَّة»[١٦٩]. كما «تُفيد النُّصوص أنَّ الذين حكموا الممالك العربيَّة الجنوبيَّة في أوَّل أيَّامها كانوا يُلقَّبون بلقب مكرب. وأنَّ مكرب يعني المُقرَّب إلى الآلهة كان ملكًا وكاهنًا في آن واحد، أي يجمع بين أمور الدِّين والدُّنيا، وهو ما يُعرَف بالسُّلطة الدِّينيَّة والسُّلطة الزَّمنيَّة.. وهو نظام ثيوقراطيٌّ في الحكم، فالحاكم هو النَّاطق باسم الآلهة، والقائم بإدارة المعابد، ومن ثَمَّ فطاعته واجبة ومُقدَّسة، وعصيانه عصيانًا للآلهة»[١٧٠].

وفي أزمنة أقدم من أزمنة ملوك اليمن المُقدَّسين كان الفراعنة والآشوريُّون، آلهةً ملوكًا، فضلًا عن أن يكونوا ملوكًا آلهةً، وكانت علاقتهم وثيقة جدًّا بالمعابد وكهنتها، وربَّما حكموا المصريِّين من خلالها بأقوى ممَّا حكموها من قصورهم وعواصم ملكهم. لكنَّنا لن نفصِّل بالمزيد في تناول غير العرب، إذ في العرب، دون غيرهم، أشرقت شمس الإسلام.

وكان رودجر أوين، الأمريكي ذو الأصل البريطانيّ، والمعروف باعتباره أحدَ أهمّ المؤرِّخين المُتخصِّصين في دراسة الشَّرق الأوسط المعاصر، قد كتب كتابًا بعنوان «الحُكَّام العرب ـ مراحل الصُّعود والهبوط» يحاول فيه الوصول إلى الأسباب التي جعلت

١٦٩- "تاريخ الحكم في الإسلام" / محمود عكّاشة.
١٧٠- المصدر السَّابق.

الحاكم العربيّ رئيسًا مَلكًا، أي يحكم مدى الحياة، ويعمل على توريث الحكم لأحد أبنائه، رغم أنَّه يحكم في ظلِّ دستور جُمهوريٍّ لا يسمح بالحكم الأبديِّ، ولا بالتَّوريث ـ مع ملاحظة أنَّ الدَّساتير، من النَّاحية التَّاريخيَّة، هي «جزء لا يتجزَّأ من النَّموذج الجمهوريّ، كما أنَّ حضورها المهيب كان يُنظَر إليه على أنَّه ضروريٌّ للحد من سلوكيَّات المَلِك الاعتباطيّ ذي النَّزوات ـ لكن أشار دانيال برومبيرج (أستاذ مساعد للعلوم السياسيَّة في إحدى الجامعات الأمريكيَّة) إلى أنَّه: تُكتَب الدَّساتير في العالم العربيّ من أجل التَّثبُّت من أنَّ الرَّئيس، أو الملك، يمتلك السُّلطة العليا»[١٧١].

وقد عزا رودجر تَمسُّك الحاكم العربيّ بالمنصب مدى الحياة، مع الحرص على توريثه، إلى الاستعمار السَّابق ـ وقد كان الوطن العَربيُّ احتُلَّ بالكامل من قِبل الدُّول الأوروبيَّة الكبرى بعد زوال الخلافة العثمانيَّة ـ وإلى تخوُّفات هؤلاء الحكَّام من القلاقل والانقلابات التي سرعان ما تُودي بأنظمتهم. والسَّببان لهما وجاهتهما، غير أنَّهما ليسا الوحيدين، ولا الأصيلين؛ فحين استبدَّ الخليفة عثمان بن عفان جُزئيًا، بتعيين أقربائه عُمَّالًا على الولايات الإسلاميَّة، لم يفعل ذلك نتيجة استعمار سبقه، ولا كان حكمه مُعرَّضًا للقلاقل والانقلابات؛ وكذلك حينما استبدّ معاوية بالأمر، واستكانت الدَّولة الإسلاميَّة بكاملها إلى حكمه، بعد مقتل منافسه عليٍّ بن أبي طالب، لم يكن سبقه استعمارٌ كذلك؛ بل إنَّ جميع الخلفاء الأمويِّين والعبَّاسيِّين الأقوياء استبدُّوا بالحكم دون سابقة استعمار لأيٍّ من ممالكهم، أو تهديد كبير حقيقيٍّ لحكمهم، إلَّا فيما

١٧١- "الحكّام العرب. رحلة الصُّعود والهبوط" / رودجر أوين.

ندر. ما يعني أنَّ سياسة الاستبداد عندهم كانت ناجمة عن قناعة شخصيَّة لدى الحاكم، لم تفرضها عليه عوامل خارجيَّة مؤثِّرة.

وعليه، فإنَّ الباحث في الدَّوافع التي تجعل الحاكم العربيّ مُستبدًّا، مع دخول العالم في الألفيَّة الثَّالثة، ورفض الأمم المُتحضِّرة، رؤساءً ومرؤوسين، لجميع أشكال الدِّيكتاتوريَّة، لن يتمكَّن من الوصول إلى أيِّ نتيجة صحيحة دون النَّظر في جذور الحكم العربيّ، من أيِّ مشارب تستقي، وفي أيِّ تربة تمتدّ.

ولا أحسب تلك الجذور الضَّاربة عميقًا تستقي من غير المشرب الدِّينيّ، ولا تمتدّ في غير التُّربة القَبليَّة.

وأمَّا المشرب الدِّينيّ فقد وضَّحناه باختصار قبل سطور؛ عندما أشرنا إلى أنَّ الحاكم قديمًا، غالبًا ما كان هو المُسيِّر للشأن الدِّيني في بلاده الواقعة تحت سيطرته، بل إنَّ مجتمعات كبرى، ذات ثِقل حضاريٍّ وقتها، عبدت حاكمها بصفته الإله كُلِّيّ القدرة، وشيَّدت له المعابد، ونظَّمت لعبادته الطقوس.

ويبدو أنَّ الشُّعوب العربيَّة، حتَّى مع إسلامها، ومن ثَمَّ إيمانها بالله جَلَّجَلَالُهُ ربًّا وإلهًا، فإنَّها تعاني حتَّى الآن تَرسُّبات عبادة الملك القديم، المنظور إليه بصفته إلهًا، فظلَّت تقارب رؤساءها العرب المعاصرين بصفتهم كذلك أيضًا، وإن لم تجهر بعبادتهم، وإذا لم يعدُّ بعضها رئيسه إلهًا فإنَّه يربطه بالإله، عندما يعدُّه مبعوثَ العناية الإلهيَّة إلى وطنه الضَّال، الغارق في الأزمات. بهذا، مثلًا، أصبح الرَّئيس المِصريّ الرَّاحل جمال عبدالنَّاصر «المعبود الذي تتعبَّد في محرابه ملايين من البشر دون تفكير أو تعقُّل، وبدون

صوت مُستقلٍّ ينبعث من بين صفوفهم أصبحوا مجرَّد جموع من الأذرع المُلوِّحة، والأيدي المُصفِّقة، والأفواه المُهلِّلة. إنَّه الزَّعيم من موقعه المُهيمن، يعلو فوقهم من منصَّته، يتحدَّث وحده لساعات طويلة، ولا تقاطعه سوى الهتافات الهيستيريَّة: ناصر، ناصر، ناصر. وكان الحبُّ الجارف يبلغ ذروته عندما كان عبد النَّاصر يمُرّ في عربته الكاديلاك المكشوفة ذات اللون الأحمر، ويقتحم رجالٌ من الفلَّاحين، بجلابيبهم الواسعة، صفوف رجال الشُّرطة بشكل هستيريّ لتسلُّق السَّيَّارة ومعانقة الرَّئيس. ومن هذا الحُبِّ الجارف الصَّادر عن العامَّة تجمَّعت حول ناصر حالة من عبادة الشَّخصيَّة، وغذَّتها أبواق الدِّعاية الخاصَّة به. وفي ذروة ذلك كانت تُعلَّق ألواح من الخشب على أعمدة الإنارة بارتفاع عشرين قدمًا في شوارع القاهرة، مرسومًا عليها عبد النَّاصر، الوسيم الجريء، وهو يُلوِّح لشعبه الذي يعبده، وتعلو خاصرته راية كُتِب عليها: لقد أرسله الله عَونًا لبلدنا»[١٧٢].

أمَّا التُّربة القَبليَّة، فأصل الدَّولة العربيَّة هو: القبيلة. وأصل الحاكم العربيّ هو: شيخها.

والقبيلة هي: «الوطن القَوميّ لأبنائها الذي لا يتجاوز من ينتسبون إليها... ولها مُقوِّمات دعَّمت من شأنها، فجعلت منها رابطة سياسيَّة تشبه الدَّولة، نذكر منها: وحدة النَّسب. وحدة اللسان. وحدة الأرض أو الوطن. وحدة العُرف والعادات والتَّقاليد. وحدة الأهداف والمشاعر. وحدة السُّلطة. وحدة الدِّين»[١٧٣].

---

١٧٢- "الملفَّات السريَّة للحكَّام العرب" / ساندرا مكي.
١٧٣- "تاريخ الحكم في الإسلام" / محمود عكّاشة.

أمَّا رئيس القبيلة، فـ«بمنزلة أب لجميع أبناء القبيلة، وله مهابة في نفوسهم»[١٧٤]. كما كانت الزَّعامة «وراثيَّة في معظمها، بشرط أن ينال الرَّئيس رضا أتباعه، ولم تكن جبريَّة»[١٧٥].

وكان رودجر أوين قد أشار، في كتابه «الحُكَّام العرب»، إلى أنَّ من الخطأ وصف أنظمة الدُّول العربيَّة (المعاصرة) الحاكمة بأنَّها قبليَّة؛ لأنَّ إدارة القبيلة، من منظوره، لا تتطلَّب تلاعبًا مُتواصلًا بتشكيلة التَّجمُّعات والتَّحالفات الدَّاخليَّة كذلك المطلوب في إدارة الدُّول والممالك؛ وأظنُّ أنَّ رودجر قد جانبه الصَّواب، وذلك لأنَّ إدارة القبيلة تتطَّلب نفس النَّوع من السِّياسات المرنة اللعوب إزاء التَّجمُّعات والتَّحالفات الدَّاخليَّة، بل والطَّوارئ الخارجيَّة أيضًا، والتي قد تكون شديدة التَّأثير على إقليم جُغرافيٍّ بأكمله، أو بعدَّة أقاليم؛ فالقبيلة ليست كيانًا صغيرًا، على ما قد يتبادر إلى ذهن رودجر أوين، فيمكن إدارته بسهولة وبساطة، بل إنَّ القبيلة الواحدة مُكوَّنة من عشرات العمائر، العمارة مُكوَّنة من عشرات البطون، والبطن أفخاذ عديدة، الفخذ منها مجموعة عشائر، والعشيرة فصائل مُتعدِّدة، هكذا قد يتعَدَّى شعب القبيلة الواحدة مئات الآلاف عددًا، فإذا أُسيئت سياسة رئيسها قد تنشب الحروب بين بطون القبيلة الواحدة، أوبين أفخاذ البطن الواحد من القبيلة.

ولعظمة موقع بعض رؤساء القبائل الكبرى وُصِفوا، وعوملوا، بصفتهم ملوكًا.

---

١٧٤- "تاريخ الحكم في الإسلام" / محمود عكّاشة.

١٧٥- المصدر السَّابق.

على هاتين الرَّكيزتين: الدِّين والقبليَّة، المُلبَّستين بجاهليَّة ما قبل الإسلام، يعتمد الحكَّام العرب، ممَّن تولَّوا حكم الدُّول العربيَّة بعد تخلُّصها من الاحتلال الأجنبيّ، في إدارتهم لسلطة الحكم، ولشؤون الدَّولة.

فالحاكم العربيّ ـ الجُمهوريّ تحديدًا ـ سرعان ما يتنكَّر لجوهر الجُمهوريَّة، والتي هي بطبيعتها حكم الجماهير من خلال مؤسَّسات شعبيَّة مُعبِّرة عنه، وبدستور ينحاز لصالح الشَّعب، فيُحدِّد للحاكم مُدَّة حكم مُقدَّرة، يكون معها منصب رئيس الدَّولة ذي طبيعة وَظيفيَّة عاديَّة مهما كان منصبًا راقيًا، فإذا بهذا الحاكم يعمل، بمعرفة بطانته، على العبث في الدُّستور، وتحديدًا في المادَّة المُقيِّدة لفترة حكمه، مُتلاعبًا بها، ليُحوِّلها بشكل ماكر إلى مادَّة تسمح له بحكم البلاد دون نهاية معلومة، وليتحَوَّل بذلك إلى مَلِك مُقنَّع بزيٍّ رئاسيٍّ.

وإذا ما تحوَّل الرَّئيس الظَّاهريّ إلى ملك باطنيٍّ، فهو بذلك يُقارب نظام حكم القبيلة، إذ المَلِك وزعيم القبيلة وجهان لعملة حكم واحدة، وصورتان لحكم عائليٍّ مُمتدّ، يمكن توريثه، ولا ينتهي بانتهاء مُدَّة ينصّ عليها الدُّستور، وإنَّما بغلبة آخر ربما كان طَريدًا لظرف سياسيٍّ ما، أو وريثًا مُستبعدًا لملك سابق، أو بانقلاب أحد العَسكريِّين الطَّموحين.

وما يُؤكِّد على أنَّ مشارب الحكم الرِّئاسيّ العربيّ في عمومها قَبليَّة، فإنَّنا نُورد، على سبيل المثال، ما أبرزه مُحلِّلو إحدى الصُّحف المُتطرِّقة للعمل الإفريقيّ، وذلك في العام ١٩٦١ الميلاديّ، عندما تناولت صورة الرَّئيس الملك، فقالت: «إنَّنا لا نلاحظ في القرن

العشرين زوال المَلكيَّة، بل تحوُّلها إلى سلطة لا تختلف عنها إلَّا في ناحيتين: لم تعد وراثيَّة، بل مُغتصَبة (وتبعًا لذلك يجب حمايتها)؛ وعدم إمكان التَّخلِّي عنها... إنَّها سلطة شَخصيَّة يديرها رجال هم رؤساء، لكنَّهم في حقيقة الأمر ملوك مُتوَّجين»[١٧٦].

ولو تأخَّر تعليق هؤلاء الصَّحافيِّين أربعة عقود فقط، لرأوا سلطة الرَّئيس المَلِك تُورَّث إلى الأبناء؛ حيث نجح الرَّئيس السُّوريّ الرَّاحل حافظ الأسد في توريث منصبه (الرِّئاسيّ!) لابنه بشَّار، في حين جرت محاولات دؤوبة من رؤساء مصر واليمن وليبيا والعراق من أجل توريث الرِّئاسة لأبناء لهم، غير أنَّ ريح السِّياسة جرت بما لا تشتهيه أنفس هؤلاء الرُّؤساء الملوك، والذين انتهوا إلى ما لا يُمكِن تخيُّل انتهاء

مصائر الرُّؤساء إليه، من قتل وعزل وحبس بمعرفة شعوبهم، وهو شيء مُتوقَّع، إذا كانوا استمرُّوا في مواقعهم لا بإرادة الشَّعب، وإنَّما ببلطجة مُشرعَنة سطوا بها على الدَّساتير التي أقسموا على حمايتها، فإذا بهم يمتهنوها لخدمة هواهم.

والرَّئيس العَربيّ (المسلم غالبًا)، مثل أيِّ زعيم قبائليٍّ، يُمكن لأفراد من عائلته الحصول على مواقع مُتميِّزة من الدَّولة(القبيلة)، ويُمكن لأفراد من خاصَّته الاستئثار ببعض الفوائد الخاصَّة، فـ «مفهوم العائلة عند المسلمين يتَّسم بازدواجيَّة شديدة، حتَّى إنَّك تستطيع أن تراه عاملًا أساسيًّا للفساد الذي يسري في العالم الإسلاميّ حتَّى النُّخاع. ففي العالم الإسلاميّ تُقسَّم المناصب المُهمَّة في الإدارة والشُّؤون الاقتصاديَّة، وحتَّى الثَّقافيَّة ـ كمجالي

١٧٦- ”الحكّام العرب. رحلة الصُّعود والهبوط“ / رودجر اوين.

المسرح والأدب ـ بِناءً على علاقات القرابة والمحسوبيَّة، ومن ثَمَّ يحتلّ كثيرًا من المناصب المُهمَّة والحسَّاسة أناسٌ غير مُؤهَّلين، تنقصهم الكفاءة. وبذلك تُحرَم الدُّول (العربيَّة طبعًا) من كفاءات تساهم في تنميتها»[١٧٧].

ولهذه الأنظمة الرِّئاسيَّة ترتيب أشبه ما يكون بترتيب نظام الحكم القبائليّ، وإن كان أكثر تعقيدًا، وأقوى استبدادًا، وأشدّ فسادًا، حيث يتربَّع على قمَّة هذه الأنظمة المعاصرة «المكتب الرِّئاسيّ، والعائلة الرِّئاسيَّة، وثُلَّة صغيرة من المستشارين الآتين من مؤسَّسة الجيش، والوكالات الأمنيَّة، ونخبة رجال الأعمال. ويأتي في المرتبة الثَّانية من الأهميَّة كبار أفراد الجيش، والوكالات الاستخباراتيَّة، والشُّرطة، بالإضافة إلى مجموعة صغيرة من الرَّأسماليِّين التَّابعين للنِّظام، الذين يحصلون على الفرص والنُّفوذ في مقابل دورهم في توفير موارد إضافيَّة للنِّظام، أي المال، والمهارات التَّنظيميَّة في بعض الأحيان. يأتي بعد ذلك الوكالات الرَّئيسة للإدارة المدنيَّة، والوزارات، وحُكَّام المحافظات، بالإضافة إلى أهمّ مراكز التَّشريع والسَّيطرة العقائديَّين: الجهاز التَّعليميّ، ووسائل الإعلام الرَّسميَّة، والجهاز القضائيّ، والمؤسَّسة الدِّينيَّة، الخاضعة كلّها للضُّغوط. ويجب علينا إضافة الأحزاب التَّابعة للدَّولة، والمُنظَّمة تنظيمًا جيِّدًا حيثما تُوجَد»[١٧٨]. وهو نظام سُلطويٌّ ضُبط بعناية فائقة، غالبًا ما يكون الهدف منها «مَرْكَزة السُّلطة السِّياسيَّة وشخصنتها وحصرها بأيدي رؤساء يحيطون أنفسهم برجال يشعرون بأنَّهم يستحقّون ثقتهم، بغية إدارة طبقة بيروقراطيَّة واسعة، وكذلك

---

١٧٧- "الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة" / مراد هوفمان.

١٧٨- "الحكَّام العرب. رحلة الصُّعود والهبوط" / رودجر أوين.

مجموعة من الوكالات الأمنيَّة المُتداخلة. يضاف إلى ذلك حزب رسميٌّ واحد في معظم الحالات، هو الحزب الذي صُمِّم لتوفير الحماسة الجماهيريَّة، وكي يكون عيون النِّظام وآذانه في أوساط المجتمع كافَّة. يعني ذلك أنَّ النَّاس في مثل هذه الحالات كانوا خاضعين للدَّولة، وأنَّ الدَّولة خاضعة للحزب، والحزب ذاته خاضع لحاكم فرد إمَّا مسؤول عن إنشائه، وإمَّا أصبح سَيِّده»[١٧٩].

وفي النِّظام الرِّئاسيّ القَبليّ (المَلكيّ) يتعامل الرَّئيس مع مُقدَّرات الدَّولة بصفتها ملكه الخاص، ومستحقَّات أسرته، وهدايا لبطانته ذات أهداف نوعيَّة؛ وإذا كان يؤمِّن لنفسه الحكم مدى الحياة، ويعمل على توريث أحد أبنائه من بعده، ويضمن مستويات معيشة فوق الممتازة لبقيتهم، ولذويه من أقاربه الأعزَّاء، فإنَّه يوفِّر لزوجته ـ بالضَّرورة ـ مكانًا مُميَّزًا لها في منظومة الدَّولة، إن لم تستفد منه مادِّيًا استفادت معنويًا، أقلُّه أن تُلقَّب بالسَّيِّدة الأولى، ثُمَّ تُصعَّد لتتولَّى إدارة مجموعة من الشَّركات الكبيرة، قبل أن تقوم بعد ذلك بامتلاكها؛ لتتحوَّل أرصدة هذه الشَّركات إلى حساباتها الخاصَّة في بنوك الخارج. فإذا لم تكن زوجة الرَّئيس القَبليّ مُميَّزة في المجال الاقتصاديّ، يمكنها العمل في مجال من مجالات العمل الخيريّ، أو الحقوق النِّسائيَّة، أو حتَّى في المجال الثَّقافيّ؛ ومن أسماء صاحبات الأمثلة الوافية في هذا الشَّأن أنيسة مخلوف، زوجة الرَّئيس السُّوريّ الرَّاحل حافظ الأسد؛ وليلى الطَّرابلسي، زوجة الرَّئيس التّونسيّ المعزول شعبيًّا بن علي زين العابدين؛ وجيهان السَّادات، زوجة الرَّئيس المصريّ أنور السَّادات، الذي لقي مصرعه بمعرفة قوَّاته المُسلَّحة؛ وسوزان مبارك، زوجة

١٧٩- "الحكَّام العرب. رحلة الصُّعود والهبوط" / رودجر أوين.

الرَّئيس المعزول شعبيًّا حسني مبارك؛ وصفيَّة فركاش، زوجة الرَّئيس الليبي مُعمَّر القذَّافي، الذي قتله شعبه بشكل مهين.

أما عن نمط حياة الحُكَّام العرب، فقد «بدأوا يتزيَّنون، أقلّه منذ أيَّام أنور السَّادات، في سبعينيَّات القرن الماضي وما بعدها، بمظاهر مَلكيَّة، ويتبنَّون مزيدًا من الأساليب المَلكيَّة، ويُكثرون المنازل، ويُحيطون أنفسهم بمرافقين كُثُر، وبدأوا يعيشون، بشكل عام، حياة لم يسبق لغالبيَّة شعوبهم أن حلمت بها... وفي حالة تونس، على سبيل المثال، فإنَّ الرَّئيس بن عليّ عاش وأفراد أسرته، في مُجمَّع ضخم من الأبنية في قرطاجة (إحدى ضواحي العاصمة تونس). لم يضمّ هذا المُجمَّع مكان إقامة الرَّئيس فحسب، بل مجموعة كاملة من وزارات الظِّلّ التي كانت تعمل بوصفها الوكالات الحَقيقيَّة للحكومة»[١٨٠].

إنَّ الغالب الأعمّ من هؤلاء الحُكَّام العرب يظنُّون «أنَّ الأُمَّة خُلِقت لهم، أن يفعلوا بها ما يشاؤون، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتَّى إذا حاول مُحاوِل أن يقيمهم على الجادَّة بطشوا به عبرة لغيره»[١٨١].

ومع التَّرف الباذخ الذي يغمر حياة الرَّئيس العربيّ ذي الجوهر المَلَكيّ لا يمكن الجزم بأنَّه يستمتع فعلًا بهذا التَّرف، أو يجد السَّكينة الرُّوحية اللازمة للتنعُّم والتَّلذُّذ، فهذا التَّرف، في حقيقته، أشبه ما يكون ببستان اصطناعيٍّ فُرِش في فوَّهة بركان نشط؛ وقد كشف العديد من الكتب التي تناولت بموضوعاتها الشَّرق الأوسط في السَّبعينيات من القرن الماضي، عن حالة عدم

١٨٠- ”الحكَّام العرب. رحلة الصُّعود والهبوط“ / رودجر أوين.
١٨١- ”لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم“ / شكيب أرسلان.

الاستقرار والعنف الفريد في هذه المنطقة. كما استنتج مايكل هدسون (أحد علماء الاقتصاد الأمريكيّين) في سياق تحليله لهذه المسألة في كتابه: «السِّياسة العربيَّة»؛ وهو الكتاب الذي ظهر في العام ١٩٧٧، أنَّه: يصعب كثيرًا حكم العالم العربيّ. وقد أرفق الكتاب بملحق عنوانه: «الأحداث السِّياسيَّة»؛ اشتمل على التَّكرار المذهل للحوادث التي عدَّها، مع زملائه، أحداث شغب، وهجمات مُسلَّحة، وقتل لأسباب سياسيَّة[١٨٢].

وهكذا، تتبدَّى المفارقة في أكمل ظهوراتها بين حاكم مُصاب بالأرق، رغم استلقائه في فراش من ريش النَّعام، محاطًا بأعتى قوى حرسه الجمهوريّ، وآخر أمكنه الاستغراق نومًا في العراء، تحت ظلِّ شجرة، لا لشيء سوى أنَّه حكم بإرادة شعبيَّة، وفَعَّل الدُّستور الإسلاميّ، الذي كان مزيجًا من القرآن وسنَّة مُحمَّد ﷺ، فعدل، فأمِن، فنام عميقًا[١٨٣].

ولأنَّ جوهر الحكم القَبليّ استبداديٌّ، فإنَّ الحاكم العربيّ، ذا الجذور الضَّاربة في القَبليَّة، غالبًا ما يكون استبداديًّا بطبعه، يقوم حكمه على الغلبة الأمنيَّة والعَسكريَّة، لا على إرادة شعبيَّة حقيقيَّة مستندة إلى مؤسَّسات شرعيَّة نزيهة. حيث يتغلَّب هذا الحاكم أوَّلًا على العرش، ومن ثَمَّ يتغلَّب على الشَّعب أيضًا. وعليه فإنَّ هذا النَّوع من الحكَّام لا بُدَّ لهم من صفات خاصَّة تُميِّزهم، وبحسب ما وصفهم بعض المهتمين بتحليل شخصيَّاتهم، فهم: «مُتكتِّمون، ومُشكِّكون، يميلون إلى تخيُّل وجود الأعداء في كلِّ

---

١٨٢- "الحكام العرب. مراحل الصعود والهبوط" / رودجر أوين.
١٨٣- هو الخليفة الرَّاشد الثَّاني عمر بن الخطَّاب.

مكان. إنَّهم كذلك قساة القلوب، الأمر الضَّروريّ لبقائهم في الحكم، كما عمدوا إلى قتل منافسيهم، وسجن وتعذيب، وحتَّى إعدام، أفراد المُنظَّمات التي عدُّوها تشكِّل خطرًا عليهم، مثل الشِّيوعيِّين الذين كانوا في كلِّ مكان، والإخوان المسلمين في مصر وسوريَّة»[١٨٤].

هذه الصِّفات النَّفسيَّة المُعقَّدة تستولد المزيد من الصِّفات النَّفسيَّة الأكثر تعقيدًا، ما يعني أنَّ الشَّخص المُرتبِك المُتكتِّم المُشكِّك، وجميعها مشاعر تتطرَّف باتِّجاه النَّقص الإنسانيّ، يدفع عن نفسه شعور النَّقص بتوهُّم الكمال، وشعور الضَّعف بتوهُّم القدوة؛ وتكبر المشكلة إذا كان هذا الشَّخص المُختلّ نفسيًّا يشغل منصب رئيس دولة عربيَّة، تحت إمرته جميع أدوات القوَّة والبطش من جيش وشرطة وأجهزة أمنيَّة واستخباراتيَّة. ف«سرعان ما يبدأون (الرُّؤساء الملوك) بالتَّفكير بأنَّهم يعرفون كلَّ شيء، وبأنَّه لا يمكن الاستغناء عنهم أبدًا»[١٨٥]. إنَّهم كلُّ شيء، حتَّى القانون والنِّظام؛ «قال صدَّام حسين بثقة: القانون هو أيّ شيء أكتبه على الورق... وقال الحبيب بورقيبة مستنكرًا سؤال وجَّهه له أحد الصَّحافيِّين بخصوص النِّظام: النِّظام! عن أيّ نظام تتحدَّث! فأنا النِّظام»[١٨٦].

ثمَّ من المساوئ المُشتَرَكة في الرُّؤساء العرب شغفهم ب«شخصنة الدَّولة، ووضعها فوق المجتمع»[١٨٧]، ما يترتَّب عليه إرهاب

١٨٤- ”الحكام العرب . مراحل الصعود والهبوط“ / رودجر أوين.
١٨٥- المصدر السَّابق.
١٨٦- المصدر السَّابق.
١٨٧- المصدر السَّابق.

المواطنين قضائيًّا، إذا اعترضوا بطريقة يراها النِّظام ماسَّة بما يُطلِق عليه مُسمَّى «هيبة الدَّولة».

كما يرغب الرَّئيس من هذا النَّوع «في إظهار الولاء الكاسح له في أوقات الأزمات»[١٨٨]. ما يستدعيه إلى دعوة الشَّعب إلى تجمُّعات كبيرة،

تُوظَّف لتأييده، كي يعكس من خلالها للخارج والدَّاخل تَمتُّعه بالتأييد الشَّعبيّ.

أمَّا أسوأ ما يقوم به الحاكم العربيُّ القَبليُّ، فهو سعيه الدَّائم إلى التَّخلُّص من المعارضة، لا بالطُّرق الشَّرعيَّة، التي منها تحسين حال الشَّعب، بحيث تبدو المعارضة غير مَنطقيَّة، بل بطرق غير شَرعيَّة، وليست نزيهة، حيث قد يفتعل أحداثًا ووقائع إجراميَّة يستخدمها في وصم المعارضة، عبر جهازه الإعلاميّ، إمَّا بالإرهاب المُتأسلم مرَّة، أو بالتَّخوين والعمالة لأنظمة خارجيَّة. ثُمَّ يحلو له في أثناء خطبه التَّأكيد على أنَّ أعداء الدَّاخل (يقصد المعارضة) أشدّ خطورة على الوطن من أعداء الخارج؛ على سبيل المثال: هتف جمال عبد الناصر في الجماهير سنة ١٩٥٦، قائلًا: «خضنا ثورة ضدّ الظُّلم. ماذا فعلتم؟ إنَّ عدوَّنا ليس الإمبرياليَّة فقط، إنَّه بينكم»[١٨٩].

ولأنَّ الرَّئيس العربيّ القَبليّ يدرك أنَّه يُقيم في محلٍّ بؤرة ثورة شَعبيَّة، قد تهبّ فجأة بأيِّ وقت، مهما تهيَّأ له أنَّه حبيب

---

١٨٨- "الحكام العرب. مراحل الصعود والهبوط" / رودجر أوين.

١٨٩- المصدر السَّابق

الجماهير وزعيمها المُفدَّى، فهو يحاول جاهدًا تعزيز أدوات القوَّة لديه، المُتمثِّلة في الجيش والشُّرطة، ولنا أن نندهش من استخدام رؤساء العرب المَلكيِّين للجيش في قهر شعوبهم بأكثر ممَّا يستخدموه في قتال أعداء الوطن، وعليه فإنَّ «إبقاء طبقة الضُّبَّاط في حالة من الرِّضا هو بطبيعة الحال إحدى الوسائل للتَّيقُّن من بقاء الجيش مُخلصًا للرَّئيس»[١٩٠]. وحتَّى يضمن بقاء الجيش في جعبته، دون ظهور ضابط جديد مغامر وطموح يسعى إلى الانقلاب عليه، فإنَّه سرعان ما يشرع في «تقسيم القوَّات المُسلَّحة إلى عدَّة ألوية متمايزة، وتغيير قادتها بين الحين والآخر، وتكوين حرس رئاسيّ مُنفصل، وإخضاع الجنود للمراقبة المستمرَّة على يد جهاز استخبارات مُتخصِّص، واحد أو أكثر»[١٩١].

أمَّا الشُّرطة، فإنَّ المصادر تشير إلى أنَّه «في العام ٢٠٠٦ وصل مجمل ميزانيَّتها الأمنيَّة (في مصر) إلى مبلغ ١,٥ مليار دولار أمريكيّ، وهو مبلغ يشير روبرت سبرنغبورج (أستاذ علوم سياسيَّة أمريكي مهتمّ بالشَّأن العسكريِّ المصريِّ) إلى أنَّه يفوق بكثير المبلغ الذي يصرف على العناية الصِّحيَّة. يُؤكِّد مصدر آخر على أنَّه في العام ٢٠٠٢ كانت وزارة الدَّاخليَّة في مصر تسيطر على قُوَّة مُؤلَّفة من مليون رجل شرطة وأمن واستخبارات، وهو رقم يزيد بنحو ١٥٠ ألف رجل عمَّا كان عليه في العام ١٩٧٤. أمَّا أحدث التَّقديرات فترفع عدد (الموظَّفين) في القوى الأمنيَّة المصريَّة إلى ثلاثة ملايين، بالرُّغم من أنَّ هذا الرَّقم هو ضخم جِدًّا بالتَّأكيد، إلَّا إذا اشتمل على ذلك الجيش الإضافيّ

---

١٩٠- ا "الحكام العرب . مراحل الصعود والهبوط" / رودجر أوين.

١٩١- المصدر السَّابق.

من البلطجيَّة المَدنيِّين، والعملاء السِّرِّيِّين والمُخبرين، وآخرين يؤلِّفون ما يصفه سبرنغبورج: مجتمعًا سرِّيًا كبيرًا يقدر على السَّيطرة والتَّأثير في معظم المؤسَّسات المدنيَّة الهامَّة؛ مثل الجامعات ووسائل الإعلام والاتِّحادات العُمَّاليَّة الرَّسميَّة»[١٩٢].

وإذا كان الرَّئيس العربيّ القَبليّ (المسلم) يحافظ على حكمه في الدَّاخل بالاستبداد، فإنَّه يعمل على ذلك في الخارج بالتَّنازلات، فهو يسعى دائمًا، في ظلِّ معرفته بعدم ثقة شعبه به، إلى كسب ثقة المُجتمع الدُّوليّ، الغربيّ تحديدًا، بصفته معقلَ القوى الكبرى المُهيمنة عسكريًّا وثقافيًّا، وثقة المجتمع الدُّوليّ سلعة لها ثمن لا بُدّ من دفعه، وعادة ما يكون سياسات مدفوعة الأجر تتواءم مع أهداف يسعى هذا المجتمع الدُّوليّ إلى تحقيقها في الجغرافية العربيَّة، أو في أيديولوجيَّتها الدِّينيَّة، التي هي الإسلام.

على سبيل المثال، كتب جيمي كارتر في مُذكِّراته، وهو أحد رؤساء أمريكا السَّابقين، وسائس اتفاقيَّة السَّلام بين مصر والكيان الصُّهيونيّ، عن دور مُخجِل للملك حسين، ملك الأردن السَّابق، قال: «عَلمتُ أنَّ صحيفة الواشنطن بوست بلغها معلومات عن أنَّ دولتنا، ولأكثر من عشرين عامًا، كان بينها وبين الملك حسين عاهل الأردن اتفاق يقضي بأن ندفع له مبلغًا مُعيَّنًا من المال، كلّ سنة، مقابل معلومات استخباراتيَّة، ومقابل أن يُظهر شيوخ القبائل ولاءهم لدولتنا»[١٩٣].

أيضًا الحبيب بورقيبة «كان رئيسًا على جمهوريَّة صغيرة (يقصد

---

١٩٢- ”الحكام العرب . مراحل الصعود والهبوط“ / رودجر أوين.

١٩٣- ”جيمى كارتر . مذكِّرات البيت الأبيض“ / المترجمة: سناء شوقي حرب.

تونس) ذات جيش صغير، ولذلك احتاج إلى مهارة شديدة للتَّعامل مع التيَّارات العربيَّة والدُّوليَّة التي كانت سائدة في الفترة الأولى من مرحلة ما بعد الاستقلال. كان بورقيبة مدركًا الخطر الذي يُمثِّله نفوذ عبد الناصر من جهة، وكذلك عواقب الصِّراع الشَّرس ما بين الفرنسيِّين والقوميِّين الجزائريِّين من جهة أخرى. كان ذلك هو السَّبب الذي دفعه إلى المحافظة على علاقات وديَّة مع الولايات المُتَّحدة التي حصل منها على مساعدات مهمَّة، وكذلك مع أوروبَّا، كما أظهر نفسه بوصفه داعية تحديثًا مُعتدلًا، وكرَّس اهتمامًا خاصًّا بحقوق المرأة، وهي الحقوق التي كرَّسها قانون الأحوال الشَّخصيَّة لعام ١٩٥٧، كما قدَّم نفسه على أنَّه مُعتدل فيما يتعلَّق بالإسلام»[١٩٤].

والعزف على وترَي المرأة والإسلام، بحسب ما تمليه النُّوتة الغربيَّة، أفضل موسيقى يمكنها دغدغة وتهدئة أعصاب دعاة حُريَّة الإنسان من زعماء الغرب، إذ بعد سماعهم هذه الموسيقى يتَخدَّرون، بحيث لا ينتبهون إلى أنَّ هذا الرَّئيس العربيّ الذي يُغنِّي لهم أنشودتهم المفضَّلة، عن تمكين المرأة وتجديد الإسلام، هو نفسه ديكتاتور مُستبد، من ألدّ أعداء حريَّة الإنسان، يخنقها في بلاده حتَّى الموت، وبمختلف الأساليب الشَّرعية وغير الشَّرعيَّة؛ لكن، ما عليه؟ إذا كان سيقدِّم لهم امرأة عربيَّة خليعة مُستهلِكة ومُستهلَكة باسم التَّحرُّر، وإسلامًا بلا أنياب بزعم الحفاظ على السَّلام العالميّ من خطر الإسلام الأصوليّ، فلا غضاضة في إغضاء الطَّرف عنه، بل وتقديم كلّ العون الغَربيّ له، وتثبيته على رأس نظامه الحاكم، مهما كان الشَّعب يرفضه.

١٩٤- "الحكّام العرب. رحلة الصعود والهبوط" / رودجر أوين.

وبين السِّياسة الدَّاخليَّة والخارجيَّة التي يمارسها الرَّئيس العربيُّ المسلم للحفاظ على نظام حكمه مُستقرًّا، ينسى أنَّ مُهمَّته بالأساس ليست الحفاظ على استقرار نظامه بقدر ما هي الحفاظ على استقرار نظام رَعيَّته، والعمل على بقائهم في بلادهم آمنين مُعزَّزين مُكرَمين، وأن يُوفِّر لهم الكفاية والرَّفاه.

وأنَّه بصفته حاكمًا مُسلمًا، عليه إمضاء حكمه في رعيَّته ذات الغالبيَّة المسلمة بما يمليه عليه الإسلام، أي: بمُقرَّرات الشَّرع المستخلصة من القرآن والسُّنَّة. وأنَّ إمضاء هذه المُقرَّرات ليست رجعة إلى الخلف، وليست شكلًا دينيًّا للحكم، وإنَّما أسلمة واجبة لنظام سياسيٍّ يحكم مُجتمعًا مُسلمًا، فالإسلام ليس دين كهنوت ورهبنة للقلب والرُّوح فقط، ليس دينًا طوباويًّا للذِّهن والأفكار فقط، بل دينًا واقعيًّا لسياسة الدُّنيا، وتلبية حاجات الجسد أيضًا؛ هكذا لا ينشد الإسلام إيجاد الإنسان الكامل، بل يسوس الإنسان النَّاقص.

وطبيعة القوانين في الحكم الإسلاميّ، لا أقول (طبيعة نظام الحكم الإسلاميّ)، المُستمدَّة من الشَّريعة، أوفَى لإنسانيَّة المسلم من طبيعة القوانين الموضوعة؛ لأنَّها طبيعة دينيَّة غايتها أن يُصلِح الفرد من نفسه لصالح المجتمع، لا أن يُصلِح المجتمع من نفسه على حساب الفرد.

وشتَّان بين الأمرين، فالدِّينيُّ يُقوِّم الفرد فيصحّ المجتمع، والوضعيُّ يُقوِّم المجتمع ولو بفساد الفرد، وعلى المُتشكِّك في إثباتنا مقارنة الحدود في الإسلام بالعقوبات في القوانين الوَضعيَّة. وكي يتَّضح للحاكم المسلم كيف أنَّ الحكم بشريعة الإسلام يجعله

حاكمًا عزيزًا ليس عليه سوى المقارنة بين وضع وقيمة حُكَّام المسلمين القُدامى، وكانت شِرعتهم الإسلام، وبين وضع وقيمة حُكَّام المسلمين المُحدَثين، وقد لفظوا شرع الإسلام لفظ اللقمة الفاسدة.

وقد صدق الأمريكيُّ لوثروب ستودارد، وله كتاب بعنوان «حاضر العالم الإسلاميّ»، عندما قال فيه: «الإسلام في عهده الأوَّل إنَّما كان شمس الحريَّة مشرقة وهَّاجة، ودينًا تجلَّت فيه المَنازع الحُرَّة الشَّريفة، وليس ما طرأ على العالم الإسلاميِّ فيما بعد من الوهن والتَّدنِّي يحجب المُنصِف عن جوهر الإسلام وحقيقة صفائه، فالشَّريعة الإسلاميَّة كما قال العلَّامة ليسبار: إنَّما هي ديموقراطيَّة شوريَّة جوهرًا وأصلًا، وعدوٌّ شديد للاستبداد؛ وقد أجمل فامباري هذه الحقيقة في شأن الإسلام بقوله: ليس الإسلام ولا تعاليمه السَّبب المفضي بآسيا الغربيَّة إلى هذه الحالة المشهودة من التَّضعضع واختلال الشُّؤون، ولكن السَّبب كلّ السَّبب في ذلك إنَّما هو استبداد أمراء المسلمين وحُكَّامهم الذين التووا عن الصِّراط المستقيم .. وتنكَّبوا عن طريق صاحب الرِّسالة والخلفاء الرَّاشدين .. وناصبوا المذاهب الشُّورية والأصول الحُرَّة العداء»[١٩٥].

هذا، وقد رفع الإسلامُ الحاكمَ المسلم إلى منزلة رفيعة، عندما جعله نظيرًا وصنوانًا له، لا يصلح أمر أحدهما دون صلاح أمر الآخر، باعتبار الإسلام أسًّا والسُّلطان حارس له، فما لا أسَّ له

١٩٥- "قالوا عن الإسلام" / عماد الدِّين خليل.

مُنعدِمُ، وما لا حارس له مسروق[١٩٦]. بل إنَّ الله يُصلِح من أحوال النَّاس بالسُّلطان ما لا يكون صلاحه بالقرآن[١٩٧].

ويعظم أمر السُّلطان في الإسلام إلى درجة صيرورته مُكمِّلًا عقائديًّا، حتَّى إنَّ المسلم إذا مات، ولا بيعة في رقبته لسلطان زمانه، مات ميتة جاهليَّة[١٩٨].

ثُمَّ يتعاظم أمر السُّلطان في الإسلام درجة الحضّ على تأمير الفرد في المجموعة الصَّغيرة من المسلمين، فإذا خرج ثلاثة منهم في سفر يجب عليهم تأمير أحدهم[١٩٩].

وتنتهي عظمة أمر السُّلطان في الإسلام إلى أن يقول مُحمَّد ﷺ للمسلمين جميعًا، أعلاهم وأدناهم: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيَّته، فالأمير الذي على النَّاس راعٍ عليهم وهو مسؤول عنهم، والرَّجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرَّجل راعٍ على بيت سيِّده وهو مسؤول عنه، ألا فكلُّكم راع وكلُّكم مسؤول عن رعيَّته»[٢٠٠].

وليس ضرورة رعاية المسلمين بعضهم بعضًا هو فقط ما نفهمه من هذا الحديث النَّبويّ الأخير، بل الأهمّ هو فهم طبيعة هذه

---

١٩٦- من مرويات ابن عبَّاس: «الإسلام والسُّلطان توءمان...» / أخرجه الدَّيلميّ.

١٩٧- أثر منسوب لمحمد ﷺ كما هو منسوب لعمر بن الخطاب ولعثمان بن عفان.

١٩٨- من مرويَّات عبدالله بن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «منخلع يدًا من طاعة....» / أخرجه مسلم.

١٩٩- من مرويَّات أبي سعيد الخدري: «إذا خرج ثلاثة في سفر.»/ أخرجه أبو داود.

٢٠٠- من مرويَّات عبدالله بن عمر / أخرجه البخاريُّ.

الرِّعاية. فإذا كنَّا نهدف إلى فهم طبيعة رَعويَّة الأمير، فهي نفسها، بحسب نصّ الحديث النَّبويّ، طبيعة رعاية الرَّجل لأهل بيته، وهي الرِّعاية ذات الطَّبيعة القياديَّة المُلبَّسة بالقوامة في ذات الوقت رحيمة ورشيدة، تنشد صلاح حال الأسرة التي هو مسؤول عنها، لا يعتريها دخنٌ جاهليٌّ مُتعلِّق بحبِّ السِّيادة للسِّيادة، أو الإمرة للإمرة، بل السِّيادة والإمرة هنا تكليف مُجهِد، يقبله الأمير المُكلَّف لا لشيء سوى لأنَّه الأكفأ والأجدر، ثُمَّ يرجو لو حمله عنه من هو أرشد وأقوى. أمَّا رعويَّة المرأة فحافظة، ومدبِّرة، ومهيِّئة للقرار والسَّكن، ومربِّية للنَّشء. ورعويَّة الخادم أمينة وحارسة ومُعينة. وعلى هذا النَّمط من طبائع الرَّعويات الثَّلاث يجب أن تكون رَعويَّة السُّلطان، أو الرَّئيس، فرعويَّته شاملة لجميع تلك الرَّعويَّات.

فإذا قاد الرَّئيس العربيُّ شعبه بهذا الأصل الإسلاميّ انقاد له انقيادًا سلسًا.. وكان ابن خلدون أكَّد في مُقدِّمته على أنَّ العرب لا ينقادون جميعًا إلا بالدِّين. وعلى الحاكم العربيّ المسلم، في الألفيَّة الثَّالثة، وضع هذا الفهم الخلدونيّ موضع التَّطبيق، لا لأنَّه فهم ابن خلدون عالم الاجتماع العَبقريّ، الذي أثنى علماء اجتماع الغرب على أفكاره، ولكن لأنَّ تاريخ العرب الإسلاميّ يؤكِّد صحَّة هذا الفهم.

هذا عمَّا يجب أن يكون عليه تعامل الحاكم العربيِّ المسلم مع شعبه ذي الغالبيَّة المسلمة.

لكن ماذا عن تفتُّت الشُّعوب العربيَّة المسلمة في دول وممالك عديدة؟ ألا يجب على هؤلاء الحُكَّام العرب، المعاصرون، التَّنازل

عن كراسيهم وعروشهم، والعمل على توحيد دولهم وممالكهم في كيان عربيٍّ إسلاميٍّ واحد ضخم ومتكامل؟ أليست هذه الوحدة هي ما يحضّ عليه إسلامنا؟ ألم يأمرنا بأن نتمسَّك بحبل الله جميعًا، وألَّا نتفرق؟[٢٠١]. ألم يقرأ الحُكَّام العرب قصَّة الرَّجل الهرم؟ وكان مُمدَّدًا في فراشه يلفظ أنفاسه الأخيرة، فجمع أولاده، وطلب منهم إحضار بعض من أعواد الحطب؛ فلمَّا فعلوا طلب منهم ضمَّها في حزمة، ثمُ طلب من أحدهم تحطيمها بضربة يد واحدة، فلم يستطع، فطلب منه تفريقها، وتحطيمها عودًا عودًا، فحطَّمها بسهولة، ليلقي فيهم حكمته العظيمة قبل وفاته: في الاتِّحاد قوَّة، وفي التَّفرُّق ضعف.

يلزمنا، قبل الإجابة، تَمثُّل الحكمة القائلة: «إذا أردت أن تُطاع، فأمر بما يُستطاع».

فليس من المتصوَّر أن يتقدَّم الحاكم العربيّ المعاصر، مَلكيّ الجوهر، نحو تحقيق مشروع وحدويّ يدفعه إلى التَّنازل عن منصبه، أو عرشه. وعلى سبيل المثال «من خلال اعتراضه على الوحدة العربيَّة على أساس قيام دولة عربيَّة واحدة عمل الملك حسين بحماس على تدعيم فكرة أنَّ النَّموذج الأمثل للوحدة العربيَّة يمكن أن يتحقَّق على نحو أفضل من خلال الإبقاء على الحدود العربيَّة القائمة»[٢٠٢]. وأكَّد على أنَّ «قوَّة العرب تكمن في التَّنوُّع والتَّباين، وأنَّ وجود مزيج من النُّظم الملكيَّة والجمهوريَّة

---

٢٠١- "واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا ..." . الآية 103 من سورة آل عمران / قرآن كريم.
٢٠٢- "الملفَّات السريَّة للحكَّام العرب" / ساندرا مكى.

يعطي قوَّة وحيويَّة للأمَّة العربيَّة العظيمة بأسرها»[٢٠٣]. ونفهم، طبعًا، أنَّ إجابات وتأكيدات الملك الأردنيّ الرَّاحل ليست سوى عملية هروب مكشوفة من مُجرَّد طرح فكرة الاتّحاد العربيّ على مستوى النُّظم الحاكمة للنِّقاش.

وموقف ذلك الملك الآفل نموذج ساطع لمواقف بقيَّة الملوك والرُّؤساء العرب، لكنَّه موقف، على دلالته الأنانيَّة، لا يضير الوحدة المأمولة لبلاد العرب والإسلام في الألفيَّة الثَّالثة، خصوصًا وأنَّ من رحمة الله جَلَّجَلَالُهُ بهذه الأمَّة الإسلاميَّة أن لم يُفرَض عليها نظام حكم مُحدَّد إذا تعدَّته نقص إسلامها، ما يُجيز لها حكم الخليفة الواحد، أو حكم رؤساء وملوك عديدين؛ والتَّاريخ الإسلاميُّ ذاخر بخلافات إسلاميَّة متجاورة ومتنافسة في آن، ودول إسلاميَّة مُنشقَّة، لكن طالما وحَّد بينها روح الإسلام عبر الحكم بشرعه؛ وكان جميعها، على تفرُّق أنظمة حكمها، قادرًا على صدِّ الأعداء وغزوهم، وإيقاع الهزائم القاسية بهم.

وأُمَّة الإسلام، في الألفيَّة الثَّالثة، لديها نموذج مناسب، وجيِّد، للوحدة المُتصوَّرة، قائم بالفعل، لم يتوفَّر لأنظمة حكم الكيان الإسلاميّ الثَّاني، بيد أنَّه ينقصه التَّفعيل الجادّ، وهو ما لا يمكن الوصول إليه لو لم ينتبه كلُّ حاكم عَربيٍّ، رئيسٍ أو ملكٍ أو سلطانٍ، إلى أنَّه حاكم مسلم أوَّلًا، وأنَّه لن يدوم حاكمًا إذا كان الموت ينتهي به إلى ما ينتهي إليه سائر المخلوقات؛ ليقف أمام الله جَلَّجَلَالُهُ فارغًا من سطوته، مسؤولًا عن رَعيَّته، بأيِّ شرع سار فيهم، أبحكم الله جَلَّجَلَالُهُ، الواضح في قرآنه وسنَّة نبيِّه ﷺ، أم استنكف حكم

---

٢٠٣- "الملفَّات السريَّة للحكَّام العرب" / ساندرا مكى.

الله واستورد غيره من بلاد أوروبَّا؟

هل عمل، بصفته حاكمًا مسلمًا، على توحيد كلمة الإسلام، وتقويته، ومن ثَمَّ الاستقواء به، أم عمل على تفرقة كلمة الإسلام وإضعافه عبر الاستقواء بالقُوى المعادية، لا لشيء غير تثبيت عرشه؟

عندما ينتبه الحاكم العربيُّ، في الألفيَّة الثَّالثة، إلى أنَّه حاكم مسلم قبل أيّ شيء، ويخشى لقاء ربِّه، يمكنه البقاء في حكمه كما هو عليه الآن، الرَّئيس رئيسًا، والملك ملكًا، والسُّلطان سلطانًا، وكلٌّ مُتمكِّن من كرسيِّه، أو عرشه، دون منازعة، على أن يُفعِّل الرَّابطتين المُوحِّدتين بينهم جميعًا: الجامعة العربيَّة، ومُنظَّمة التَّعاون الإسلاميّ. والتي تعمل الواحدة منهما، بحسب نظامها الذي يمنح إحدى الدُّول رئاسة دوريَّة على بقيَّة الدُّول الأعضاء، عمل الحاكم الواحد للشُّعوب العربيَّة المسلمة (الجامعة العربيَّة)، وللشُّعوب المسلمة قاطبة (منظَّمة التَّعاون الإسلاميّ).

هكذا يجب على الحاكم العَربيّ المُسلم، في الألفيَّة الثَّالثة، الارتقاء بهاتين الرَّابطتين، بحيث يكون للواحدة منهما صوتها المسموع، الفاصل في صناعة السِّياسة العَالميَّة، فلا يُعقل أن تمتلك فرنسا، مثلًا، حقَّ الاعتراض (الفيتو) في مجلس الأمن، وهي بالكاد دولة أوروبيَّة في مساحة دولة عربيَّة مثل سوريًا، ولا يمتلك كلُّ الوطن العربيّ مثل هذا الحقّ، الذي يلعب به المجتمع الدَّوليّ (الغربيّ غالبًا) لانتقاص العرب حقوقهم، أو شرعنة الاعتداء عليهم، دون قُدرة عَربيَّة على صدِّ هذه الألعاب الخطرة لافتقادهم نفس

الأداة.

والحُكَّام العرب، إذا كانوا يمتلكون كلَّ الأدوات اللازمة لإملاء إرادتهم على االسِّياسة الدُّوليَّة، فإنَّهم ينقصهم الإرادة، ولا مفرَّ لهم من الحصول عليها، وهي في متناول أيديهم إذا انتبهوا إلى أنَّ خيارهم ـ بين العقيدة والوَطنيَّة ـ يجب أن يميل للأولى؛ لأنَّها تضمن الثَّانية بالضَّرورة.

وليس أجمل، لختام هذا الفصل ممَّا أورده الأستاذ عبَّاس محمود العقَّاد في أحد كتبه عن تنقُّل الدَّاعية المُجدِّد مُحمَّد بن عبد الوهَّاب بين أمراء بلاد نجد، بحثًا عمَّن يعينه على إنفاذ دعوته التَّجديديَّة، واعدًا من ينصره بمُلك جميع بلاد نجد، فكان منهم من تلقَّاه وأكرمه ولم يزد عن هذا شيئًا، وكان منهم من أخرجه طريدًا، إلى أن وصل الدَّرعيَّة، وصاحبها مُحمَّد بن سعود «الذي ما إن علم بوجود الشَّيخ في بيت صديق له حتَّى سار إليه، وقال له: أبشر بالخير والعِزَّة والمنعة؛ فقال الشَّيخ له: وأنا أُبشِّرك بالعزِّ والتَّمكين والغلبة على جميع بلاد نجد»[٢٠٤].

ويستطرد العقَّاد قائلًا: وهذه كلمة (لا إله إلَّا الله)، من تمسَّك بها، وعمل بها، ونصرها، ملك بها البلاد والعباد؛ وهي كلمة التَّوحيد،

وأوَّل ما دعت إليه الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرهم.

إذن؛ مفتاح الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة، الذي بيد الحُكَّام العرب، هو العمل المُشترَك فيما بينهم لإعلاء كلمة: «لا إله إلَّا الله». التي لا تعلو وحدها، بل تعلو بمن أعلاها علوًّا كبيرًا.

٢٠٤- "الإسلام في القرن العشرين" / عبَّاس محمود العقَّاد.

# الفصل السَّابع

المواطنة والإسلام . القوميَّة والإسلام . مُحمَّد ﷺ والقوميَّة . الوطنيَّة ثمرة القوميَّة.

لم يعرف الإسلام، عند ظهوره في عرب الحجاز، المفهوم الذي نعرفه الآن عن مفردة: «وطن»؛ لذلك لن نجد في القرآن، أو في الأحاديث النَّبويَّة، مفردات مثل: «الوطنيَّة»، أو «الوطن»، أو «المواطنة»؛ وإن كنَّا سنجد في القرآن تصريفًا منها، وحيدًا، مُمثَّلًا في مفردة: مَواطِن[٢٠٥] . وهي جمع: مَوطِن . وقد وردت في الآية بمعنى مواقع حَربيَّة، أو غزوات. كما سنجد تصريفًا وحيدًا، في حديث نَبويٍّ يتناول خذلان المسلم لأخيه المسلم، وكيف أنَّ الأوَّل لا بُدَّ يُعاقَب بالخذلان في مَوطِن آخر[٢٠٦]. ومعنى المفردة هنا أيضًا، ليس الوطن بالمفهوم الحديث، ولا المكان عمومًا، وإنَّما تعني ظرفًا اعتباريًّا.

وانعدام وجود مفردة «وطن» أو «مواطنة» في النُّصوص الإسلاميَّة المُقدَّسة لا يعني أنَّها نصوص لا تعترف بهذين المعنَيين النَّبيلين، بل يعني أنَّها نصوص أمينة صادقة، ابنة بيئتها العَربيَّة الواسعة، التي تعرف القبيلة المُتنقِّلة، السَّاعية خلف مساقط الغيث ومواقع الكلأ، أينما حَلَّا حَلَّت، ولا تعرف القرار إلَّا نادرًا.

---

٢٠٥- الآية ٢٥ ـ سورة التَّوبة / قرآن كريم.

٢٠٦- من مرويَّات أبي طلحة وجابر بن عبدالله: «ما من امرئ يخذل امرءًا مسلمًا....» / مسند أحمد.

ثُمَّ إنَّها نصوص لم تهتمّ بالأرض بقدر اهتمامها بالإنسان. فالدِّين الرِّسالاتيّ دائمًا ما يطمح إلى توحيد شعوب العالم أجمع في كرة أرضيَّة واحدة؛ وإذا أمكنه مستقبلًا، توحيد شعوب الكواكب في مجموعة شمسيَّة واحدة؛ وشعوب المجموعات الشَّمسيَّة في مجرَّة واحدة؛ وهكذا.

فالدِّين يتَّسع بلا حدود، أمَّا الوطن مهما اتَّسع، محدود.

وللتأكيد على هذا المفهوم الرَّحب للدِّين حاولت العثور على المفردتين، «وطن» و«مواطنة»، في بعض الكتب المُقدَّسة الأخرى، كالتَّوراة والإنجيل، فلم أعثر لهما على أثر.

وهذا مفهوم؛ فلو أنَّ الدِّين، أي دين، نادى بالمواطنة لقضى على جوهره بنفسه، فجوهر الدِّين تجاوز الأوطان إلى الإنسان في كلِّ مكان، وكسر حمية القَبليَّة المحدودة لصالح رحابة الإنسانيَّة العالميَّة.

كما أنَّ الباحث عن هاتين المفردتين في الأشعار العربيَّة الجاهليَّة، أو حتَّى بعد الإسلام، وإلى قبل ظهورهما مع سقوط الخلافة العُثمانيَّة، وبعد انحسار الوجود العسكريّ للاحتلال الغربيّ عن الوطن العربيّ في منتصف القرن الميلاديّ العشرين تقريبًا، لن يجدهما إلَّا شذرًا، لكنَّه سيجد مفردات كثيرة تحمل المعنى الذي نعرفه لمفردتي «الوطن» و«المواطنة» اليوم، مثل: الدِّيار، والمنازل، والحَيّ، والحِمَى. فعلى هذه المفردات دار الشِّعر العربيُّ المُستعرِض لمعاني الغربة، والحبّ، والهجر، واللقاء، والفخر، وجميع ما يلزم الشُّعور العاطفيّ تجاه المكان، وهو الشُّعور

اللصيق بالوطن والمواطنة بمفهوميهما المعاصر.

وفي محاولة لفهم انصراف العرب القدامى عن تسمية أحيائهم، أو ديارهم، بالأوطان قمت بمراجعة معنى مفردة «وطن» في بعض معاجم اللغة العربية، فوجدت أنَّ معناها عائد بالأغلب إلى أماكن مرابض الأنعام، من قطعان الجِمال والخراف وغيرها، في تَجمُّعات الرَّعي، وأيضًا إلى الأماكن التي تجمعهم بأنعامهم، كتجمُّعات الرَّعي مضافًا إليها رحلات الظَّعن، السَّفر والارتحال، حيث يطول السَّفر، فيُضطَر إلى الاستراحة في مواطن من الطَّريق، أو مواقع الغزوات والفتوحات. وعليه فإنَّ الوطن عند العرب القدامى ربما يحمل معنى الحظيرة، أمَّا الحيَّ، أو المنزل، أو الحِمى، فمفردات تحمل معنى أعزّ وأكرم، وعليه كانت أنشط استعمالًا في حديثهم اليوميّ وأدبيَّاتهم المكتوبة.

لكن ومع ندرة استعمال العرب الأقدمين لمفردتي «وطن» و«مواطنة» بالمعنى المعروف لدينا، شاع لديهم استخدام مفردة عنيت بمعنى للانتماء أوسع شمولًا، وأعمق دلالة، من مفردة «الوطن»، حتَّى إنَّ القرآن أوردها عشرات المَرَّات بين طيَّات آياته، وكذلك الأحاديث النَّبويَّة. نعني مفردة: «قَوم»، أو المفردة ذات الدَّلالة القريبة منها: «عشيرة».

فكثيرًا ما نادى الأنبياء أقوامهم في القرآن الكريم، بـ«يا قوم»[٢٠٧]، وكثيرًا ما جاءت مفردة قوم في معرض وصف أحوالهم المُتقلِّبة بين الإيمان والفسق والإسراف[٢٠٨]، وغير هذا من صياغات تعبيريَّة

٢٠٧- على سبيل المثال لا الحصر انظر الآية ٥٩ ـ الأعراف / قرآن كريم.
٢٠٨- انظر مثلا الآية ٨١ ـ الأعراف / قرآن كريم.

مختلفة داخل الجملة بحسب المعنى المراد منها؛ أمَّا مفردة «عشيرة» فلم يكن لها ظهور مُتعدِّد لافت في القرآن، لكن يتَّضح لنا من النَّظر في الآيات الخاصَّة بها أنَّ مفردة «العشيرة» دائمًا ما كانت تشير إلى مجموعة أقلّ عددًا ممَّا تشير إليه مفردة قوم، وغالبًا قُصِد بها الأسرة، أو العائلة.

فهل يُمكِن القول بأنَّ الإسلام عرف القَوميَّة، وإن لم يعرف الوَطنيَّة؟

بإلقاء نظرة في بعض الأحاديث النَّبويَّة، وتأمُّل ما احتوت عليه من معانٍ، دون انحياز لمفاهيم مُسبَقة تنتصر للقداسة على حساب الإدراك العَقليّ، يمكن لنا التَّأكيد على أنَّ الإسلام عرف القَوميَّة بمعناها المعاصر، ومارسها المسلمون الأوائل، بل ومارسها النَّبيُّ ﷺ بنفسه.

فما المعنى المعاصر لمفردة: قَوميَّة؟

القَوميَّة «مجتمع تربطه صلة قرابة. وهي: مجتمع أفراده مولودون في إقليم ما، له حدود، مُمتدٌّ جُغرافيًّا، وله عمق زَمنيٌّ عميق... وهي: علاقة اجتماعيَّة لها وَعيٌ ذَاتيٌّ جَمعيٌّ... وأساس وجود الأُمَّة هو: الذِّكريات التي يتشاركها جميع أفراد الأمَّة عن ماضي أُمَّتهم... ولكلّ أُمَّة فهمها الخاصّ لماضيها المُميِّز، وهو فهم يُنقَل من خلال الحكايات والخرافات والتَّاريخ. وسواء أكانت تلك الذِّكريات صحيحة من النَّاحية التَّاريخيَّة أم لم تكن كذلك، فإنَّها تُسهم في فهم الحاضر الذي يُميِّز أُمَّة عن أخرى»[٢٠٩].

٢٠٩- "القوميَّة" / ستيفن جروزبي.

وبتطبيق هذه التَّعريفات عن القوميَّة، أو الأُمَّة، على العرب قبل نزول الإسلام نجدها متطابقة تمامًا مع تكوينهم القَبليّ؛ فالقبيلة، على صغرها بالنِّسبة لكيان موازٍ بحجم ومساحة دولة أو مملكة، مجتمع تربطه صلة قرابة، له حدود جُغرافيَّة (وإن كانت مُتغيِّرة) وعمق تاريخيّ، يتمتَّع أفرادها بوعي ذَاتيٍّ جَمعيٍّ، ولهم ذكرياتهم التي يتشاركونها معًا، ويُورِّثونها لأبنائهم وأحفادهم، بالحكايات والخرافات العابرة للتَّاريـخ.

وإذا كان الأمر كذلك بالنِّسبة للقبائل التي لا تفتأ تتنقَّل بين مواضع الرَّعي، فهو دون شكّ أرسخ وأقوَم عند حواضرهم البسيطة، مثل مكَّة والطَّائف والمدينة، بحيث إنَّ الرَّجل القُرشيّ كان يباهي بقُرشيَّته، وتميُّزها بموضعها حول بيت الله الحرام، وبقيامها بما يلزم لرعايته ورعاية زوَّاره، هذا من النَّاحية الدِّينيَّة، وبكونهم تُجَّارًا من النَّاحية الاقتصاديَّة، خبروا الحضارات العظيمة برحلاتهم التِّجاريَّة إلى اليمن، والحيرة في العراق من ضواحي فارس، والغساسنة في الشَّام من ضواحي روما، وما يستتبع هذا من الاهتمام بالشَّأن العالميّ، سلمه وحربه، إذ في الوقت الذي كانت أقصى اهتمامات البَدويّ المنتمي إلى القبيلة المُتنقِّلة إشباع قطعانه، كان القُرشيُّ مُتابعًا باهتمام للحرب بين فارس وروما. وكان أهل مكَّة ـ وغالبيَّتهم قرشيُّون ـ يشعرون بهذا التَّميُّز بالقدر نفسه الذي يشعر به المَدينيُّ على القَرويّ، أو الغَربيّ المعاصر على العَربيّ المعاصر، وهو الشُّعور الذي إذا وُجِد في قوم يظلّ كامنًا حتَّى يعثر بالرَّجل الذي تهيِّئه الأقدار، فتجيش بالرَّغبة في إعلاء قدر أُمَّته.

وقد جاشت نفس مُحمَّد ﷺ بهذه الرَّغبة، فأراد لـ(قومه) اتّباعه لتحقيقها، حتَّى إنَّه صرَّح بمكنون نفسه ـ في مجمع من كُفَّار مُكَّة كانوا قد ذهبوا إلى عَمِّه، ونصيره القويّ، أبي طالب، ليشكون إليه مُحمَّدًا ﷺ ـ كإحدى غايات دعوته، إذا هم اتَّبعوه على توحيد الله دانت لهم العرب بقبائلها، وملكوا العجم بحضاراتهم[٢١٠]. وكأنَّه بذلك يشير إلى أنَّ توحيد الله، إذا صحَّ، لا بُدَّ وأن تكون ثمرته توحيد القَوميَّات، أو الأمم، أو الشُّعوب، ما يعني أنَّ التَّوحيد السِّياسيَّ لا محالة ثمرة التَّوحيد العقائديّ.

وظلَّت تلك الرَّغبة جيَّاشة في وجدان مُحمَّد ﷺ، حتَّى بعد أن أخرجته قريش، واضطرَّته للهجرة إلى يثرب؛ تطلّ بين الحين والحين مُعبِّرة عن مدى قوَّتها ورسوخها في نفس النَّبيّ ﷺ؛ من تلك الأحيان ما جرى في أثناء حفر خندق المدينة للدِّفاع عنها ضد هجوم أحزاب الكفر، عندما ضرب بمعوله صخرة صلبة استعصت على أصحابه، فشقَّها مُكبِّرًا ومبشِّرًا بفتح فارس والرُّوم.

وما كان لنفس مُحمَّد ﷺ أن تجيش بتلك الرَّغبة في هيمنة قريش على العرب، وتملُّكها للعجم، لو لم يكن يملك شعورا قوميًا قويًا، هذا الشُّعور بالقوميَّة مبعثه حبّ المرء الشَّديد لقومه، ما يدفع به إلى اعتبارهم ـ دون غيرهم ـ أفضل القَوميَّات، وأجدرها بالصَّدارة والقيادة، وقد أحبَّ مُحمَّد ﷺ مكَّة ـ موطن قبيلته قريش ـ حُبًّا عظيمًا، حتّى إنَّه تألَّم كثيرًا وهو يغادرها مهاجرًا مُتكتِّمًا. لقد توقَّف عن السَّير في مرتقى جبليٍّ مشرف على مكَّة، واستدار ينظر نظرة بانوراميَّة إلى دورها وكعبتها، وقال بنبرة ملتاعة بآلام الفراق:

---

٢١٠- الواقعة في «البداية والنِّهاية» / ابن كثير.

«والله إنَّك لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أنِّي أُخرِجتُ منك ما خرجت»[٢١١].

وعندما عاد إليها في جيش من عشَرة آلاف مقاتل بعتادهم، لم يشُكّ أهل مكَّة في أنَّه سينتقم منهم شرَّ انتقام، غير إنَّه بادر بالعفو عنهم، وإطلاق سراحهم، دون إلحاق أيّ ضرر بهم، أو بأملاكهم، وهو تصرُّف بالغ العطف والكرم، ينمّ عمَّا تمتَّع به النَّبيّ ﷺ من قدرة على التَّسامي والتَّسامح، وفي ذات الوقت عن محبَّة بالغة لبلده الأُمّ، ولقومه من بني جلدته.

وحتَّى بعد استقرار أمر الإسلام، الذي كان أنصار المدينة، لا قريش مكَّة، سببه الرَّئيس، قرَّر النّبيُّ ﷺ أنَّ الأئمَّة (الحُكَّام) من قريش[٢١٢]، لا من غيرها، والسَّبب هو أن الله جَلَّجَلَالُهُ اصطفى قريشًا من بين جميع القبائل، قبل أن يصطفى منها مُحمَّدًا ﷺ نبيًا ورسولًا[٢١٣].

أمَّا الواقعة التي أرى أنَّها تكشف عن أهميَّة دور مَحبَّة مُحمَّد ﷺ لقومه (قبيلة قريش) في تفضيلهم على غيرهم من الأقوام، وإن كانوا أقوامًا مسلمين، فهي واقعة مقتل عمِّه حمزة بن عبدالمُطَّلب، أحبّ أعمامه إليه.

---

٢١١- من مرويات عبدالله بن عدي بن الحمراء، قال: «رأيت رسول الله ﷺ واقفًا على الحزوَرة...» / أخرجه الترمذيُّ.

٢١٢- من مرويَّات أنس بن مالك، قال: «أنَّ رسول الله ﷺ قام على باب البيت ونحن فيه...» / أخرجه أحمد.

٢١٣- من مرويَّات واثلة بن الأسقع الليثيّ، قال: «قال رسول الله ﷺ إنَّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل...» / أخرجه الترمذيُّ.

وكان حمزةُ قد قَتَل، في غزوة بدر، بعضَ أعزَّاء هند بنت عتبة، وهي امرأة قرشيَّة كريمة المحتدّ، وكانت وثنيَّة، فأقسمت على قتل حمزة وأكل كبده، وفي سبيل ذلك قايضت عبدًا لها اسمه وحشي، رجل حَبشيٌّ، وكان بارعًا في رمي الحربة، على أن تمنحه حُريَّته شريطة أن يقتل حمزة، ويُمكِّنها من البرِّ بقسمها.

وقد تمَّ ذلك في غزوة أحد.

ودارت الأيَّام، وأسلمت هند القرشيَّة بعد فتح مكَّة، وأسلم وحشيٌّ الحبشيُّ أيضًا، لكن في الوقت الذي كانت هند القُرشيَّة قادرة على الاجتماع مع النّسوة بمُحمَّد ﷺ، لم يكن وحشيٌّ الحبشيُّ قادرًا على نفس الشَّيء؛ إذ إنَّ النَّبيَّ ﷺ ما إن قَبِل منه إسلامه حتَّى قال له: «فهل تستطيع أن تُغيِّب وجهك عنِّي؟»[٢١٤].

وإذا كانت هند من ارتكبت القسط الأكبر من عمليَّة اغتيال حمزة، وذلك باستخدام قاتل، وتحريضه، ودفع مقابل له، مع تمثيلها بالجسد بعد إتمام الاغتيال، والأكل من كبده، ورغم وحشيَّتها تلك يقبل النَّبيُّ ﷺ جلوسها في حضرته، بين المؤمنات، تسأله في أمور شتَّى، ولا يقبل من وحشيٍّ الحبشيّ مثل ذلك، بل ويطالبه بتغييب وجهه عنه، رغم أنَّ وَحشيَّ لم يتجاوز دوره إلقاء الحربة تجاه حمزة؛ ووحشيّ في ذلك، وبحسب التَّعبير المصريّ الدَّارج لم يكن سوى: «عبد المأمور»، لا يملك من أمر نفسه شيئًا ليقبل أو يرفض ما يُكلَّف به، هذا بخلاف عِظَم المُقابل المدفوع له لقاء تنفيذ الاغتيال، وهو الحريَّة التي يحرص عليها أيُّ حُرٍّ حرصه على حياته، ويتمنَّاها أيُّ عبد؛ وعلى ما تقبله تلك المفارقة من تفاسير

٢١٤- في كتاب المغازيّ من صحيح البخاريّ.

كثيرة، فإنَّ تفسيرها باعتبار محبَّة النَّبي ﷺ لقومه، أو بالأقلّ تفضيلهم عمَّن سواهم، يبقى قائمًا، وبقوَّة.

وإذا شئنا الحَقَّ، فإنَّ حُبَّ النَّبيّ ﷺ لقومه أمرٌ إنسانيٌّ طَبيعيٌّ، تتسرَّب تأثيراته في السُّلوك البشريّ مهما كان صاحبه نبيًّا ورسولًا، فأيّ نبيٍّ أو رسول، صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا، مخلوق بشريٌّ، مهما كان أكمل البشر، فإنَّه يعتوره شيء ممَّا يعتور البشر، وإلَّا كان كاملًا، ولا كمال إلا لله وحده جَلَّ جَلَالُهُ. ولولا أنَّ مُحمَّدًا ﷺ من البشر، لا من الملائكة، لما كان الله قدَّمه للمؤمنين، في القرآن، بصفته قدوة لهم[٢١٥]، إذ من التَّعسُّف الشَّديد اقتداء البشر بالملائكة، وحاشا لله جَلَّ جَلَالُهُ أن يكون مُتعسِّفًا.

وهكذا، من باب الاقتداء بالنَّبيّ ﷺ يمكن تفَهُّم، وقبول، انتصار المسلم لقومه دون قوم آخرين وإن كانوا مسلمين أيضًا، مع الأخذ في الاعتبار أنَّ هذا الاقتداء يقتضي من المسلم ألَّا يكون حُبُّه لقومه دافعًا إلى ظلم غيرهم، أو الاعتداء عليهم لمجرَّد أنَّهم أغيار. ويصحّ أن يكون هذا هو الفرق بين القوميَّة في الإسلام والقوميَّة كما تُعرِّفها العلوم الغربيَّة في السِّياسة والاجتماع، فهي تُعرَّف عندهم بأنَّها حبُّ الفرد لأُمَّته متلازمًا مع كره الأغيار، والنَّظر إليهم بصفتهم أعداءً صرحاءً أو مُحتمَلين بالضَّرورة[٢١٦].

وعليه، إذا كان للقوميَّة وجود واضح في الإسلام، نرى أنَّ الصَّواب قد جانب بعض المُفكِّرين الإسلاميِّين الرَّافضين للوَطنيَّة، بزعمهم أنَّها ليست من الإسلام، وعدّها مُفرِّقًا للأمَّة الإسلاميَّة؛ لأنَّ النَّاظر

٢١٥- آية ٢١ ـ سورة الأحزاب / قرآن كريم.

٢١٦- "القوميَّة" / ستيفن جروزبي.

في مفهوم الوَطنيَّة لن يخفى عليه أنَّها تَجلٍّ قوميٍّ واضح؛ بمعنى أنَّ حدود الوطن تجمع قومًا اتَّفقوا على أنَّ هذه الرُّقعة من جغرافيا الكرة الأرضيَّة، هي وطنهم الذي يخصُّهم وحدهم، مهما اختلفت عقائدهم، أو توجُّهاتهم الفِكريَّة، أو أعراقهم الجِنسيَّة، وأنَّ هذه الجغرافيا الوَطنيَّة شيَّدت تاريخًا مُشتركًا لهم جميعًا، ونسجت حكاياتهم، ومأثوراتهم الشَّعبيَّة، وأبدعوا عليها فنونهم الخاصَّة.

وإذا أمكننا اعتبار الوَطنيَّة وعاءً للقَوميَّة، وذلك لأنَّ الوطن الواحد في أمثلة كثيرة، منها مصر، ربما ضَمَّ عددًا من القَوميَّات، فإنَّه يمكننا أيضًا اعتبار القَوميَّة وعاءً للوَطنيَّة، عندما تهيمن القَوميَّة الواحدة على عدد من الأوطان. مع ذلك، مهما تشابهت الوَطنيَّة والقَوميَّة، ومهما كان الشُّعور الوَطنيُّ قويًّا، يظلّ الشُّعور القَوميُّ أقوى؛ لأنَّه شعور مرتبط بالرَّحم، وبالجماعة القَبليَّة، وبالانتماء العائليِّ والأُسريِّ، أقوى كثيرًا من ارتباطه بالأرض المحدودة. وقد يؤكِّد صِحَّة هذا الرَّأي هو أنَّ أوطانًا ظهرت على خريطة العالم بتنشيط الشُّعور القومي، وأوطانًا تفتَّتت إلى (أُوَيطان) بتنشيط الشُّعور القوميّ أيضًا.

وإذا كانت استعادة لُحمة الجغرافيا العَربيَّة والإسلاميَّة في دولة واحدة هي المستحيل بعينه، فعلى كلّ مسلم يستوطن دولة عَربيَّة، أو مسلمة غير عربيَّة، في الألفيَّة الثَّالثة، الاعتزاز بهذه المواطنة، والعمل على ترسيخها، بشريطة أن تكون قَوميَّته الرُّوحيَّة منتمية للإسلام ذاته، ما ينتج عنه وحدة شَعوبيَّة، يصير بها الإسلام نفسه قَوميَّة عالميَّة فاعلة، مُتمدِّدة، مُحيطة بجميع الأوطان الإسلاميَّة، العَربيَّة، وغير العربيَّة. تلك الوحدة التي تنتهي

بتكوين موقف إسلاميٍّ سِياسيٍّ عالميٍّ، يحفظ للأوطان الإسلاميَّة حقوقها الباقية، ويستعيد حقوقها المُستلَبة.

خلاف ذلك فإنَّ الوطنيَّة الصِّرف، التي تُقدِّس الطِّين دون الدِّين، شرٌّ مُطلَق، ينتهي بالأوطان إلى الإذعان، وهو المصير ذاته الذي تؤدِّي إليه القوميَّة، إذا قَدَّست الأبدان دون الأديان.

# الفصل الثَّامن

الانسحاب الأمريكيُّ يفتح قضيَّة حقوق المرأة في أفغانستان . ازدواج المعايير إزاء قضيَّة المرأة في فرنسا . الفشل العلمانيُّ بصدد حريَّة ارتداء المراة الفرنسيَّة المسلمة في ارتداء حجابها . المرأة في الفلسفة . نظرة فرويد للمراة . مقام المرأة في المجتمع الإسلاميِّ . النَّسويَّة حصان طروادة في قلب الأسرة المسلمة . مدى صحة دعاوى تحرير المرأة . التَّبشير الصَّليبيُّ وعلاقته بالنَّسويَّة . خروج المرأة المسلمة وإخلاء البيت . الفشل المجتمعيُّ . المرأة المسلمة وتصحيح المسار.

ربما يكون هذا الفصل من الكتاب هو أخطر فصوله على الإطلاق؛ لأنَّه سيضرب بسفينه في بحر لجج، تعصف أمواجه العاتية في بروق ليلة ظلماء ماطرة. ألا وهو البحر المُسمَّى بـ«حقوق المرأة».

وقد كان من حظِّ هذا الفصل ـ وأنا آخذ في الإعداد له بقراءة العديد من الكتب المتناولة لتلك الحقوق التي فقدتها المرأة قبل ٨ آلاف عام تقريبًا (بحسب قول النَّظريَّات العلميَّة الحديثة) ـ أن قامت طالبان بدخول كابول، يوم الأحد الموافق ١٥ أغسطس ٢٠٢١ ميلاديَّة، مستعيدة أفغانستان من يد الاحتلال الأمريكيّ وحلفائه، والذي دام لعشرين سنة بالتَّمام والكمال بزعم محاربة الإرهاب.

وقد حدث إثر هذا الانتصار الطَّالبانيّ، الفائح بالرَّائحة الإسلاميَّة؛ وذلك لأنَّ طالبان فكرة جهاديَّة إسلاميَّة يُمثِّلها على أرض الواقع

طُلَّاب علوم الشَّريعة الإسلاميَّة، أن رفع العالم الغَربيّ عقائره بتخوُّفاته المعروفة والمكرورة، وأبرزها تخَوُّفان:

الأوَّل: أن تعود طالبان لاحتضان الإرهاب (الإسلاميّ طبعًا!). وهو التَّخوُّف الذي أبرزته جميع الجهات الغربيَّة دون استثناء.

أمَّا التَّخوُّف الثَّاني، والذي عبَّر عنه الرَّئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، عبر شاشات إحدى الفضائيَّات الفرنسيَّة، وبنبرة غاضبة آسفة، هو: فقدان المرأة الأفغانيَّة حقوقها التي اكتسبتها في أثناء فترة الاحتلال الغَربيِّ لبلادها!

وهدَّد ماكرون بأنَّ العالم المُتحضِّر لن يمكنه التَّفريط في حقوق المرأة هناك. وأنَّ طالبان لن تكون طليقة اليد في هذا الشَّأن.

وبعيدًا عن كون تصريح ماكرون يبدو وكأنَّه جعجعة مهزوم ظَلَّ يحارب طالبان لعقدين كاملين بأعتى الأسلحة، وأكثرها تقدُّمًا بالنِّسبة لآلة الحرب العسكريَّة، مع ذلك لم يتمكَّن من إلحاق أضرار تُذكر بِيَد طالبان الطَّليقة، يبقى لهذا التَّصريح تحديدًا دلالته، فماكرون هو الرَّئيس الأوروبيِّ الوحيد المواظب على إطلاق مثل هذه التَّصريحات (المعادية للإسلام)، وهي التَّصريحات المفهومة في سياق ما تعانيه فرنسا «أزمة» مُتعلِّقة بتهديد هُويَّتها العَلمانيَّة؛ ففي الوقت المعاصر يَصحّ القول بأنَّ فرنسا أكبر دولة (إسلاميَّة!) في أوروبَّا، يسكنها أكبر عدد من المسلمين يسكن دولة أوروبيَّة، ومُهدَّدة بأن تكون ذات غالبيَّة مسلمة يومًا ما من أيَّام المستقبل، ولذلك هي مُهدَّدة فعلًا بتغييرات مُجتمعيَّة كبيرة مُستقبلًا؛ هذا المصير ـ وللعجب العجاب ـ وهي واحدة من أكبر الدُّول الغَربيَّة

انتصارًا للتَّبشيريَّة الصَّليبيَّة قديمًا وحديثًا، وقدَّمت للمجهود التَّبشيريّ الصَّليبيّ ما يعجز عنه الإحصاء والتَّدوين.

لكن إذا كان ماكرون يتحدَّث عن ضرورة الحفاظ على حقوق المرأة الأفغانيَّة المُكتسَبة، فكيف يمكن لأي صاحب عقل تفسير كلامه بأنَّه حرب على الإسلام؟

فما علاقة قَضيَّة حقوق المرأة، عُمومًا، بالحرب على الإسلام!

الإجابة تحتاج منَّا العودة تاريخيًّا إلى الوراء قليلًا، إلى ثلاثة عشر ألف سنة قبل الميلاد؛ ففي تلك الفترة (بحسب الأقوال العِلميَّة المُتخصِّصة) وعلى مدى خمسة آلاف سنة، تَمتَّعت المرأة بذات الحقوق التي يتَمتَّع بها الرَّجل الآن؛ كانت هي السَّيدة المُتحكِّمة في رجال القبيلة، المُنظِّمة لشؤونها، صاحبة الأمر المُطاع والكلمة النَّافذة، بل والإلهة المعبودة أيضًا. وقد توَصَّل العلم إلى هذه الاستنتاجات بواسطة قراءة الحَفريَّات، وطبقات الأرض، والرُّسوم والكتابات القديمة، ثُمَّ ترتيب ذلك كلّه ومزجه ببعض الفَرضيَّات، لينتهي الأمر برسم هذه الصُّورة للمرأة السَّيِّدة في الأزمنة السَّحيقة.

هل يمكن الشَّكّ في صحَّة هذه الصُّورة المُستنتَجة؟

نعم. يمكن؛ إذا كان المُفكِّر النِّمساوي كارل بوبر، المُتخصِّص في فلسفة العلوم، قد عرَّف العلم بصفته: القابل للتَّكذيب. فإنَّ الإنسان منَّا يملك حقَّ تكذيب هذه الصُّورة المُركبَّة عن امرأة الأزمنة السَّحيقة، خصوصا وأنَّها ليست مُركبَّة بمعادلات رياضيَّة قائمة على مُسلمَّات حِسابيَّة لا يمكن الشَّكّ في نتائجها، بل جزء

كبير من هذه الصُّورة بنته الافتراضات، أو التَّوقُّعات، أو التَّخيُّلات.

لكن، ومع افتراض صحَّة الفكرة القائلة بهيمنة المرأة في تلك الأزمنة السَّحيقة، فإنَّه يحلو للمعجبين بها تقديمها للعالم باعتبارها الصُّورة الأصيلة الأصليَّة البَهيَّة، وعليه، فإنَّ على الرَّجل الذي سلب المرأة حقَّها السِّيادي إعادته إليها، لتعود (الماتريركيَّة) وتختفي (البطريركيَّة).

وهكذا، تُقدَّم لنا قضيَّة المرأة، في العصر الحديث، وكأنَّها قضيَّة استعادة حقّ مُستَلب، رغم أنَّ مشكلة المرأة، على طول الثَّمانية آلاف سنة الأخيرة، كانت عدم مساواتها بالرَّجل، ما يعني أنَّ المطالبة المعاصرة لا يجب أن تقتصر على إزاحة رجل مُستبدّ لاستعادة امرأة مُستبدَّة، وإنَّما نبذ هيمنة جنس على جنس، وإنصافهما معًا بتفعيل بروتوكولات العدل بينهما.

لكن المراقب لسياسات بعض الدُّول الغربيَّة النَّشطة بمجال العمل في مجال الحُريَّات وحقوق المرأة، ولتكن فرنسا عل سبيل المثال، تجاه مواطنتها (المرأة المسلمة)، يرى أنَّ هذه السِّياسات أبعد ما تكون عن العدل والإنصاف، بل أبعد ما تكون عن مبادئ حقوق المرأة التي تتزعَّمها أوروبَّا بصفتها جُغرافيا التَّحضُّر المعاصر، فالمرأة الفِرنسيَّة (المسلمة) تواجه صعوبات بالغة لتحتفظ بحقِّها في ارتداء الحجاب الذي تعتقد أنَّ دينها يأمرها به، في ظلّ التَّشريعات الجديدة التي وجَّه إليها إيمانويل ماكرون، والتي لا تُفصِح بصراحة عن هُويَّتها العَدائيَّة المُستهدِفة لإيقاف المدّ الإسلاميّ الجائح لفرنسا، ولكن تتنكَّر في زيٍّ قوانين دُستوريَّة ترمي إلى المحافظة على عَلمانيَّة الجمهوريَّة الفرنسيَّة، فتحارب ما

تمَّ تسميته بـ«الانعزاليَّة الإسلاميَّة».

وقد أقرَّ مجلس الشُّيوخ الفرنسيّ، في أبريل ٢٠٢١ ميلاديَّة، هذه التَّعديلات الموجَّهة خصِّيصًا للمرأة الفرنسيَّة المسلمة، والتي كانت مُنِعت ـ بقوانين سابقة ـ من الظُّهور بحجابها في الأماكن العامَّة، لتُمثِّل التَّعديلات الجديدة مزيدًا من القيود المفروضة عليها في أوروبَّا!

فالتَّعديلات تمنعها من وضع الحجاب إذا كانت تُرافق طفلها في إحدى الرَّحلات المَدرسيَّة؛ وتُعطي الحقَّ لإدارات المسابح العامَّة (البلاجات) بمنع ارتداء البوركيني (وهو لباس بحر لا يكشف الجسم)؛ وكذلك منع القاصرات من ارتداء أيّ ملابس تمثِّل رمزًا دينيًّا في الأماكن العامَّة، أو أيّ لباس يعني دُونيَّة المرأة عن الرَّجل.

وكان التَّذمُّر الحُكوميّ الفِرنسيّ قد بلغ مداه تجاه الحجاب حدَّ إعلان وزيرة المرأة الفرنسيَّة استهجانها لبعض محلَّات بيع الملابس المُخصَّصة للمُحجبَّات؛ وعندما قيل لها إنَّ هذه الملابس تختارها المسلمات بإرادتهنّ، قامت باستدعاء تاريخ الرَّقيق! لتقول إنَّ نساءً أفريقيَّات وأمريكيَّات اخترن العُبوديَّة قديمًا[٢١٧]. وهي إشارة واضحة تساوي بها الوزيرة بين المرأة المُسلمة التي تضع الحجاب بالمرأة الرَّقيق.

من هنا يحقّ لمراقب سياسات السُّلطة الفِرنسيَّة المُقيِّدة لحُريَّة مواطنتها الفِرنسيَّة الاندهاش لدعاوى إيمانويل ماكرون المُتخوِّفة من ضياع حقوق المرأة الأفغانيَّة بمعرفة حكومة طالبان

٢١٧- الخبر على موقع CNN العربيَّة بتاريخ ١ أبريل ٢٠١٦.

الإسلاميَّة، إذا كان هو نفسه مُضيِّعًا لتلك الحقوق، ما يعني أنَّ الممارسات العَلمانيَّة لحكومة ماكرون، والإسلاميَّة لحكومة طالبان، تجاه المرأة، وجهان لعملة واحدة اسمها «الوصاية على المرأة»، وهي بينهما إمَّا مكشوفة بتعرِّي العلمانيَّة، أو مُغطَّاة بنقاب الإسلاميَّة، وكأنَّها خُلِقت لا تملك من أمر نفسها، أو عقلها، أو دينها شيئًا.

ومن المعروف أنَّ واحدة من الخصائص الأساسيَّة للعَلمانيَّة، ولشدّ ما يباهي بها العَلمانيُّون، هي المحافظة على الحُريَّات الدِّينيَّة، وحماية المواطنين المُلتزمين أو المُتحرِّرين دينيًّا، إذ أساس العَلمانيَّة هو«احترام كلّ الدِّيانات والمعتقدات، ومساواة كافَّة المواطنين أمام القانون، بغض النَّظر عن الأصل أو العرق أو الدِّين»[٢١٨]. وعليه فإنَّه لا يُمكن فهم تعَدِّي الرَّئيس الفِرنسّى إيمانويل ماكرون على أحد مبادئ العَلمانيَّة إلَّا في إطار رغبة دفينة لديه، تُفصِح عن نفسها بين الفينة والأخرى، في التَّعدِّي على الإسلام. إذ ليست كلّ امرأة فِرنسيَّة مُعرَّضة لهذا التَّضييق السُّلطويّ، بل المرأة الفِرنسيَّة (المسلمة تحديدًا)، بما يعني، وبطريقة حَلّ المعادلات الرِّياضيَّة، عند رفع المراة الفِرنسيَّة من طرفَي المعادلة، يتَبقَّى فقط التَّضييق على الإسلام.

ومن المثير للعجب أنَّ فرنسا، التي يلحّ رئيسها إيمانويل ماكرون على دول العالم الإسلاميّ بضرورة منح المراة المسلمة حقوقها، لم تمنح المرأة الفِرنسيَّة بعدُ أبسط حقٍّ من حقوقها، ألا وهو

٢١٨- مقولة لكاميل أونجوريانو، أستاذ فلسفة سياسية، أوردتها مراسلة الشؤون الدينية سناء الخوري في مقالة بعنوان «هل للعلمانية في فرنسا وجه كاثوليكي؟» / موقع بي بي سي نيوز عربي.

حقّ المساواة المِهنيَّة، وهو حقٌّ أصيل مُثبَت للمرأة في الإسلام، إذ«على الرُّغم من التَّصويت الذي جرى في فرنسا، في العام ١٩٨٣، على قانون المساواة المِهنيَّة، فكلّ الأرقام التي صدرت منذ ذلك الحين تمضي في الاتّجاه ذاته: حين يكون الطَّرفان حائزَين على الشَّهادة نفسها تنال النِّساء أجرًا أقلَّ من الرِّجال، كما أنَّ فرصتهن في الوصول إلى وظائف قياديَّة وإلى التَّرقية أقلّ. لا تزال الوظائف مُجنسَنة، ولا يزال نشاط النِّساء يتمركز في نشاطات لا تزال تُعدُّ (نسويَّة)، على الرُّغم من وصول نساء وزيرات إلى الحكومات (جرى إعفاؤهنّ أحيانًا فور تسميتهن)، فإنَّ مُعدَّل النِّساء في مجلس النوَّاب لم يرتفع كثيرًا، بل إنَّه تراجع، حتَّى فترة قريبة (انتخابات العام ١٩٩٧) منذ التَّحرير؛ معظم الأحزاب السِّياسيَّة الكبيرة يقودها رجال»[٢١٩].

لكن؛ إذا كان المسلم يرى ماكرون مُعتديًا على حقوق المرأة المسلمة في بلاده، فقد لا يراه غير المسلم كذلك، فالمرأة الفرنسيَّة ليست المسلمة فقط، بل الفرنسيَّات غير المسلمات يشكِّلن غالبية نساء فرنسا، ومهما كُنَّ لا يحصلن على حُقوقهنَّ في المساواة المِهنيَّة فإنَّهنَّ لا يتعَرَّضن لما تتعرَّض له المسلمة من تضييق وتكبيل، ما يعني أنَّ التَّضييق يتمّ على الفكرة الإسلاميَّة، لا على المرأة المسلمة، تلك الفكرة الإسلاميَّة التي يراها سياسيُّو الغرب فكرة مُميتة (على حد تعبير ماكرون أيضًا)؛ إذ تعمل على تشكيل مُجتمع إسلاميٍّ موازٍ داخل المجتمع الفرنسيِّ العامّ، ما يمكن اعتباره بشكل ما، نشاطًا إسلاميًا سِياسيًا، يحقّ لسِياسيّ الغرب العمل على تحجيمه، إذا كان يعمل على تغيير البنية المُتَّفق

٢١٩- "أزمة الهويَّات" / كلود دوبار.

عليها اجتماعيًا بين السُّلطة وعموم الشَّعب.

هكذا نفهم أنَّ مجابهة الإسلام هو ما يجعل ماكرون يُضيِّق على المرأة الفرنسيَّة المسلمة، كما نفهم أنَّ نصرة الإسلام هي ما يجعل طالبان تُضيِّق على المرأة الأفغانيَّة المسلمة.

وقد وضع الفلاسفة، الأقدمون والمعاصرون، المرأة تحت منظار فلسفتهم، مثلما اعتادوا وضع كلّ شيء تحت هذا المنظار ذي العدسات المُبتكِرة! التي لا تُقرِّب صورة الكائن المنظور لنتعرَّف عليه بصورة أوضح، بل تخترق تكوينه المرئيّ إلى داخله، أي إلى عمق إنسانيٍّ خَدَّاع، لا يُسبِر عنده المُتفلسِف الأغوارَ بدافع البحث عن فهم أصدق، بل انصياعًا لرغبة شرهة في الغوص إلى فلسفة أعمق؛ هكذا تكون الفلسفة للفلسفة.

والفلسفة للفلسفة عبارة تذكِّرني باتِّجاه أدبيٍّ وفنِّيٍّ يُعرَف بـ «الفن للفن»، وهو نوع من الأدب والفنون لا يعترف بدوره حاملًا رسالة فِكريَّة أو أخلاقيَّة أو دينيَّة إلى المجتمع، بل يؤكِّد على أنَّه فنٌّ من أجل الفنّ، فلا يكتب الأديب أو يرسم الرسَّام مستهدفًا تغيير المجتمع نحو الأفضل، وإنَّما مُستهدفًا إنتاج عمل أدبيٍّ أو فنيٍّ جميل في حدِّ ذاته، ما يعني أنَّ تقديم ما هو مفهوم لم يعد هدفًا إذا كان الأديب، أو الفنَّان، قرَّر موت المُتلقِّي.

هكذا يتعالى الأدب والفنُّ على الإنسان.

وكذلك الفلسفة، إذا كانت للفلسفة.

وربما النَّزع الفلسفيّ الشَّغوف بالذِّهاب قُدمًا إلى آفاق غامضة

هو ما يصنع الفارق بين الفلسفة كما عرفها الغرب وبين الحكمة كما عرفها العرب. فإذا كانت الفلسفة كلمة ذات أصل يونانيٍّ يعني: حبّ الحكمة؛ ما يوحي بأنَّه حبُّ الحكمة لذات الحكمة (أي: الحكمة للحكمة)، فإنَّ الحكمة بالمنظور العربيّ هي التَّعلُّم من أجل الإفادة. هي الطَّريق إلى الخير والجمال. هي القدرة على إصابة المعنى. هي حسن الفهم. وقال بعض الفقهاء هي القرآن.

والحكمة أثمن من أن يكتسبها الإنسان بمجرَّد رغبته في تعلُّمها، وإنَّما يمنح الله من يختصَّهم بها القدرة على تعلُّمها، ومن مُنِحها فقد مُنِح خيرًا كثيرًا، لا إحصاء لمقداره[٢٢٠].

وعليه؛ فإنَّ الحكمة بالمنظور العربيّ ملتزمة ببساطة الطَّرح، وسهولة الشَّرح.

وتلقَّف المتفلسفون المرأة من قديم الزَّمان، ووضعوها تحت مناظيرهم المُبتكِرة، ونظروا فيها، وقالوا آراءهم، التي تضاربت دائمًا بين ضِدَّين، فرأها بعضهم من جنس الملائكة، ورأها بعضهم من جنس الشَّياطين.«وصفها كونفيشيوس بأنَّها أبهج شيء في الحياة. ووصفها هردر بأنَّها تاج الخليقة. ووصفها بلزاك بأنَّها مخلوق بين الملائكة والبشر؛ أمَّا شوبنهور فقد استعاذ بالرَّبِّ منها بصفتها شيطانًا مريدًا، وحذَّر من إطلاق حُريَّتها كاملة. وسُئِل أبو قراط (أبو الطِّب) عنها، فأجاب بأنَّها المرض. ووصفها سانت بوف بأنَّها شيطان مُحسَّن. ويقول المثل الأسبانيُّ عنها: من كانت له امرأة كان له عدوٌّ أيضًا؛ ويقول المثل الإنجليزيُّ: هناك، بينما أنت في بستانك، وبقربك امرأتك، وذراعها ملقى على

٢٢٠- انظر الآية ٢٦٩ ـ سورة البقرة / قرآن كريم.

ذراعك، احترس منها. أمَّا المثل السِّويسريّ فيقول: لا تأتمنها على خزائن قلبك، فإنَّها تخدعك ولو كنت معها تحت سقف بيت واحد»[٢٢١].

وَعَدَّ سيجموند فرويد، رائد علم التَّحليل النَّفسيّ، المرأة ذكرًا فقد عضوه الذَّكريّ، وأنَّ جميع آلامها النَّفسيَّة ناتجة عن رحلة بحث مُجهِدة عن عضوها الذَّكريّ المفقود، وأنَّها تتزوَّج بدافع الحصول على هذا العضو، وتفرح بإنجاب ذكر؛ لأنَّها تحصل على عضوها المفقود بشكل ما! وعليه، «عرف الجميع رأي فرويد في المرأة (بسبب الاختلافات التَّشريحيَّة بينها وبين الرَّجل) حين قال: إنَّه لا يستطيع أن يتخلَّص من فكرة أنَّ للنِّساء قيمًا أخلاقيَّة تختلف عن الرِّجال، وأنَّ الأنا العليا عند المرأة لا تكون أبدًا مُستقلَّة عن جذورها العاطفيَّة كما في الرَّجل، الذي تكون فيه الأنا العليا أكثر مَوضوعيَّة، وأقلّ دماثة وتهذيبًا، وأنَّ الصِّفات الشَّخصيَّة التي وُصِفت بها المرأة في مختلف العصور، ذلك أنَّ المرأة أقلّ تعقُّلًا من الرَّجل، وأقلّ قدرة على الحكم الصَّحيح على الأمور، وأقلّ إدراكًا لضروريَّة الحياة المهمَّة، وأنَّ المرأة تغلبها عاطفتها، سواء كانت حُبًّا أو كرهًا»[٢٢٢].

وفي الوقت الذي يحطّ فرويد من قدر المرأة بإفراط يُعلي فيلسوف آخر من قدرها بإفراط أيضًا، عندما يجعلها جريجوري زيلبورج جنسًا أسمى من جنس الرَّجل، فيقول: «إنَّ هذه الحقيقة غير قابلة للشَّك، وإنَّه لا يستطيع إدراك ذلك إلَّا أصحاب العقول

---

٢٢١- بتصرف من كتاب «المرأة وآراء الفلاسفة» / حسين فوزي.

٢٢٢- ”الأنثى هي الأصل“ / نوال السَّعداوي.

المُتحـرِّرة المنفتحة، والذين ألمُّوا بالكثير من المعلومات البيولوجيَّة. وإنَّه إذا كان هناك، بين الجنسين، من هو شعر يومًا بأنَّه الجنس الأدنى بيولوجيًّا ونفسيًّا، فهذا هو الرَّجل، وليس المرأة»[٢٢٣].

وهكذا؛ كلَّما اطَّلعنا على المزيد من مواصفات المرأة عند المُتفلسفة، أو على المزيد من محاولات المُفكِّرين المبذولة لفهمها، خُيِّل لنا أنَّ جميعهم يتناولون امرأة غير التي نعرفها ونشتبك معها، على مدار السَّاعة، في أوساطنا اللصيقة بنا. حيث المرأة أخت الرَّجل في الإنسانيَّة، مادَّة وروحًا، هي شِقٌّ منه، وهو شِقٌّ منها، يتعايشان معًا بأشكال أُسريَّة ومُجتمعيَّة مُتعدِّدة ومختلفة، فهي في الأسرة أمٌّ، وأخت، وزوجة، وابنة، وفي المجتمع هي قريبة عائليَّة، وزميلة عمل، وتاجرة، وسمسارة، وخلافه من مهن يحتاج الإنسان إلى معاونة ممتهنيها. وهي، في جميع ذلك، آدميَّة، لا مَلائكيَّة ولا شَيطانيَّة، لكنَّها تُحسِن، وتزيد في إحسانها، حتَّى يحسبها المرء ملاكًا، وتسيء، وتزيد في إساءتها، حتَّى يحسبها المرء شيطانًا، مثلها في ذلك مثل الرَّجل تمامًا، لولا اختلافات بيولوجيَّة أنتجت اختلافات فسيولوجيَّة، وإلَّا فهُنّ، كما وصفهن مُحمَّد ﷺ، شقائق الرِّجال[٢٢٤].

ومع كونهن شقائق الرِّجال، فإنَّ دور المرأة في الحياة أخطر بكثير من دور شقيقها الرَّجل؛ إذ كلّ منجزات الرَّجل التي يُفاخر بها،

---

٢٢٣- ”الأنثى هي الأصل“ / نوال السَّعداوي.

٢٢٤- من مرويَّات عائشة أم المؤمنين قالت: «سئل رسول الله ﷺ عن الرَّجل...» / أخرجه أبو داود.

وخيباته التي يَتبرَّأ منها ـ على طول التَّاريـخ ـ ما كانت إلَّا بتأثير شقيقته المرأة.

فالرَّجل، في أوَّل تكوينه، يخرج من صلب رجل مثله ماءً مذرًا، لا قيمة له في ذاته، فتكون له قيمة باكتماله جنينًا ناضجًا مُهيَّئًا لممارسة الحياة في رحم امرأة. ثُمَّ يظلّ رحم المرأة يحميه، ويُغذِّيه، ويُنمِّيه، حتَّى يُقدِّمه إلى العالم وليدًا. ولو لم تواصل المرأة حمايتها، ورعايتها، وتغذيتها، وتنميتها، لوليدها فمن المؤكَّد أنَّه لن يكون قادرًا على مواصلة الحياة بشكل طَبيعيٍّ. ثُمَّ لا تنقطع عن رعايته طفلًا ومُراهقًا وشابًّا وهي في طور الأمّ، ثُمَّ لا تتوقَّف عن رعايته رجلًا وكهلًا وشيخًا وهي في طور الزَّوجة مَرَّة والابنة أخرى.

هكذا، الرَّجل موجود أوَّلًا برحم امرأة، ومُنطلِق ثانيًا بتربية امرأة، ومُندفِع ثالثًا برعاية امرأة. فالمرأة حاضنته الطَّبيعيَّة، في حين لا يُمثِّل الرَّجل حاضنة لازمة للمرأة في أيٍّ من أطوار حياتها، سوى طور التَّخصيب. لكن، ولأنَّ الإنسان ليس كالحيوان، للذَّكر أدوار مُهمَّة لا تستطيع الأنثى نفي حاجتها إليها، أوَّلها الحاجة العَاطفيَّة، التي تلزمها كما تلزم الرَّجل، وإن بدرجة إحساس أشدّ من إحساس الرَّجل، وربما لو لم تكن حاجتها العاطفيَّة فيَّاضة وقويَّة لما انجذبت إلى الرَّجل ليتشاركا معًا حياة واحدة في إطار أُسريٍّ.

وربما أدرك الرَّجل القديم، من خلال تجاربه الأولى مع المرأة، أنَّه لا يُمثِّل لها أكثر من حاجة عاطفيَّة، وأنَّه إذا لم يُلجِم عاطفتها المشبوبة لن يكون هناك استقرار أُسريٌّ مفيد، فاستعان بطبيعته المفطورة على حُبِّ التَّملُّك، ولجأ إلى المُقيِّدات الأخلاقيَّة، التي

صارت تقَاليديَّة، لتتطوَّر مع الوقت إلى عَقائديَّة.

وقد مَكَّنته قُواه العَضليَّة من تحقيق هذا الإلجام في الثَّلاث مراحل التَّطور تلك، ليكون في النهاية ربَّ الأسرة السيِّد، الآمر المطاع فيها، الذي يكتسب ـ بقدراته السِّياديَّه النَّاجمة عن مؤهِّلاته التَّملُّكيَّة وقوَّته العضليَّة ـ أهمِّية جديدة أضافت إليه ما هو أسمى وأعظم من أن يكون مُجرَّد مُخصِّب للأنثى، أو حاجة عاطفيَّة للمرأة؛ لقد صار بقدراته السِّياديَّة احتياجًا حياتيًا.

وقد أكَّد الدِّين، في جميع ظُهوراته السَّماويَّة والأرضيَّة، على أسبقيَّة الرَّجل وقوامته على المرأة ـ ونصَّ القرآن على ذلك بوضوح[٢٢٥] ـ رغم إقراره بأنَّها نظيرته أيضًا.

ونحن مع الَّذين لا يرَون تضادًّا في الأمر، فالمرأة مساوية للرَّجل في جميع الحقوق الإنسانيَّة المقصورة على الجانب الخَلْقي، فهي، مهما اختلفت بيولوجيًّا وفسيولوجيًّا، تحتاج مثله إلى الطَّعام والشَّراب والكساء والبيت والأمن والعاطفة، لكن هذا الاختلاف البيولوجيّ، بما يؤدِّي إليه من اختلاف فسيولوجيّ، يُهيِّئها لمهامٍّ ليست بالضَّبط مَهامّ الرَّجل مهما أمكنها أداؤها، والرَّجل أيضًا غير مُؤهَّل لمهامّ المرأة مهما أمكنه أداؤها.

ومَهامُّ المرأة ليست كما قد يتبادر إلى الذِّهن، مَنزليَّة قاصرة على طبخ الطَّعام، وتنظيف البيت وترتيبه، وغسل الملابس، فهذه أشياء يبرع فيها الرَّجل كما تبرع فيها المرأة، وهي في الإسلام ليست من الأمور الواجبة على الزَّوجة المسلمة إذا كان الزَّوج يستطيع

٢٢٥- آية ٣٤ ـ سورة النِّساء / قرآن كريم.

توظيف من يقوم بخدمة البيت؛ كما أنَّه ليس على المرأة الخروج من البيت للقيام بأعمال هي من صميم أعمال الرَّجل.

وعليه، تُخدَم الزَّوجة بخادم لتُبقِي طاقتها لما هُيِّئت له من مهام، أوَّلها أن تكون راعية جيِّدة لبيت الزَّوجيَّة، مُشرفة ماهرة على أعماله بأكمل وجه؛ وثانيها أن تكون زوجة صالحة لإعداد السَّكن المَنزليّ والعَاطفيّ لزوجها، ويتوَطَّد هذان النَّوعان من السَّكن بتحقيق شروط ذكرها مُحمَّد ﷺ: أن تكون جميلة، كلَّما نظر إليها زوجها سُرَّ لجمالها؛ وأن تكون ليِّنة هيِّنة، بحيث إذا أقسم عليها زوجُها لأيِّ خلاف عارض وقع بينهما تنزل على قسمه، ولا تُصعِّد الخلاف بالمناظرة والعناد؛ وأن تكون أمينة على مُستحقَّات الزَّوج من مال وشرف، فلا تسلبه ماله لصالح غيره، ولا تخونه[٢٢٦]؛ وأن تكون أُمًّا جيِّدة لجيل جديد، يُعوَّل عليه التَّقدُّم بالإنسانيَّة خُطوَة مُضافة تجاه رُقيِّها. وهذه المُهمَّة الأخيرة قد تكون هي أهمّ مهامّ المرأة على الإطلاق، والتي لا يستطيع الرَّجل أن يباريها فيها بأيِّ حال.

وجميع ما سبق ذكره، من مهامّ المرأة، لا يمكن لها تأديته خارج نطاق الشَّكل المُجتمعيّ المُتعارَف عليه بـ«الأسرة».

وهنا يأتي دور «النَّسويَّة»، أو ما يُطلَق عليه «الفيمينزم»، في خلخلة وحلحلة تلك العلاقة الأسريَّة النَّفعيَّة، وتفكيكها لصالح امرأة حُرَّة مُتحرِّرة تمامًا، «امرأة مُتمركزة حول ذاتها، تشير إلى ذاتها، مُكتفية بذاتها، تودّ (اكتشاف) ذاتها، و(تحقيقها) خارج أيّ إطار اجتماعيٍّ، في حالة صراع كونيٍّ أزليٍّ مع الرَّجل المُتمركِز حول

٢٢٦- من حديث نبويٍّ أخرجه أبو داود والحاكم.

ذاته، وكأنَّها الشَّعب المُختار في مواجهة الأغيار»[٢٢٧].

فيشيع مُريدو النَّظريَّة النَّسويَّة (الفيمينزم) أنَّ المرأة القائمة على واجباتها المَنزليَّة امرأة مُستعبَدة، متاعًا يملكه رجل.

وما يقوله النَّسويُّون ـ على سبيل الاتِّهام ـ هو حقيقة يؤكِّدها القرآن، فالمرأة المسلمة متاع الرَّجل المسلم ولباسه، لكن الرَّجل المسلم هو أيضًا متاع المرأة المسلمة ولباسها[٢٢٨]، فهو مُكلَّف بواجبات لإسعادها، والأحاديث النَّبويَّة في ما يجب على المسلم تجاه زوجته كثيرة، بنفس كثرة الأحاديث الواردة فيما يجب على المسلمة تجاه زوجها، وذلك في جميع كتب الصِّحاح. وعلى هذه الأحاديث النَّبويَّة، مع آيات القرآن، في شأن المرأة، بنى الفقهاء الأوَّلون القواعد الإسلاميَّة الضَّامنة لحقوق المرأة، وما بنوه غير منكور، حتَّى من قِبل من نادوا بتحرير المرأة من المُنصفين، وعلى رأسهم الأستاذ قاسم أمين، المعروف بمُحرِّر المرأة، وقد وضع كتابًا في قضيَّة تحرير المرأة عنوانه: «المرأة الجديدة»، قال في قِسم منه: «والمُطَّلع على الشَّريعة الإسلاميَّة يعلم أنَّ تحرير المراة هو من أنفس الأصول التي يحقّ لها أن تفخر به على سواها؛ لأنَّها منحت المرأة من اثني عشر قرنًا مضت الحقوق التي لم تنلها المرأة الغربيَّة إلَّا في هذا القرن وبعض القرن الذي سبق. حتَّى إنَّها ما زالت محرومة من بعض الحقوق، وهي الآن مشتغلة بالمطالبة بها. فإذا كانت شريعتنا قرَّرت للمرأة كفاءة ذاتيَّة في تدبير ثروتها والتَّصرُّف فيها، وحثَّت على تعليمها وتهذيبها، ولم تحجر عليها

---

٢٢٧- "قضيَّة المرأة بين التَّحرير والتَّمركز حول الأنثى" / عبدالوهَّاب المسيري.
٢٢٨- آية ١٨٧ ـ سورة البقرة / قرآن كريم.

الاحتراف بأيِّ صنعة والاشتغال بأيّ عمل، وبالغت في المساواة بينها وبين الرَّجل إلى حدٍّ أن أباحت لها أن تكون وَصيَّة على الرَّجل، وأن تتولَّى وظيفة الإفتاء والقضاء! أي وظيفة الحكم بين النَّاس بالعدل. وقد وَلَّى عمر على أسواق المدينة نساءً مع وجود الرِّجال الصَّحابة وغيرهم، مع أنَّ القوانين الفرنساويَّة لم تمنح النِّساء حقَّ الاحتراف بصنعة المحاماة إلَّا في العام الماضي»[٢٢٩].

غير أنَّ فقهاء المسلمين الأوَل أقرُّوا حقوق المرأة بصفتها مُساويًا للمرأة، لا مُساويًا للرَّجل، إذ المساواة بين مختلفين ليست بالضَّرورة عَدلًا، والعدل هو الغاية، لا المساواة؛ ولا بُدَّ من أنَّ الاختلاف البيولوجي، بين الرَّجل والمرأة، يصنع فارقًا مُميِّزًا بينهما، ما يجعل لكلّ منهما حقوقًا تختلف نسبيًّا عن حقوق الآخر، وعليه واجبات وتكاليف مختلفة أيضًا.

ولعلَّ أولئك الفقهاء الأوَل انتبهوا لما هو أهمّ من الاختلاف البيولوجي والفسيولوجي، وهو: سيرورة الحياة؛ التي دائمًا ما يلزمها، بحسب قوانين الفيزياء، وجود نقيضين لتتمكَّن من الإثمار. فلا يجري النَّهر إلَّا على أرض طرفاها بين علوٍّ ودنوٍّ، ولا تسري الكهرباء إلَّا في مجالين من موجبٍ وسالبٍ، ولا يتمّ الإنجاب إلا بكائنين من ذكرٍ وأنثى، ولا تُثمر حياة الإنسان إلَّا باجتماع جنسين من رجل وامرأة. ولكلِّ طرف في ما سبق ذكره من ثنائيَّات وظيفة مُضادَّة للطَّرف الآخر، مع ذلك، وباجتماع هذا التَّضادّ، يحصل الإنتاج النَّافع.

ولعلهم ـ الفقهاء الأوَل ـ انتبهوا إلى أنَّ كلَّ تجمُّع لا بُدَّ له من رأس

٢٢٩- "بنيان الفحولة. أبحاث في المذكَّر والمؤنَّث" / رجاء بن سلامة.

يديره، يكون آمره المطاع، الذي بأوامره تتوحَّد الإرادة الجَمعيَّة تجاه تحقيق أهداف مفيدة، وهُم في ذلك تبع لمُحمَّد ﷺ، الذي طالب المسلمين، إذا كانوا اثنين، أو ثلاثة، بتأمير أحدهم عليهم[٢٣٠].

ونحن نرى في زمننا المعاصر، أن لا منشأة اقتصاديَّة أو صناعيَّة، أو حتَّى المحلَّات التِّجاريَّة، تعمل بدون مدير، يكون هو الرَّأس المُدبِّر، وموظَّفين تحته في درجات وَظيفيَّة متفاوتة القيمة، مع ذلك لا يخرج أحد المُفكِّرين، أو المُتفلسِفة، ليُطالِب بالمساواة الكاملة بين المُوظَّفين بعضهم بعضًا، أو بين الموظَّفين والمديرين، أو بين المديرين ورئيس مجلس الإدارة؛ لأنَّ المساواة في هذه الأمور الوَظيفيَّة أبعد ما تكون عن العدل، ولا تصحّ عقلًا ومنطقًا، مهما صَحَّت المطالبة بالمساواة بين الجميع في الشُّؤون المُتعلِّقة بالخَلْق والطَّبيعة، كالمطعم والملبس والمسكن، وخلافه من مستلزمات المعيشة الإنسانيَّة.

وعليه، فالبيت - في جهة منه - هو مؤسَّسة أشبه ما تكون بالكيانات الإنتاجيَّة الاقتصاديَّة، تقوم على مبادئ مَعنويَّة وعَقيديَّة، غير أنَّ هدفها استثماريٌّ أيضًا، فهي المؤسَّسة التي تنتج الوحدات البشريَّة التي ستتعامل مع المفردات البيئيَّة لإنتاج المال. وهكذا يلزم البيت ما يلزم كل مؤسسة، موظفون ومدير.

وإذا كانت الأمومة من مقتضيات البيت، وإذا كان إعداد الزَّوج لاشتباكات الخارج من مقتضيات البيت أيضًا، فهي أعمال أنثويَّة بحتة، تقوم عليها المرأة.

---

٢٣٠- من مرويَّات أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في سفر...» / أخرجه أبو داود.

وإذا كان البيت هو قاعدة الانطلاق إلى الخارج المُزدحم بأعمال لا تحسنها المراة على نفس درجة إحسان الرَّجل، ومنها ما لا تستطيع المراة القيام به أصلًا، وإذا كان الرَّجل هو الحلقة الرَّابطة بين ما في داخل البيت وما في خارجه، ما يمكِّنه من أن الأقدر على تحديد اللوازم والحاجات والاستحقاقات، فإنَّه هو الأجدر بتوَلِّي مهام إدارة الأسرة وراعيها.

وربما طوال الوقت، على مدى الزَّمان المعروف من التَّاريـخ، كانت الشَّراكة الزَّوجيَّة قائمة باعتبارها حقًّا مُجتمعيًّا، فالمرأة في البيت لا لأجل ذات الرَّجل تحديدًا، بل لأجل المجتمع؛ والرَّجل في الشَّارع لا لأجل المرأة تحديدًا، بل لأجل المجتمع. لكن ظهر مؤخَّرًا، قبل مائتي عام، بالتَّواكب مع خروج أوروبَّا من عصورها المُظلمة إلى عصر حضارتها المُميكنة، من يتساءل مُستنكِرًا وضع المرأة، و«ماهيَّة الأعمال التي ألقتها الطَّبيعة على عاتق المرأة، وأجبرتها بموجب أعرافها وقوانينها وتقاليدها على أن تقوم بها؟ فهل هذه الأعمال تعني بالنِّسبة للمرأة الأمومة وتربية الأطفال التَّربية الصَّحيحة، ليكونوا عناصر فعَّالة في المجتمع الذي يعيشون فيه؟ أم خدمة الزَّوج، وتلبية رغباته، والسَّهر الدَّائم على راحته، وتوفير السَّعادة له؟ أم وقفت نفسها وجهودها الجسمانيَّة والعقليَّة على الطَّبخ والنَّفخ وتهيئة الطَّعام فقط لأسرتها، بدون أن تُفكِّر بأنَّها عنصر فعال في المجتمع، ينهد إلى المساهمة الفعَّالة في كلِّ خطوة من خطواته نحو الرَّقيّ والتَّمدُّن إلى جانب الرَّجل، تشاركه في أعماله، وتساهم معه مساهمة فعَّالة في بناء الأسرة والمجتمع؟»[٢٣١]. هكذا، نُظِر إلى عمل المرأة على شؤون المنزل

٢٣١- "تطور المرأة عبر التَّاريخ" / باسمة كيَّال.

باعتباره استعباد لها، وإقلال من قيمتها، وإهدار لحقّ المجتمع المُصاب في نصف تعداده بالعطب والخمول!

ومن المؤكَّد أنَّنا ننتبه إلى مواكبة ارتفاع الأصوات بدعاوى تحرير المرأة انفجار الثَّورة الاقتصاديَّة في أوروبَّا الحديثة، المرتبطة بالمصنع والماكينة، فقد صار سوق العمل مُتَّسعًا ومحتاجًا للأيدي العاملة الرَّخيصة، وصارت المنتجات بالغزارة والتَّنوُّع ما لا بُدَّ معه من مستهلك إضافيٍّ يُصرِّفها؛ والمرأة في البيت يدٌ عاملة رخيصة عاطلة، ومُستهلكٌ خامل، لكن إذا خرجت من البيت قدَّمت حَلًّا للإشكالين، قدمت يدًا رخيصة، ومُستهلِكًا نَشطًا. إذن «الحديث المتواتر والمُتوتِّر عن (حقوق الإنسان)، والذي تقوده وتموِّله وتدعمه أكثر الدُّول إمبرياليَّة في العالم؛ أي الولايات المُتَّحدة، هو في جوهره هجوم على مفهوم الإنسانيَّة المشتركة. فالإنسان الذي يتحدَّثون عن حقوقه هو وحدة مُستقلَّة بسيطة كَميَّة، أحاديَّة البعد، غير اجتماعيَّة وغير حضاريَّة، لا علاقة لها بأسرة، أو مجتمع، أو دولة، أو مرجعيَّة تاريخيَّة، أو أخلاقيَّة؛ هو مجموعة من الحاجات (المادِّيَّة) البسيطة المُجرَّدة التي تُحدِّدها الاحتكارات وشركات الإعلانات والأزياء وصناعات اللذَّة والإباحيَّة»[٢٣٢].

وهكذا، يتأكَّد ما لفتنا الانتباه إليه قبل قليل، لقد طرأت على الحضارة الغربيَّة «تطوُّرات غيَّرت من توَجُّهها وبنيتها، إذ تصاعدت مُعدَّلات التَّرشيد الماديّ للمجتمع، أي إعادة صياغته، وصياغة الإنسان ذاته، في ضوء معايير المنفعة الماديَّة والجدوى

---

٢٣٢- "قضيَّة المرأة بين التَّحرير والتَّمركز حول الأنثى" / عبدالوهَّاب المسيري.

الاقتصاديَّة (وهو عنصر أساسيٌّ في منظومة الحداثة الغربيَّة) وزاد معه تسلُّع الإنسان وتشيُّؤه (ممَّا يعني إزاحته عن المركز على أن تحلَّ السِّلع والأشياء محلَّه)»[٢٣٣]. وما يعني بدوره أنَّ المطالبات بتحرير المرأة ـ بإزاحتها عن دورها الحياتيّ الحقيقيّ داخل الأسرة، والدَّفع بها إلى دور مُصطَنع خارج الأسرة ـ مزاعم ودعاوى مُزوَّرة، لا تستهدف على الحقيقة حصول المرأة على حقوقها بقدر ما تستهدف حصول الطَّاحونة الاقتصاديَّة الهائلة على ثور نسائيٍّ ضخم ونشط، يُمثِّل تعداده أكثر من نصف تعداد البشر عالميًّا.

أمَّا المرأة المُسلمة تحديدًا، فلا تُستهدَف فقط من أجل تحويلها إلى مستهلك نشط، بل أيضًا بصفتها حاضنًا إسلاميًّا قويًّا يجب إنهاكه وإضعافه، فالاقتصاد أحد أوضح وجوه السِّياسة الغربيَّة النَّشطة في مجال التَّبشير الصَّليبيِّ المُتربِّص بالإسلام، هذا الإسلام الذي من أهمِّ عوامل قوَّته امرأة مسلمة قائمة على مؤسَّسة الأسرة (البيت)، تنتج فيه مسلمين حقيقيِّين، ربما يكونوا مُستقبلًا قادرين على خوض الحرب الاقتصاديَّة الكبرى، والانتصار فيها، ليتحوَّلوا من مستهلكين يخدمون الإنتاج الغربيَّ، إلى منتجين يستخدمون المستهلك الغربيَّ.

بسبب هذا التَّخوُّف الغربيّ من نهضة إسلاميَّة جديدة تمَّ تسليط العمل التَّبشيريّ الصَّليبيّ لصناعة امرأة مسلمة جديدة، ذات صلاحيَّات بمواصفات غربيَّة.

وقد عُرِض على أعضاء المؤتمر التَّبشيريّ، المُنعقد في الهند، بمدينة لكنو، سنة ١٩١١ ميلاديَّة، تقارير لجنة مواصلة

٢٣٣- "قضيَّة المرأة بين التَّحرير والتَّمركز حول الأنثى" / عبدالوهَّاب المسيري.

أعمال مؤتمر القاهرة (وهو المؤتمر التَّبشيريّ الأوَّل، وقد سبق انعقاده في ١٩٠٦)، ومن موادِّه «الاهتمام بحركات الإصلاح الدِّينيّ والاجتماعيّ. والارتقاء الاجتماعيّ والنَّفسيّ بين النِّساء المسلمات»[٢٣٤].

وفي سنة ١٨٨٢ ميلاديَّة، أي بالتزامن مع الاحتلال الإنجليزي لمصر «تأسَّس في مصر معهد عِلميٌّ للتَّبشير تابع لجمعيَّة تبشير الكنيسة.. وله أربعة فروع: الأوَّل: قسم طبيٌّ، والثَّاني: مدرسة للصِّبيان، والثَّالث: للبنات، والرَّابع: لنشر الإنجيل. والنَّتيجة الأولى هي: تنصير قليل من الشُّبَّان والفتيات، والثَّانية: تعويد كلّ طبقات المسلمين أن يقتبسوا بالتَّدريج الأفكار المسيحيَّة»[٢٣٥].

وعليه، فإنَّه كما نجحت الإرساليَّات التَّبشيريَّة الصَّليبيَّة في صناعة مُثقَّفين يُسفِّهون الحضارة العربيَّة القديمة بنفس قدر تمجيدهم للحضارة الغربيَّة الحديثة، ويتَّخذون من دعاوى تجديد الخطاب الدِّينيّ حصان طروادة يتسلَّلون به إلى داخل الإسلام ومن ثَمَّ تخريبه، كذلك نجحت تلك الإرساليَّات في صناعة مُثقَّفات مسلمات عربيَّات لا يرون في التَّبشير الصَّليبي إثمًا ومغرمًا، أو غزوًا ثقافيًّا وعقائديًّا مؤثِّمًا، بل هو عمل نبيل، راق، يقوم به الغرب المُتحضِّر، المُستنير، خدمة مجَّانيَّة للشَّرق المظلم بإسلامه البالي، فسطرت أديبة عربيَّة مُسلمة مُثقَّفة منهنّ، في مقدِّمة كتاب لها، كتبته ونشرته في العقد الرَّابع من القرن الماضي، تقول: «أمَّا المبشِّرون الذين بين ظهرانينا، سواء أكانوا أميريكيِّين

---

٢٣٤- "الغارة على العالم الإسلاميّ" / لو شاتليه.

٢٣٥- المصدر السابق

أم إنكليزيِّين، أم رهبانًا أم راهبات من الفرنسيِّين وغير الفرنسيِّين، فلم نرَ منهم إلَّا خيرًا في تثقيف النَّاشئة العربيَّة من بنات وبنين. أجل، هم الذين أنشأوا في بلادنا المدارس ومعاهد العلم الكبرى، وعلَّمونا وهذَّبونا، وإنَّ الأخلاق العربيَّة الشَّمَّاء، ولا سيما الوفاء، ممَّا يقتضي أن نكون لهم من الشَّاكرين»[٢٣٦].

وأمثال تلك الأديبة، من سيِّدات الرَّعيل الرَّاعي لما سيتطوَّر من مُجرَّد المطالبة بمساواة المرأة بالرَّجل في العمل، ومنع الختان، وعدم إجبارها على الزَّواج ممَّن لا ترغب، وحقّ التَّصرُّف في مالها وممتلكاتها، وحقّ حضانة الطِّفل، وغيرها من هذه المسائل المعيشيَّة المقبولة، إلى ما يُسمَّى في زمننا المعاصر بـ«الفيمينزم»، أو «النَّسويَّة». وقد سبق وقدمنا تعريفًا لها قبل أسطر. أن تنفلت المرأة بالكامل من مَعيَّة الرَّجل القائد، المدير، ولتُعامَل بصفتها كائنًا مُفردًا، له جميع الحقوق النَّاجمة عن هذا الانفلات، واللبيب يفهم أنَّ هذا الانفلات، بنتائجه الوخيمة على مدى ترابط الأسرة، قد جرى بالفعل في أوروبَّا والغرب، وما كان له أن يجري لولا استسلام المَسيحيَّة، مُمثَّلة في الكنيسة، وانسحابها من العمل العامّ في قلب المُجتمع، والاكتفاء بالعمل الخاصّ في قلب الفرد، ما حقَّقت معه الهيمنة الاقتصاديَّة نصرًا كبيرًا، غير أنَّ هذا النَّصر مُهدَّد دائمًا بأكثر من مليار امرأة، في مُختلف أنحاء العالم، يتمسَّكن بإسلامهنّ، ويُنجبن مئات آلاف المسلمين كلّ عام. أي: يُنشئن سوقًا ربما لا تعتمد مستقبلًا على المنتجات الغربيَّة، وقد يساهمن في تخريج من يقوم بصناعة إسلاميَّة إمَّا تُحقِّق اكتفاءً ذاتيًا للمسلمين، ما يُضيِّق على السُّوق الغربيَّة، وإمَّا يقومون

٢٣٦- "الفتاة والشُّيوخ" / نظيرة عز الدِّين.

بغزو الغرب بإنتاجهم، مع ما يصحب هذا الغزو الاقتصاديّ من فكر وسلوك إسلاميِّين، وهم يعرفون أنَّ أكبر مساحات جُغرافيَّة اكتسبها الإسلام لم تكن بالسَّيف، وإنَّما بالتِّجارة، أي: بالسُّوق الاقتصاديَّة.

وحلُّ هذه الأزمة، التي تتخوَّفها السِّياسة الغربيَّة الصَّليبيَّة، يتمثَّل في إسقاط المرأة المسلمة، إذ «بسقوط الأمّ والزَّوجة والمرأة تسقط الأسرة، ويتراجع الجوهر الإنسانيُّ المُشترك، ويصبح كلُّ البشر أفرادًا طَبيعيِّين (أي منتمين للطَّبيعة المتماهية السَّائلة)، لكلٍّ مصلحته الخاصَّة، وقِصَّته الصُّغرى الخاصَّة؛ كلُّ إنسان مثل الذَّرَّة التي تصطدم بالذرَّات الأخرى وتتصارع معها، والجميع يُجابِهون الدَّولة وقطاع اللذة والإعلانات بمفردهم، ويسقطون في الصَّيرورة، ويتمّ تسوية الجميع بالحيوانات والأشياء، وتسود الواحديَّة السَّائلة التي لا تعرف الفرق بين الرَّجل والمرأة، أو بين الإنسان والأشياء»[٢٣٧].

هناك تأكيدات على أنَّ «العالم الغربيّ الذي أخفق في عمليَّة المواجهة العسكريَّة المباشرة مع العالم الثَّالث، اكتشف أنَّ هذه المواجهة مُكلِّفة، وطويلة، ولا طاقة له بها، ومن ثَمَّ فالتَّفكيك هو البديل العمليّ الوحيد. كما أدرك العالم الغربيُّ أنَّ نجاح مجتمعات العالم الثَّالث في مقاومته يعود إلى تماسكها، الذي يعود بدوره إلى وجود بناء أسريٍّ قويٍّ لا يزال قادرًا على توصيل المنظومات القِيميَّة والخصوصيَّات القوميَّة إلى أبناء المجتمع، ومن ثَمَّ يمكنهم الاحتفاظ بذاكراتهم التَّاريخيَّة، وبوعيهم بثقافتهم

---

٢٣٧- "قضية المرأة بين التَّحرير والتَّمركز حول الأنثى" / عبدالوهاب المسيري.

وهُويَّتهم وقِيَمهم. وهذا، ولا شكّ، يعني التَّصدِّي لعمليَّة العولمة، التي تعني التَّرشيد (داخل الإطار الماديِّ الغربيِّ) لكلّ المجتمعات، بحيث يتحوَّل العالم في نهاية الأمر، وفي التَّحليل الأخير، إلى سوق واحد متجانس يخضع لقوانين العرض والطَّلب الماديَّة، يتحرَّك فيه نفس البشر والسِّلع في نفس الحيِّز الأملس، بلا سدود أو حدود أو منظومات قِيميَّة تعوق هذه الحركة»[٢٣٨].

وهنا أرغب في لفت الانتباه إلى أنَّ ما عُنِي، في المُقتبَس السَّابق، بـ«العالم الثَّالث» ليس غير «العالم الإسلاميّ» تحديدًا، فهو العالم الذي لم يكفّ الغرب الصَّليبيُّ عن توجيه الجيوش إليه قديمًا وحديثًا، بشكل يكاد يكون متواصلًا.

ومن ثَمَّ تُستَدعى فكرة «النَّسويَّة»، أو «الفيمينزم»؛ لتقوم بدورها الفعَّال كأداة تفكيك للأسرة المسلمة دون تكلفة عسكريَّة باهظة، فـ«إذا كانت الأسرة هي اللبنة الأساسيَّة في المجتمع، فإنَّ الأمَّ هي اللبنة الأساسيَّة في الأسرة، ومن هنا تركيز النِّظام العالميّ الجديد على قضايا الأنثى. فالخطاب المُتمركز حول الأنثى هو خطاب تَفكيكيٌّ يعلن حتميَّة الصِّراع بين الذَّكر والأنثى، وضرورة وضع نهاية للتَّاريخ الذُّكوريّ الأبويّ، وبداية التَّجريب بلا ذاكرة تاريخيَّة، وهو خطاب يهدف إلى توليد القلق والضِّيق والملل وعدم الطُّمأنينة في نفس المرأة عن طريق إعادة تعريفها، بحيث لا يمكن أن تتحقَّق هُويَّتها إلَّا خارج إطار الأسرة. وإذا انسحبت المرأة من الأسرة تآكلت الأسرة وتهاوت، وتهاوى معها أهمُّ الحصون ضد

---

٢٣٨- "قضية المرأة بين التَّحرير والتَّمركز حول الأنثى" / عبدالوهاب المسيري.

التَّغلغل الاستعماريّ والهيمنة الغربيَّة»[٢٣٩].

أخيرًا؛ في هذا الفصل من الكتاب، لسنا مَعنيِّين بإجراء مقارنة بين ما يمنحه الإسلام للمرأة من حقوق، ويُلزمها به من واجبات، بصفتها عضوًا ناضجًا ومسؤولًا في المجتمع الإنسانيّ، وما تمنحها إيَّاها الحضارة الغربيَّة المعاصرة، أو تُلزمها به، وليس على المُتشكِّك في ثراء وقيمة ما منحه الإسلام للمرأة سوى مراجعة العديد من الأحاديث النَّبويَّة في الكتب الصِّحاح، والعودة إلى سيرة مُحمَّد ﷺ الشَّخصيَّة، والنَّظر في القرآن. لكنَّنا معنيُّون بتقديم خُطَّة لازمة للمرأة المسلمة كي تنهض بدورها في بعث إسلاميٍّ خلَّاب نأمل بتفجيره في هذه الألفيَّة الثَّالثة. ولن تكون الخُطَّة مُبشِّرة بالنَّجاح لو أنَّها اعتمدت منهجًا اجتماعيًّا أوروبيًّا، مهما كانت الأُمَّة الإسلاميَّة شغوفة بتقليد غيرها من الأمم (كما نوَّه مُحمَّد ﷺ في حديث جُحر الضَّبّ)، فنحن بصفتنا عربًا، لنا خصوصيَّتنا اللصيقة بنا لصوق الجلد باللحم، كما للغرب خصوصيَّته اللصيقة به بذات الدَّرجة، وشاء الله أن يخلق الأمم مختلفة ومتباينة، بما لا يجعل ما يُصلِح الشَّرق يُصلِح الغرب بشكل قطعيٍّ، والعكس صحيح. وعليه؛ «من الأجدر بنا أن ندرس قضيَّة المرأة داخل إطارها التَّاريخيّ والإنسانيّ، فندرك أنَّ مشكلة المرأة مشكلة إنسانيَّة لها سماتها الخاصَّة. كما يجب أن ننفض عن أنفسنا غبار التَّبعيَّة الإدراكيَّة، ونبحث عن حلول لمشاكلنا نولِّدها من نماذجنا المعرفيَّة ومنظوماتنا القِيميَّة والأخلاقيَّة، ومن إيماننا بإنسانيَّتنا المشتركة، وهي منظومات تؤكِّد أنَّ المجتمع الإنسانيّ

٢٣٩- "قضية المرأة بين التَّحرير والتَّمركز حول الأنثى" / عبدالوهاب المسيري.

يسبق الفرد»[٢٤٠].

أي: على المرأة، كما على الرَّجل، النَّظر لمجتمعه بصفتها أكبر من النَّظر لفرديَّته، وإعلاء قيمة التَّضحية بالخاصّ من أجل العامّ.

والأسرة هي لَبِنة المجتمع. وكان رجل قد جاء لأمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب، يستشيره في تطليق زوجته التي لا يُحبّها، فأنكر عمر عليه، وقال له ما يعني أن ليس كلّ البيوت تُبنَى على الحبِّ بالضَّرورة، ولكن هناك رعاية والتزامات وضرورات لا يصحّ للرَّجل أن يخفرها.

وما أنكره عمر على الرَّجل لا يعني أنَّ عدم الحبّ ليس سببًا كافيًا للتَّطليق، فقد جاءت امرأة مُحمَّدًا ﷺ، وسألته تطليقها من زوجها الذي لا تعيب عليه دينه أو دنياه، غير أنَّها لا تُحبّه، فطلب منها أن ترُدَّ عليه ما أمهرها به (وكان حديقة) وتُطلَّق[٢٤١].

وربما النَّاظر في الفرق بين الحالتين ـ الرَّجل مع عمر، والمرأة مع النَّبيّ ﷺ ـ يرى رقيقةً من الحكمة الكاشفة إلى أيِّ مدى رفق الإسلام بالمرأة؛ إذ إنَّها ما إن اشتكت من عدم استطاعتها مواصلة الزَّوجيَّة دون حُبٍّ حتَّى سُورِع بتطليقها، أمَّا الرَّجل فلم يحظ بنفس المُسارعة، بل طُولِب بالاستمرار في بذل الرِّعاية لزوجته. ومن المؤكَّد أنَّ للتَّشريع الإسلاميّ، الذي يمنح للرَّجل فرص الزَّواج مثنى وثلاث ورباع، ولا يمنح نفس الفرص للمرأة، دورٌ في أن يأمر

---

٢٤٠- ”قضية المرأة بين التَّحرير والتَّمركز حول الأنثى“ / عبدالوهاب المسيري.

٢٤١- من مرويَّات عبدالله بن عبَّاس قال: أنَّ امرأة ثابت بن قيس أتت الرَّسول ﷺ/ أخرجه البخاريُّ.

عمر الرَّجل بالإبقاء على حبل الزَّوجيَّة دون قطع؛ لأنَّ الرَّجل يمكنه الإبقاء على زوجه والزَّواج بغيرها في الوقت نفسه، أما المراة غير قادرة على ذلك، فضمن لها الإسلام مغادرة ما تكره بأيسر طريقة وأسرعها.

فالمرأة الكارهة لزوجها، غير السَّعيدة في بيت يجمعهما، لن يكون بمقدورها القيام بمهامِّها المنوطة بها منزليًا، ولن تُخرِج جيلًا معًا، ما يعني أنَّ الهدف العامّ من الزَّواج لم يعد ممكن التَّحقيق، مع فقد الهدف الخاصّ الذي هو العشرة بمودَّة وسَّكينة بين الزَّوجين.

وكان، قبل ما يقارب المائة سنة، أن طالَبَ مُحرِّرو المرأة الأوائل بتعليم المرأة؛ لأنَّها: «إذا تعلَّمت القراءة والكتابة، واطَّلعت على أصول الحقائق العلميَّة، وعرفت واقع البلاد، وأجالت النَّظر في تاريخ الأمم، ووقفت على شيء من علم الهيئة والعلوم الطَّبيعيَّة، وكانت حياة ذلك كلّه في نفسها عرفانها العقائد والآداب الدِّينيَّة، استعدّ عقلها لقبول الآراء السَّليمة، وطرح الخرافات والأباطيل التي تفتك الآن بعقول النِّساء..... ولا شيء يمنع المرأة المصريَّة من أن تشتغل مثل الغربيَّة بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتِّجارة والصِّناعة إلَّا جهلها وإهمال تربيتها. ولو أُخِذ بيدها إلى مجتمع الأحياء، ووجِّهت عزيمتها إلى مجاراتهم في الأعمال الحيويَّة، واستعملت مداركها وقواها العقليَّة والجسمانيَّة، لصارت نفسًا حيَّة فعَّالة، تنتج بقدر ما تستهلك، لا كما هي اليوم عالة، لا تعيش إلَّا بعمل غيرها، ولكان ذلك خيرًا لوطنها، لما ينتج عنه من ازدياد الثَّروة العامَّة والثَّمرات العقليَّة فيه»[٢٤٢]. واليوم، بعد

٢٤٢- "المرأة وآراء الفلاسفة" / حسين فوزي.

انقضاء ما يقارب المائة سنة، وقد نالت المرأة أعظم الحظوظ التَّعليميَّة، ولأن لها الفقه الإسلاميُّ في بعض الدُّول العربيَّة (تونس مثلًا) حتَّى إنَّه سوَّى بينها وبين شقيقها في الميراث، وجرَّم الختان بالقانون الوَضعيِّ، وملكت أمرها لا في الزَّواج فقط، بل وفي الانخراط بقصص الحُبِّ والغرام، فإنَّنا لا نجد الجنَّة المأمولة التي وعدنا بها مُحرِّرو المرأة الأوائل، بل نجد واقعًا اجتماعيًّا في غاية السُّوء والانحطاط، وكذلك الاقتصاد والسِّياسة والدِّين.

تعلَّمت المرأة، وتركت البيت وخرجت إلى الشَّارع تلهث خلف ما قيل لها إنَّه طموحات مُستحقَّة لها، فانهار الطِّفل؛ وتظنّ المرأة العاملة أنَّها ـ حين تترك طفلها لمربِّية أو لحضانة ـ قد فعلت ما تُلزمها به أمومتها، وأنَّ الطِّفل ينشأ سويًّا، والحقُّ أنَّ الطِّفل ينشأ مصابًا بأمراض نفسيَّة قد يظهر منها ما يظهر مُبكِّرًا، ويختفي منها ما يختفي ليظهر مُتأخِّرًا. الشَّوارع والمُؤسَّسات مُلِئت بأجيال من الشَّباب المسلم، والفتيات المسلمات، على أسوأ حال من قِلَّة الأخلاق وانعدام الضَّمير، هذا غير امتلائها بنوعيَّة أخرى من أولاد الشَّوارع ضحايا المُعاملة الأُسريَّة السَّيِّئة. الفساد عمَّ البلاد. الدُّول العربيَّة والإسلاميَّة تمضي إلى مزيد من التَّأخُّر. وكلُّ نشء لم ينعم بالحضانة الأُموميَّة لحدّ الكفاية مارس بعد ذلك سلوكيَّات مشينة ضدّ المرأة، أبعد ما تكون عن تعليمات الدِّين، وكأنَّه ينتقم منها حين ضيَّعت حقَّه في أمومتها طفلًا. انفجرت قنبلة التَّحرُّش، علت موجات الاغتصاب، ما يعني أنَّ المرأة بتركها البيت سارت مُغمَّاة إلى حفرة من المهانة أعمق ممَّا كانت تظنّه بنفسها من ذي قبل!

أمَّا في السِّياسة، فقد ترسَّخت الفكرة الاستبداديَّة، حتَّى أنَّ الشُّعوب العربيَّة المسلمة، بغالبيَّتها السُّكَّانيَّة، لا تعرف كيف تحتفظ بنتائج جيِّدة لثوراتها (الرَّبيع العربيّ مثالًا)، بل تساهم بنفسها، في استعادة الأنظمة الاستبداديَّة التي ثارت عليها.

والاقتصاد إلى الأسوأ. فقد كان الدُّولار الأمريكيّ يوازي ما قيمته ٣٥ قرشًا، أي ثُلث جنيهًا مصريًّا، فارتفع إلى ما قيمته ١٨ جنيهًا مصريًّا.

وكانت مصر دولة دائنة لعدد من الدُّول الأوروبيَّة، أشهرها بريطانيا العظمى، التي لم تكن الشَّمس تغيب عنها، الآن تكاد جميع الدُّول التي تطلع عليها الشَّمس أن تكون مَدينة لمصر، حيث بلغ حجم الدِّين المصريّ رقمًا مخيفًا قدره ١٣٠ مليار دولار أمريكيّ.

لقد صدقت إحدى المُفكِّرات المُتمرِّدات على وضع المرأة (بصفتها حبيسةً للفكر الدِّينيّ) عندما قالت في أحد كتبها: «قضيَّة تحرير المرأة قضيَّة سِياسيَّة بالدَّرجة الأولى؛ لأنَّها لا تمسّ حياة نصف المجتمع فحسب، ولكنَّها تمسّ حياة المجتمع كلّه. إنَّ تخلُّف المرأة وتكبيلها لا يؤخِّر النِّساء فحسب، ولكنَّه ينعكس على الرِّجال، وعلى الأطفال؛ وبالتالي يقود إلى تخلُّف المجتمع كلِّه»[٢٤٣]. لكنَّه الصِّدق ذي الوجه النِّيجاتِف من الصُّورة، الوجه القاتم ذي الملامح المرعبة، لقد تحرَّرت المرأة على النَّهج الذي أرادوه لها، فتزلزلت حياة المجتمع كلّه زلزالًا مُدمِّرًا، الزِّلزال الذي توقَّعته بعض المؤسَّسات النسائيَّة الأوروبية (فرنسا!)، فطالبت بعودة المرأة إلى أداء دورها الحقيقيّ، وهكذا، في العام الميلاديّ

٢٤٣- "المرأة هي الأصل" / نوال السَّعداوي.

١٩٤٥، أعلن المؤتمر الوطنيُّ الأوَّل لاتِّحاد النِّساء الفرنسيَّات أهدافه على النَّحو التَّالي: «تقديم أبناء لفرنسا. تأسيس أسرة. تربية الأطفال وفق منظومة أخلاقيَّة رفيعة. إرضاعهم حبّ العمل واحترام الوالدين وحبّ الوطن وروح المواطنة»[٢٤٤].

إنَّ السَّعي إلى تحقيق المال، باعتباره مقياسًا للنَّجاح الشَّخصيّ، ليس إلَّا فخًّا عميقًا مسحورًا، من يسقط فيه يتبدَّل من إنسان إلى شيء! يقول كارل ماركس، في تعليق على وظيفة المال لدى المسرحيّ الإنجليزيّ الأشهر وليم شكسبير: «يؤكِّد شكسبير على مظهرين للمال. إنَّه الألوهيَّة المرئيَّة، تُحوِّل كلّ الصِّفات الإنسانيَّة والطَّبيعيَّة إلى عكسها، استبدال كلّ شيء وتشويهه، مصالحة ما لا يمكن أن يتصالح»[٢٤٥]. وهكذا؛ تسيطر السُّوق بقوانينها الماديَّة، لـ«تحوِّل العمل الإنسانيّ والفرد نفسه إلى موضوع تبادل، إلى شيء»[٢٤٦]. ما تكون نتيجته فرضيَّة شديدة الخطورة على قواعد المجتمع، وهي، بعد تحوُّل المرء، والمرأة، إلى مجرَّد شيء، أن يتحوَّل هذا الشَّيء إلى الكائن اللامنتميّ الذي يُسيطر عليه مفهوم تفاهة الحياة»[٢٤٧]. وليس أخطر على المجتمع من كائن بَشريٍّ لا مُنتميّ، إنَّه الزُّومبي الذي يتَنفَّس ويتحَرَّك ويُريد، مع ذلك فهو فارغ ميِّت مُدمَّر، ومُدمِّر.

إذن، يجب استعادة المسار الأخلاقيّ، وضبط الدَّفَّة ببوصلة مؤشِّرها القيمة، من أجل تعديل الإبحار الإنسانيّ نحو الغاية

٢٤٤- "النَّقد الاجتماعيُّ" / بيير زيما.
٢٤٥- المصدر السابق
٢٤٦- المصدر السَّابق.
٢٤٧- "سقوط الحضارة" / كولن ويلسون.

المُثلى، التي «تنحصر في أن يستخرج (الإنسان) الأشياء اللاماديَّة، كالصِّدق والجمال والعدل»[٢٤٨]، أن «نجاهد، وأن نجالد، لنشقّ طريقنا صُعُدًا نحو هذه المثاليَّات»[٢٤٩].

وليس سُوى المرأة يستطيع الإبحار بالبَشريَّة نحو مُستقرٍّ آمن، لكن ليس أيّ امرأة، إنَّها المرأة المُدركة لمهامّها الحَقيقيَّة، العارفة لقدر جلال هذه المهامّ، مع ذلك، وفي زمن صارت فيه للمادَّة رمزيَّة قيميَّة، بحيث إنَّ من لا يحوز شيئًا منها يُستحقَر، فإنَّ على الأنظمة العربيَّة (الإسلاميَّة بحسب دساتيرها) المشاركة في حلّ هذه المشكلة، وذلك بتحديد مُرتَّبات، وإن كانت رَمزيَّة، تُدفَع لربَّات البيوت على سبيل التَّقدير لأدوارهنّ العظيمة في تنشئة مواطنين جَيِّدين، بإمكانهم خدمة دينهم وأوطانهم على أكمل وجه، وأتمّ إبداع وابتكار.

بالأخير؛ يقع على الرَّجل العبء الأكبر بترغيب المرأة في العودة إلى البيت، وذلك ببذله المزيد من الحبِّ والتَّقدير لها، وببذله المزيد من السلوكيَّات العطوفة التي تشركها في نسيج البيت، لتشعر أنَّها آمنة في هذا البيت تمامًا، وأنَّه بيتها بأكثر ممَّا هو بيت زوجها.

فأجمل ميزات المرأة، التي عُرِفت عبر تاريخها التَّشاركيّ مع الرَّجل، هي قدرتها على منح كلّ ما تملكه، من مال ووجود وكيان، والتَّخلِّي عن جميع طموحاتها الشَّخصيَّة، لرجل ليس بالضَّرورة قادرًا على تقديم ما تحتاجه من مال، بل ما تحتاجه من حُبٍّ وأمان خالصين مُخلَّصين.

---

٢٤٨- "تاريخ العلم والإنسيَّة الجديدة" / جورج سارتون.

٢٤٩- المصدر السَّابق.

# الفصل التَّاسع

## تعريف للإسلام . الإسلام في القرآن . المسلم المهتدي والمسلم بالوراثة . الإسلام في السُّنَّة . عمارة الإسلام . من هو المسلم ؟

يهمُّنا، ونحن نحاول فَكَّ الشَّفرة التي تفتح لنا الرُّؤية المعاصرة من الإسلام القديم، في نسخته المُحمَّديَّة، تقديم تعريف بسيط ومختصر للإسلام. ولشدّ ما نحتاج إلى هذا التَّعريف في زمان أوشكت فيه الحرب الثَّقافيَّة والفكريَّة الغربيَّة على الإسلام، والتي تُدار سياسيًّا، على أن تؤتي أُكُلها، فبُدِّلت المفاهيم، وحُرِّفت المعاني، حتَّى صارت مفردة «إسلام» مرادفًا لمفردة «إرهاب»، وصار دين السَّلام والرَّحمة دين حرب وعنف!

ونوضِّح مُقدَّمًا أن تعريفنا المأمول للإسلام لن يأتي وفقًا لما عليه منظومته الطَّقسيَّة من شعائر وعبادات، فقد نوَّهنا من البداية إلى أنَّنا لسنا بصدد كتاب فقهيٍّ، وإنَّما بصدد كتاب فكريّ مهموم بمناقشة «أزمة كبرى»، يضيق خناقُها على رقاب المسلمين رويدًا رويدًا، ما يترتَّب عليه استحسان مجاوزة الطَّقسيّ والشَّعائري من الإسلام إلى ذاته وجوهره.

أي: لنبحث في ماهيَّة الإسلام، لا في كَيفيَّته؛ إذ يكاد كُلُّ مسلم على وجه الأرض يعرف كيف يكون مُسلمًا بالعبادات والشَّعائر،

في حين لا يكاد يعرف شيئًا عن ذات الإسلام وجوهره.

ولا يمكن البحث عن ماهيَّة الإسلام، بأقرب شكل من الدِّقَّة، في آراء دارسيه، سواء كانوا قدماء أم معاصرين، مؤمنين به أو غير ذلك، من الأئمَّة أو من المستشرقين، فجميع آراء هؤلاء ليست هي الإسلام تمامًا، ليست النُّسخة الإلهيَّة المُحكَمة، ولا النُّسخة النَّبويَّة المُشرَّفة، وإنَّما نسخ إنسانيَّة عديدة، بأفهام مختلفة، ورؤى متباينة؛ فكُلّ فهم، أو رأي، مختلف بالضَّرورة عن سواه، وإن بدا متشابهًا لأوَّل وهلة، تمامًا كاختلاف بصمات الأصابع؛ وعليه فإنَّ محلَّ البحث عن جوهر الإسلام يجب أن يكون في النُّصوص التي تحتوي تعاليمه الإلهيَّة وتفاصيل رسالة نبيِّه ﷺ، أي: في رافدَين اثنين لا ثالث لهما: القرآن، والسُّنَّة.

أمَّا القرآن:

فهو بالنسبة للمسلمين كتاب الله المُحكَم، وكلامه تعالى الذي انطبع أوَّلًا على قلب النَّبيِّ مُحمَّد ﷺ قبل أن يلهج به لسانه مُخبِرًا عن مراد الخالق من خلق الكون والعباد.

وهذا التَّعريف البسيط للقرآن الكريم لا ولن يروق للملاحدة واللادينيِّين من مُقدِّسي العلم، الذي هو من وجهة نظرهم أصدق قيلًا من الدِّين؛ لأنَّه لا يتكلَّم بغَيبيَّات لا دليل نظريّ أو تجريبيّ يؤكِّد صِحَّتها، لا يُثبِت أو ينقض شيئًا إلَّا بعد نظر وتجريب مادِّيَّين، بأدلة إثبات أونقض ملموسة باليد، ومُشاهَدة بالعين، ومقيَّدة بالعقل، بعكس الدِّين الذي أُسُّه الرَّئيس الإيمان بالغَيبيَّات، وساحة عمله القلبيَّات والرُّوحانيَّات، وعليه فإنَّ صديقنا الملحد،

أو اللادينيّ، لا يرى دليلًا نظريًّا ملموسًا أو مُشاهدًا على أنَّ الكتب المُقدَّسة، ومنها القرآن، أُنزِلت من لدن الله، بل لا يرى أدِلَّة علميَّة على وجود الله أصلًا.

أمَّا المسلمون فلديهم أكثر من دليل ملموس ومُشاهَد ومُقيَّد على وجود الله، دَسَّها، عزَّ وجلَّ، بين ثَنيَّات قرآنه، وما كان لعقول ما قبل خمسة عشر قرنًا أن تستوعبها، لكن العلم الحديث كشف عن هذه المخبوءات القيِّمة باستدلالاته المادِّيَّة، فاطمأنت قلوب المسلمين أكثر إلى صِحَّة عقيدتهم.

من هذه الأدلَّة ما ورد في الآية القرآنيَّة التي قال الله تعالى فيها: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ...}[٢٥٠]. وقد سار علماء الطَّبيعة في الأرض بالعربات والقطارات والدَّبَّابات، وفتشوا السَّماء بالمسبارات وسفن الفضاء، فتوَصَّلوا إلى أنَّ الخلق بدأ بانفجار عظيم، أنتج الكون بسمواته وأراضينه، وما توَصَّلوا إليه لم يُضِف معرفة عِلميَّة ذات جوهر جديد إلى المسلمين، فالله تعالى قال لهم: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...}[٢٥١]. مع ذلك من الإنصاف الذي تحضّ عليه المروءة الشَّخصيَّة، قبل أن تحضّ عليه الأديان، هو عدم إنكار فضل علماء الطَّبيعة في تفسير هذه الآية عِلميًّا، ما جعل المسلمين، وبشكل علميٍّ، يعرفون أنَّ ما قاله الله في القرآن عن الخلق له وجود ملموس عِلميًّا، لا غيبيًّا فقط.

هذا التَّفسير العلميّ الذي جعل أحدهم، يُدعى خليل أحمد،

٢٥٠- آية ٢٠ من سورة العنكبوت / قرآن كريم.
٢٥١- آية ٣٠ من سورة الأنبياء / قرآن كريم.

وكان قَسًّا قبل إشهار إسلامه في ١٩٥٩، وحمل شهادات عالية في علم اللاهوت من كليَّة اللاهوت المصريَّة، ومن جامعة برنستون الأمريكيَّة، وعمل أستاذًا بكليَّة اللاهوت بأسيوط، يقول في كتاب له بعنوان: «مُحمَّد في التَّوراة والإنجيل والقرآن»: «وأعتقد يقينًا أنِّي لو كنت إنسانًا وجوديًّا، لا يؤمن برسالة من الرِّسالات السَّماويَّة، وجاءني نفر من النَّاس، وحدَّثني بما سبق به القرآنُ العلمَ الحديث - في كُلِّ مناحيه - لآمنت بربِّ العزَّة والجبروت، خالق السَّماوات والأرض، ولن أشرك به أحدًا»[٢٥٢].

فإذا لم يقتصر العلم على إثبات صحة نظرية نشوء العالم كما وردت بالقرآن الكريم، بل وأثبت بمعاييره النَّظريَّة والتَّجريبيَّة صحَّة أمور عِلميَّة أخرى أشار إليها هذا الكتاب المُقدَّس، فما الذي يمنع المسلمين من تصديق ما ورد فيه من أمور لا تُقاس إلَّا بمعايير القلب والرُّوح، وهي المعايير التي لا يمكن استبعادها إذا كنَّا بصدد النَّظر الفكريّ، فضلًا عن النَّظر العقائديّ.

فهذا الجسم البشريّ الماديّ الملموس يستحيل على الحياة أن تدبّ فيه دون روح، والرُّوح لا ماديًّ، ولا ملموس، ولا مفهوم، رُغم ذلك فإن كثيرًا من البشر يتمتَّعون بملكة فهم حاجات ومُقوِّمات هذا الرُّوح، والتي هي بدورها حاجات قِيَميَّة لا مادِّيَّة، ولا ملموسة، ولا مفهومة.

إذن؛ يُصدِّق المسلمون، بكامل إدراكهم العَقليِّ قبل إيمانهم القَلبيِّ، أنَّ القرآن هو كلام الله المُنزَّل على النَّبيِّ مُحمَّد ﷺ.

---

٢٥٢- كتاب «قالوا عن الإسلام» / عماد الدِّين خليل.

والإسلام في القرآن ليس على ما يفهمه معظم المسلمين اسمًا لدين، بل قيمة تَوحيديَّة عظيمة.

والمسلم في القرآن «هو كُلّ إنسان يؤمن بالإله الواحد الأحد، ويخضع له، ويُسلِّم به، سواء كان هذا الإنسان يدعو نفسه يهوديًّا أم مسيحيًّا أم مسلمًا. ولذلك فالقرآن يتحدَّث عن إبراهيم كمسلم في معناه الحقيقيِّ الأوسع»[٢٥٣]. خاصَّة وأنَّ مُحمَّدًا نفسه ﷺ أعلن في أكثر من مناسبة أنَّه وأُمَّته على مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام، وذلك بعد أن أمره الله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[٢٥٤] وما مِلَّة إبراهيم إلَّا أنَّه قال، بعد عمليَّة بحث مجهدة عن الله، وبحسب كلام الله تعالى:

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[٢٥٥]

ويمكننا ملاحظة أنَّ إبراهيم، عليه السَّلام، لم يقل: «إنِّي أسلمتُ وجهي»، بل قال: {إنِّي وَجَّهتُ وجهيَ}، وهي ملاحظة في غاية الأهميَّة، تلفت انتباهنا إلى أنَّ للتَّسليم الإيمانيّ معنى غير معنى الإذعان والخضوع الذي يُروِّج له كثير من العلماء والفقهاء حتَّى كادوا أن يقصروه معنى وحيدًا للإسلام! في حين ها هنا التَّسليم يعني التَّوَجُّه، أن يتوَجَّه المرء بكامل قناعته العَقليَّة ورضاه القلبيّ إلى الله، توجُّه المطمئنين المُحبِّين، لا توجه المُذعنين الخاضعين.

---

٢٥٣- ”الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة“ / مراد هوفمان.

٢٥٤- آية ١٦١ من سورة الأنعام / قرآن كريم.

٢٥٥- آية ٧٩ من سورة الأنعام / قرآن كريم.

وإذا كُنَّا نستنكر هذا النَّوع من التَّسليم لله، فإنَّا لا نستنكره كبرياءً ولا عجرفة، بل فهمًا للإسلام يربأ به أن يكون عقد إذعان وخضوع بين الله والمسلم؛ فالإذعان، بحسب تعريف مُحمَّد أمحزون، أستاذ التَّاريخ الإسلاميّ الوسيط بكليَّة آداب جامعة الوليّ إسماعيل بالمغرب، هو: «تغيير السُّلوك للخضوع لأوامر مباشرة لسلطة عليا. وهو سلوك إجباريٌّ تسعى السُّلطة من خلاله إلى ممارسة التَّأثير ومراقبة مدى خضوع الفرد لأوامرها»[٢٥٦]

والله ليس سلطة مُستبدَّة تفرض أيديولوجيَّتها السِّياسيَّة على الشَّعب بقوَّة الجيش أو الشُّرطة، لكنَّه خالق يعرض منهاجا سلوكيًّا على مخلوق حُرّ الإرادة في القبول أو عدمه، ومع العرض مُميِّزات لمن يقبله، ومحاذير لمن يرفضه، والإنسان حُرٌّ في تصديق الوعد، أو تكذيب التَّحذير، وعليه، فإنَّ من يُصدِّق ويؤمن ويقبل العرض لا يفعل ذلك مُذعنًا ولا خاضعًا، وإنَّما «توَجَّه» إليه مختارًا، وبطواعية حرَّة.

ثُمَّ إنَّ السُّلطة قد تستمرئ إذعان وإخضاع الجماهير؛ لأنَّها سلطة بشريَّة ناقصة بطبعها، يسعدها شعور القوَّة وقهر الآخرين، فتستعرض في سبيل ذلك مختلف أساليب البطش، إزاء بشر آخرين يمكن بدورهم أن يستبدّوا ويبطشوا لو واتتهم ظروف السُّلطة نفسها؛ لكن ما الذي قد يستمرئه الخالق عَزَّ وجَلَّ وهو الأعلى والأسمى والأجَلّ والأقوى من جميع مخلوقاته مُجتمعة إذا كان التَّسليم له يعني إذعانًا وخضوعًا؟

---

٢٥٦- مقالة بعنوان «آليات التَّبعيَّة .. التَّماثل والإذعان» / مجلة البيان .. العدد ٢٨٤.

فليس ثَمَّة مقارنة بين قُوَّة إرادة الخالق وقُوَّة إرادة المخلوق حتَّى يكون مراد الله من خلق الإنسان أن يُذعن ويخضع له! خصوصًا وأنَّ «الإذعان» و«الخضوع» فاعلان طوال الوقت، فهل للإنسان ـ أو لغيره ـ أن يريد، أو يفعل، خارج إطار المنظومة الإلهيَّة؟ خارج هذا الكون بسماواته وأراضينه؟ بالقطع لا، يستحيل عليه الخروج منها، سواء آمن بها باعتبارها منظومة إلهيَّة محكومة بإرادة الخالق، أم لم يؤمن؛ إذن الإنسان مُذعن خاضع للمشيئة الإلهيَّة بقانون الخلق الإلهيِّ أزلًا، لكنَّه ليس كذلك بخصوص العلاقة العقائديَّة بينه وبين خالقه، الذي هو أكرم وأعزّ وأجلّ من أن يعدُّ الإسلام خضوعًا وإذعانًا قهريَّين؛ لأنَّهما سلوكان يليقان بعبد مُسيَّر، لا يليقان بعابد مُخيَّر، إذ العبد مُكرَه على خدمة سَيِّده، أمَّا العابد فمُكرَّم في حضرة سَيِّده، تمامًا مثل قوم في حضرة سلطان، بعضهم يخدمه إذعانًا وخضوعًا؛ لأنَّهم عبيدُ خدمةٍ بالأساس، في حين يستضيف السُّلطان بعضهم الآخر، ويقوم على إكرامهم، مع أنَّ الجميع مواليه في سلطنته.

يذكر مُحمَّد أمحزون، بالمقالة السَّابقة، أيضًا: «**نحن إذا وضعنا مفهوم الإذعان في ميزان الشَّرع، فسنرى أنَّ هذا السُّلوك غير محمود، وغير مرغوب فيه؛ لأنَّه يعوِّد النَّاس على الذُّلِّ والاستسلام للباطل، وممارسة الظُّلم على غيرهم؛ إرضاءً لرؤسائهم وكبرائهم، أو خوفًا منهم..**».[٢٥٧]

ومن يقرأ القرآن يعرف أنَّ الله لم يوجِّه خطابه إلى المسلمين في أيِّ آية من آيات القرآن بصفتهم عبيدًا مذعنين خاضعين، بل

---

٢٥٧- مقالة بعنوان «آليات التَّبعيَّة .. التَّماثل والإذعان» / مجلة البيان .. العدد ٢٨٤

دائمًا ما خاطبهم باعتبارهم عبادًا مختارين طواعية، أمثلة: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} [٢٥٨]، و{قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ} [٢٥٩]، و{يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} [٢٦٠]، و{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} [٢٦١].

هكذا يبدو أنَّ التَّسليم في القرآن على معنى، وعند المسلمين على معنى!

وقد يُطابق بعضُ أفهام المسلمين المعنى القرآنيُّ، وقد لا يطابق، وليس في الأمر مشكلة إذا توقَّف عند حد عدم المطابقة، في حين يكون كذلك إذا تعَدَّى إلى محاولة إخضاع المسلمين للأفهام المختلفة بقوة السِّلاح، أو بالعنف الفقهيِّ، ما تكون نتيجته تشعُّب المسلمين إلى فرق ومذاهب متصارعة، ليتحوَّلوا من عبادٍ لله مُكرمين إلى عبيد لرؤوس سلطات دينيَّة متنافسة، يذعنون ويخضعون لمبادئهم الجائرة، فيهريقون دماءهم وهم يحسبون أنَّهم يُحسنون صنعًا، والحقُّ أنَّهم يُسيئون.

غير أنَّ إحساس المسلمين، الذين اهتدوا للإسلام من الأمم الأخرى شرقًا وغربًا، تجاه الإسلام ليس هو نفس إحساس المسلمين الأقحاح تجاهه من ساكني بلاد الإسلام في الوطن العربيّ، فمن نبت الإسلام بينهم، وورثوه أبًا عن جَدٍّ يستهويهم تفسير الإسلام باعتباره تسليمًا قَهريًا، وعليه يكون القرآن هو الدُّستور المُقدَّس للإذعان والخضوع! في حين أنَّ المهتدين للإسلام بعد قراءة

---

٢٥٨- آية ٥٣ من سورة الزُّمر / قرآن كريم.
٢٥٩- آية ١٠ من سورة الزُّمر / قرآن كريم.
٢٦٠- آية ٦٨ من سورة الزُّخرف / قرآن كريم.
٢٦١- آية ٦ من سورة الإنسان / قرآن كريم.

مُطوَّلة في الأديان، ومقارنة متأنَّية بينها، يرَون الإسلام وقرآنه على صفة غير هذه الصِّفة الاستبداديَّة.

فالإسلام: «من أهمّ ما أورثه للعالم المُتحضِّر قانونه الدِّيني الذي يُسمَّى الشَّريعة. والشَّريعة الإسلاميَّة تختلف اختلافًا واضحًا عن جميع أشكال القانون، إلى حدّ أنَّ دراستها أمر لا غنى عنه، لكي نُقدِّر المدى الكامل للأمور القانونيَّة تقديرًا كافيًا.. إنَّ الشَّريعة الإسلاميَّة شيء فريد في بابه، وهي جملة الأوامر الإلهيَّة التي تُنظِّم حياة كلّ مسلم من جميع وجوهها، وهي تشتمل على أحكام خاصَّة بالعبادات والشَّعائر الدِّينيَّة، كما تشتمل على قواعد سياسيَّة وقانونيَّة..» [٢٦٢]

والقرآن: «يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الدِّيني والقانون الأخلاقيّ، ويسعى إلى خلق النِّظام والوحدة الاجتماعيَّة، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنَّه يسعى إلى الأخذ بيد المُستضعَفين، ويوصي بالبرِّ، ويأمر بالرَّحمة.. وفي مادَّة التَّشريع وضع قواعدًا لأدقّ تفاصيل التَّعاون اليوميّ، ونظَّم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدَّد سلوك كلّ فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقَّاء والحيوانات والصُّحبة والملبس»[٢٦٣].

إذن، قد يكون التَّوجُّه لله تعالى طَوعًا، بقلب مُطمئن، دون إذعان أو إخضاع، من التَّعريف بالإسلام في القرآن.

قد يكون الإسلام هو: الغُدوُّ الإنسانيِّ إلى الله تعالى، والائتناس به.

---

٢٦٢- كتاب «تراث الإسلام» / جوزيف شاخت.

٢٦٣- مقولة لجاك ريسلر في كتاب: «قالوا عن الإسلام» / عماد الدين خليل.

أمَّا في السُّنَّة:

وردت رواية عن عمر بن الخطَّاب تُخبر بأنَّ عظيم الملائكة جبريل، عليه السَّلام، قد هبط يومًا إلى الأرض مُتَّخذًا هيئة بشريَّة، وجلس بين مجموعة من صحابة مُحمَّد ﷺ، مُتحلقِّين حوله، يتَعلَّمون منه دينهم، فقال له: «يا مُحمَّد أخبرني عن الإسلام»، فقال مُحمَّد ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ مُحمَّدًا رسول الله، وتقيم الصَّلاة، وتؤتي الزَّكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلًا» [٢٦٤]

وورد رواية أخرى عن عبدالله بن عمر بن الخطَّاب يقول فيها إنّه قد سمع مُحمَّدًا ﷺ يقول: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلَّا الله وأنَّ مُحمَّدًا رسول الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والحَجّ، وصوم رمضان». [٢٦٥]

والمُدقِّق في الرِّوايتين يلاحظ فارقًا جوهريًّا بينهما، ليس هو اختلاف الرَّاويين الأصليِّين للحديث، فعمر بن الخطَّاب راوي الحديث الأوَّل وابنه عبد الله راوي الحديث الثَّاني؛ ولا الفارق هو استبدال موقعَي ركنَي الصَّوم والحجّ في الرِّوايتَين؛ ولا هو ذكر الشَّرط اللازم لإتمام ركن الحجّ في الرِّواية الأولى في حين لم يُذكر بالرِّواية الثَّانية، فجميع ما سبق من فروق يمكن تفهُّمها دون إثارة ما لا يلزم من التَّفكير المُتأنِّي، لكن الفارق الجوهريّ المثير للتَّفكير العميق حَقًّا هو أنَّ مُحمَّدًا ﷺ، عرَّف الإسلام في الرِّواية الأولى باعتباره أركانًا تعبُّديَّة خمسة، فيكون الإسلام: شهادة، وصلاة،

٢٦٤- رواه البخاريُّ ومسلم.

٢٦٥- رواه البخاريُّ ومسلم.

وزكاة، وحجٌّ، وصوم. ولا غير؛ في حين قدَّم ﷺ الإسلام في الرِّواية الثَّانية باعتباره بناءً قائمًا على أركان تعبُّديَّة خمسة، ما يعني أنَّ هذه الأركان الخمسة ليست الإسلام بالكُلِّيَّة، بل جزءًا من تكوينه، على غير ما يُفهَم من الرِّواية الأولى.

ولرؤية هذه الصُّورة الذِّهنيَّة بشكل أوضح دعونا نضرب مثالًا افتراضيًّا:

قال رجل من عوام المِصريِّين لمهندس مِعماريٍّ: «أخبرني ما برج القاهرة؟»؛ فأجابه المهندس: «برج القاهرة هو قواعد وقوائم وسملَّات خرسانيَّة». لكنَّ مِصريًّا آخر سمع نفس المهندس يقول: «بُني برج القاهرة على قواعد وقوائم وسملَّات خرسانيَّة».

بدهيٌّ عند سماع أحدنا للرِّوايتَين أن يشعر بمنطقيَّة وعقلانيَّة الرِّواية الثَّانية؛ لأنَّ برج القاهرة، بكُلِّ تأكيد، ليس هو القواعد والقوائم والسملَّات الخرسانيَّة فقط، لكنَّه بناء آخر، له مواصفات أخرى، وإن لم يقم إلَّا على هذه المرتكزات.

إذن، إجابة السُّؤال: «ما الإسلام؟» لم تكتمل بعد، إذ لم ترشدنا قراءة هذين الحديثين الشَّريفين إلى أكثر من معرفة مرتكزات الإسلام ومؤسِّساته، والإحاطة بالمعمار المدفون في أرضيَّته، هذه الأركان الطَّقوسيَّة التي بإمكان المسلم تأديتها لله دون أن يراه أحد، مع ذلك ليست بذاتها من أعمال التَّعايش المُتبادَلة بين البشر، فالمسلم لن يشهد لغير الله تعالى بالوحدانيَّة، ولن يُصلِّي لجاره، ولن يصوم لزميل عمل، ولن يحجّ بيت أحد من أصدقائه.

هكذا يظلّ السُّؤال: «ما الإسلام؟» قائمًا.

ما البناء الذي شُيِّد على هذه المؤسِّسات؟

لم يرد في جميع أحاديث الصِّحاح السِّتّة تعريف مُحدَّد لمبنى الإسلام فوق الأرض، المُشيَّد على القواعد والمؤسِّسات، بغير الحديثَين الشَّريفَين المذكورَين، وعليه فإنَّنا سنحاول الوصول إلى غايتنا عبر قراءة أحاديث شريفة أخرى، دندنت حول ماهية الإسلام حتَّى إخالها استوفت مقصودها، وقدَّمت لنا التَّعريف المرجو للإسلام متكاملًا وغضًّا.

ونبدأ بما جاء في الصَّحيح من حديث الصَّحابي أبي موسى الأشعريّ، حيث قال: «قالوا: يا رسول الله، أيّ الإسلام أفضل؟» فقال ﷺ: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٢٦٦].

وهذا حديث عجيب، لأكثر من سبب.

أوَّلها: أنَّ الإجابة لم تكن على شرط السُّؤال الوارد به.

فالسُّؤال عن أفضل الإسلام، وكان على الإجابة أن تُنظِّر وتؤطِّر لـ«أفضل الإسلام»، فإذا بها تتجاوز التَّنظير والتَّأطير لتلتقي بالسَّائل مباشرة في خضم المعاملات اليوميَّة المُعاشة، البعيدة عن الأركان والطُّقوس والمؤسِّسات، فأفضل الإسلام هو «المسلم الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده!». وكأنَّ مُحمَّدًا ﷺ يسعى إلى تأكيد التصاق الإسلام بالمسلم، والمسلم بالإسلام، درجة تجعلنا نرى الإسلام هو المسلم، والمسلم هو الإسلام، وأن الإسلام ليس

٢٦٦- رواه البخاريُّ.

فكرة، أو أيديولجيَّة، يجمُل به التَّنظير والتَّأطير بقدر ما يجمل به أن يكون شخصًا يعمل بتعاليم الإسلام.

أمَّا السَّبب الثَّاني، فهو صيغة السُّؤال: «أيّ الإسلام أفضل؟»!

إنَّها صيغة تشي بأنَّ الإسلام جميعٌ، وأنَّ جميعه ليس على درجة واحدة من الأفضليَّة، مهما كان جميعه فاضلًا، ما يُعزِّز مبدأ العدالة في الإسلام، يُطبِّقها على جوهره قبل تطبيقها على المؤمنين به؛ لأنَّ الإسلام إذا كان هو نفسه المسلم، والمسلم هو نفسه الإسلام، فليس جميع المسلمين على درجة واحدة من الأفضليَّة، ليسوا سواء، وعليه فليس جميع الإسلام على درجة فضل واحدة، ولكن تتفاوت قيمة الأعمال الفُضلى بحسب تفاوت المجهود الذي بُذل فيها، وبحسب تفاوت مستويات الخطورة التي تعرَّض لها القائم عليها.

بالنِّهاية، قَدَّم لنا هذا الحديث جزءًا من التَّعريف بذات الإسلام وجوهره، التَّعريف بهذا المبنى الهائل الذي سيخدم جميع البشر، لا تعريفًا بأركانه ومؤسَّساته التي تهمّ المسلم فقط.

هذا الجزء يقول: «الإسلام هو: السَّلام».

ثُمَّ نُثنِّي برواية عبدالله بن عمرو بن العاص، يقول فيها إنَّه سمع رجلًا يسأل مُحمَّدا ﷺ، هذا السُّؤال: «أيُّ الإسلام خَيْر؟» فأجابه ﷺ: «تُطعِم الطَّعام، وتقرأ السَّلام على من عرفت ومن لم تعرف»[٢٦٧].

---

٢٦٧- رواه البخاريُّ ومسلم.

وعلى المنهاج نفسه الرَّافض للتَّنظير والتَّأطير، وفي الوقت ذاته حريص على تقديم الإسلام باعتباره أعمالًا خيريَّة، تُقدِّم لنا هذه الرِّواية معنى إضافيًا للإسلام، وهو: العطاء. وليس الإطعام تحديدًا. فكلّ ذي لُبٍّ يفهم أنَّ إطعام الطَّعام على جوع يطابق كَسْي الكُسَى على عُريٍّ، يطابق سقاية الماء على عطش، يطابق نجدة المستغيث على كرب.

ثُمَّ تمنحنا، هذه الرِّواية الثَّانية، معنى إضافيًا آخر، هو: أنَّ «العطاء» و«السَّلام» لا يجب أن يقصرهما المسلم على المسلمين دون غيرهم، كما يُفهَم من الرِّواية الأولى، التي تصف المسلم الأفضل بأنَّه من يسلم «المسلمون» من شَرِّه وأذاه، لكن هنا ـ في الرِّواية الثانية ـ السَّلام للجميع، لمن يعرفه المسلم، ولمن لا يعرفه؛ وعليه، إذا كان السَّلام للجميع، وهو أفضل العطايا، فمؤكَّد أن يكون ما دونه من عطايا، مثل الطَّعام والشَّراب والملبس للجميع، دون تمييز طبقيٍّ أو عقائديٍّ.

وهناك قِصَّة في المأثور الإسلاميِّ تُبيِّن أنَّ هذا الفهم الرَّفيق بالإنسان، دون تمييز طبقيّ أو عقائديّ، لم يكن بعيدًا عن أفهام المسلمين الأوائل

من الصَّحابة الكرام، تُروَى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب أنَّه مرّ ذات يوم بباب قوم وعليه سائل يسأل (مُتسوِّل)، وكان شيخًا كبيرًا ضرير البصر، فضرب (عمر) عَضُدَه من خلفه، وسأله: من أيِّ أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهوديٌّ. قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟! قال: أسأل الجزية والحاجة والسِّنَّ؛ فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله؛ فرضخ له بشيءٍ ممَّا في منزله (أطعمه) ثُمَّ أرسل إلى

خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته (شبابه) ثُمَّ نخذله عند الهَرَم (الكِبَر). فأعطاه من بيت مال المسلمين، وأمر عمَّاله في الأمصار بأن يفعلوا ذلك [٢٦٨].

ولنا في هذا الأثر ملاحظة: لقد أحسن عمر بن الخطَّاب للشَّيخ اليَهوديّ رغم التَّصريح القرآني الواضح بأنَّ اليهود والمشركين أشَدّ النَّاس عداوة للمؤمنين؛ هذا بالإضافة لكونه عمر -من أشرس الصَّحابة مسلكًا في البراءة من الكُفَّار والمشركين والمنافقين.

وهناك، أيضًا، من الأحاديث النَّبويَّة المُعرِّفة بالإسلام، حديث مرويّ عن سفيان بن عبدالله وقد سأل النَّبيَّ ﷺ أن يقول له في الإسلام قولًا لا يسأل عنه أحدًا غيره، يمكن اعتباره حديثًا عُمدة في التَّعريف بالإسلام [٢٦٩]. اختاره الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النوويّ ضمن الأربعين حديثًا المشهورة بالأربعين النَّوويَّة، وقد انتقى هذه الأربعين حديثًا شريفًا على شرط محدَّد سطره في مُقدِّمته، قال: «من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدِّين، وبعضهم في الفروع، وبعضهم في الجهاد، وبعضهم في الزُّهد، وبعضهم في الآداب، وبعضهم في الخُطَب، وكُلُّها مقاصد صالحة رضي الله عن قاصديها، وقد رأيت جمع أربعين أهمّ من هذا كلّه، وهي أربعون حديثًا مشتملة على جميع ذلك، وكُلّ حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدِّين، قد وصفه العلماء بأنَّ مدار الإسلام عليه، أو نصف الإسلام، أو ثلثه، أو نحو ذلك».

فماذا كان قول النَّبيِّ، صلَّى الله عليه وسلَّم، الفصل في الإسلام،

---

٢٦٨- كتاب «جامع الأحاديث» / الإمام السُّيوطيّ.

٢٦٩- رواه مسلم.

والذي لن يضطر بعده صاحبه سفيان بن عبد الله لسؤال غيره عنه؟

قال: «قل: آمنتُ بالله، ثُمَّ استقم»[٢٧٠].

ويصف كثير من العلماء هذا الحديث بأنَّه من جوامع كلم النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه: «أجمل (جَمَعَ) فيه ما فَصَّله في ثلاث وعشرين سنة»[٢٧١].

هكذا الإسلام، في هذا الحديث، على شِقَّين: إيمان وعمل، وروحهما الاستقامة.

على الإيمان أن يستقيم، فلا يؤمن المسلم بغير الله، عَزَّ وجَلَّ، رَبًّا وإلهًا. ثُمَّ بعد أن يستقيم إيمانيًّا يستقيم عمَليًّا، فيعمل الخير، الذي منه إطعام الطَّعام، وإلقاء السَّلام على من يعرف ومن لا يعرف.

وقُوَّة هذا الحديث ليس فقط في جامِعيَّة معناه، وبلاغة مبناه، ولكن كونه جزءًا من الشّفرة التي إذا تمكَّن المسلمون من فَكِّها وضعوا أيديهم على أحد مكامن قوَّة الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة، فهذا الحديث من النُّصوص الإسلاميَّة المُؤكِّدة على أنَّ الإسلام دينٌ لا يملك نبيٌّ، وإن كان مُحمَّدًا ﷺ نفسه، صكوك مِلكيَّته.

فالمسلم . بمنظور هذا الحديث الشَّريف ـ هو من يؤمن بالله، وفقط، أوَّلَا، ثُمَّ يستقيم ثانيًا، ولم يأتِ في نَصِّه أن يؤمن بمُحمَّد

---

٢٧٠- أخرجه مسلم.

٢٧١- مقولة للإمام أبو عبدالله محمد بن خليفة بن عمر التُّنسيّ الأُبِّيّ.

ﷺ نَبيًّا، ولا بغيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا، فغاية الأنبياء أن يقول النَّاس: «لا إله إلَّا الله». فإذا قالوها مُستجيبين لدعوة الأنبياء، أو مُستجيبين لوازع روحيٍّ داخليٍّ، صاروا مسلمين.

وكثير من الأحاديث الشَّريفة تُبيِّن أنَّ شهادة «لا إله إلَّا الله» وحدها كافية لإسلام المرء.

ونسوق هنا قِصَّة بديعة وردت بالحديث الصَّحيح تُقرِّب إلى القارئ مقصودنا بشكل أوضح، نضعها بتصريف بسيط لفهم أيسر.

ذُكِر أنَّ عِتْبان بن مالك، وكان من أصحاب النَّبيّ ﷺ، ومِمَّن شهد بدرًا مِن الأنصار، أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنِّي أنكرت بصري (ذهب بصره وأصيب بالعمى) وأنا أُصلِّي لقومي، فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم، لم أستطع أن آتي مسجدهم لأصلِّيَ لهم، فوددت يا رسول الله أنَّك تأتي فتصلِّي في بيتي، فأَتَّخِذُه مُصلًّى، فقال: «سأَفْعل إن شاء الله»؛ فغدا النَّبيُّ وأبو بكر حين ارتفع النَّهار، فوصلا بيت عتبان، فاستأْذن النَّبيُّ ﷺ، فأُذِن له، فلم يجلس حتَّى دخل البيت، ثُمَّ قال لعتبان : «أين تحبّ أن أُصلّي من بيتك؟« فأَشار عتبان إلى ناحية من البيت، فقام النَّبيُّ ﷺ، فكَبَّر، فصَفّوا خلفه، فصلَّى ركعتين، ثُمَّ سلَّم. ثُمَّ أراد عتبان أن يُكرم النَّبيَّ بطعام، فحبسه على خَزِيرٍ، وهو دقيق يُطبخ بشحم، فاجتمع في البيت رجالٌ مِن أهل الدَّار، فشعر أحدهم بأنَّ هناك من ينقصهم، واسمه مالك بن الدُّخْشُن،

فسأل عنه، فقيل له: ذلك منافق لا يُحبُّ الله ورسوله. فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا تَقُلْ (أي لا تصفه بالنِّفاق) ألا تراه قال: لا إله إلَّا الله يريد بذلك وجهَ الله؟» قال الرَّجل: اللهُ ورسولُه أعلم؛ لكنَّ بعضهم قال مؤكِّدًا نفاق ابن الدُّخشُن: فإنَّا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين! فقال ﷺ: «فإنَّ الله حرَّم على النَّار مَنْ قال: لا إله إلَّا الله، يَبْتَغِي بذلك وجهَ الله»[272] .

ها هنا نفهم من كلام النَّبيِّ مُحمَّد ﷺ أنَّ شهادة «لا إله إلَّا الله» وحدها، إذا صَدَّق بها المرء ابتغاء وجه الله، حتَّى دون إتباعها بشهادة أنَّ مُحمَّدًا رسول الله، كافية لتحريمه على النَّار.

وعن عثمان بن عفَّان أنَّ مُحمَّدًا ﷺ قال: «من مات وهو يعلم أنَّه لا إله إلَّا الله دخل الجنَّة»[٢٧٣].

ومن حديث أبي ذرٍّ الغفاري أنَّه ﷺ قال: «ما من عبد قال لا إله إلَّا الله ثُمَّ مات على ذلك إلَّا دخل الجنَّة». وللحديث تتمَّة تعني أنَّ من قال لا إله إلَّا الله دخل الجنَّة وإن سرق، وإن زنى، وإن شرب الخمر[٢٧٤].

وفي حديث معاذ بن جبل أنَّه ﷺ قال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنَّة»[٢٧٥].

وفي حديث أبي هريرة أنَّه قال: لمَّا توفِّي رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر، وكفر من كفر من العرب (فقرَّر أبو بكر قتالهم) فقال عمر

---

٢٧٢- رواه البخاريُّ ومسلم.
٢٧٣- رواه مسلم.
٢٧٤- رواه البخاريُّ
٢٧٥- رواه أبو داود، وصحَّحه الألبانيُّ.

(له): كيف تقاتل النَّاس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمِرت أن أقاتل النَّاس حتَّى يقولوا لا إله إلَّا الله، فمن قالها، فقد عصم منِّي ماله ونفسه»[٢٧٦]. إلى تتمَّة الحديث.

ثُمَّ تقتضي الأمانة الإشارة إلى وجود رواية أخرى لعبد الله بن عمر، اتَّفق عليها الشَّيخان أيضًا، أُردِفت فيها مقولة: «وأنَّ مُحمَّدًا رسول الله»؛ بعد شهادة التَّوحيد، لكنَّها روايةٌ غيض من فيض، ولا نترك الفيض لنقيس على الغيض، بل العقل يقتضي الاحتكام إلى ما شاع وتواتر وتدفَّق.

كما اتَّفق الشّيخان على أنَّ صحابيًّا اسمه أبو أيّوب قال: إنَّ رجلًا قال للرَّسول صلَّى الله عليه وسلم: أخبرني بعمل يُدخلني الجنَّة؛ قال: «تعبد الله ولا تُشرك به شيئًا، وتُقيم الصَّلاة، وتؤتي الزَّكاة، وتصل الرَّحم».

ولا أظنُّ أنَّنا بحاجة إلى جمع كلّ أحاديث هذا الباب كي نثبت وجهًا صحيحًا للمفهوم الذي نبتغيه لإسلام الألفيَّة الثَّالثة، فنحسب أنَّ ما استشهدنا به فيه من القوَّة ما يجعله كافٍ وزيادة.

وبِناءً على ما سبق، أُلفت الانتباه إلى أنَّنا لم نكن بصدد مدارسة مسألة فقهيَّة تتعلَّق بأن كانت شهادة التَّوحيد وحدها كافية لدخول الجنَّة دون عمل صالح يتبعها، إذ لم يبعد عَنَّا الحديث أعلاه «قل آمنتُ بالله، ثُمَّ استقم»، والذي يُقرِّر ضرورة لزوم شهادة التَّوحيد بالعمل الصَّالح، بل كنَّا بصدد مدارسة مسألة أخرى أهم وأخطر بالنِّسبة لمستقبل الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة،

---

٢٧٦- رواه البخاريُّ ومسلم.

هي:

هل يكتمل إسلام المسلم إذا قصر شهادته على وحدانيَّة الله، دون إرفاقها بالشَّهادة لرسوليَّة النَّبيِّ الذي بلَّغها؟ هذا الإرفاق الذي يبدو. في السِّياق العامّ للأحاديث الشَّريفة المُثبتة لكفاية شهادة التَّوحيد،

دون الشَّهادة المثبتة لرسوليِّة النَّبيّ. كالنَّغمة النَّشاذ، تهبط بالأداء الهاروموني لمعنى الإسلام من رحابة العموم البشريّ، واتِّساع وحدة الإنسانيَّة، وشيوع الانتماء، إلى ضيق التَّخصيص، وغلظة الحمية، وسذاجة الانتساب.

# الفصل العاشر

مغزى الصَّلاة الإبراهيميَّة قبل كلِّ تسليم. أوجه الشبه بين إبراهيم ومُحمَّد عليهما الصَّلاة والسَّلام. الأمر: اقرأ، وكيف تكون القراءة. أهميَّة العقل. وجهة نظر في لماذا عُدَّ الإسلام خاتمًا للدِّين. محمد ﷺ بعيدًا عن الرسالة. الكمال لله وحده أم للأنبياء أيضًا؟. أيهما أهمّ بالنِّسبة للمُرسِل: الرَّسول أم المُرسَل إليه؟. المسلمون وتقليد الأمم السَّابقة عليهم.

قبل نهاية كلّ صلاة، يقوم المسلم، تقليدًا لمُحمَّد ﷺ، بتلاوة دعاء قصير، يُصلِّي فيه على النَّبيِّ إبراهيم وآله بنفس القدر الذي يُصلِّي به على مُحمَّد وآله. وربما يقوم المسلمون، في مختلف أنحاء المعمورة، بتلاوة هذا الدُّعاء دون تفكير في الدَّافع الذي جعل النَّبيّ ﷺ، امتثالًا للوحي السَّماويّ، يختار إبراهيم عليه السَّلام، دون جميع الرُّسل قبله أو بعده، موضوعًا لهذا الدُّعاء.

وكنت، مثل عموم المسلمين في هذا الأمر، حتَّى قبل بضع سنوات، عندما أخذت بالتَّفكير في هذا الأمر بينما أكتب روايتي «انحراف حادٌّ»، حيث قادتني الحبكة الأدبيَّة إلى التَّفكير في هذه المسألة: لماذا إبراهيم، عليه السَّلام، لا أحدًا غيره؟

هل لأنَّه الجَدُّ الأكبر للرُّسل الثَّلاثة أصحاب الدِّين الإبراهيميّ بظهوراته الثَّلاثة: اليهوديَّة ونبيُّها موسى، والمسيحيَّة ونبيُّها عيسى، والإسلام ونبيُّه مُحمَّد؟

لم أطمئنَّ لهذه الإجابة؛ لأنَّها تكشف عن مجرَّد دافع شخصيٍّ عائليٍّ محدود، والإسلام أبعد ما يكون عن التَّرسيخ لهذه العَصبيَّات القَبليَّة المحدودة إذا كان موحًى به من الله جَلَّجَلَالُهُ عالميًّا للبشر جميعًا؛ ما كان معه أن قمت بمراجعة قصَّة حياة إبراهيم، عليه السَّلام، ذات التَّفاصيل الغرائبيَّة العجيبة، والنَّاضحة ـ على غرائبيَّتها ـ بدروس عظيمة الأهميَّة، لو أدرك الإنسان مدلولاتها لصار شأنه أنجع من شأنه الحالي، وكانت وقائع رحلة بحث ذلك النَّبيّ الجليل، عليه السَّلام، عن الله أهمّ تفاصيلها على الإطلاق؛ لأنَّها الوقائع التي لم تُبْنَ على إيمان غيبيٍّ بالله يمكن للمنكرين إنكاره، بل رُتِّبت ترتيبًا عقليًّا بحتًا.

بدأت وقائع رحلة البحث عن الله في لحظة ما، اكتمل عندها النُّضح العقليُّ لإبراهيم، عليه السَّلام، فأدرك أنَّ قومه يعبدون أصنامًا قُدَّت من أحجار صلدة، لا تسمع، لا تبصر، لا تتجاوب، حتَّى لا تذبّ عن نفسها الطَّيور المُحلِّقة إذا ألقت فضلاتها عليها؛ ووجد أباه (أو عمَّه) آزر ـ مثل الجميع ـ سادرًا في ذلك الغيِّ الأحمق.

هنا علينا الانتباه إلى أنَّ ها هم أكثر النَّاس حول إبراهيم، منهم الآباء والأجداد، قد استقرَّت عقيدتهم على إيمان خاطئ، وعلى خطئها فإنَّ استقرارها في نفوسهم، دون محاولة منهم لمناقشتها، زاد من رسوخها في وجدانهم؛ ليتولَّوا بعد ذلك تبرير الخطأ لأنفسهم عاطفيًّا، بحيث إنَّ إبراهيم، عليه السَّلام، لم يناقش آزر مرَّة فتمكَّن من إقناعه بوجهة نظره المنطقيَّة، بل دائمًا ما كان آزر يحتجّ عليه بأنَّ هذه الأصنام ليست أصنامًا كما يظنّ، بل آلهة مُكرمين، عبدها الآباء الأقدمون، هي الإرث الدِّينيُّ الأبويُّ، الذي

لا يصحَّ النَّظر فيه بشكٍّ، ولا نقاشه بعقل، فضلًا عن تسفيهه، أو الحطّ منه.

وكان مُحمَّد ﷺ قد مرَّ بنفس المرحلة الفكريَّة الرَّافضة لما عليه قومه من عبادة الأصنام المصفوفة حول الكعبة، داخل بيت الله الحرام؛ وعندما دعا قومه إلى ترك هذه العبادة المعيبة، وإلى توحيد الله جَلَّجَلَالُهُ، جوبه بالرَّفض الشَّديد من أهل مكَّة، ومن أهله الأقربين، حتَّى عمَّه أبو طالب الذي ربَّاه، وحنى عليه أكثر من ثلاثين عامًا، رفض دعوته أيضًا، وكانت حُجَّتهم جميعًا نفس حجّة قوم إبراهيم، عليه السَّلام: إنَّا وجدنا آباءنا على هذه العبادة، وإنَّا على آثارهم دون نقاش[٢٧٧].

والآن، إذا نظرنا إلى حالنا بصفتنا مسلمين، في أوَّل الألفيَّة الثَّالثة بعد ميلاد المسيح، عليه السَّلام، نجد أنَّ من يطالب بتجديد الفقه الإسلاميّ يُجابَه بعَنت من نوعية العنت ذاتها الذي جوبه به كلٌّ من إبراهيم ومُحمَّد، وغيرهما من الرُّسل والأنبياء، عليهم جميعًا الصَّلاة والسَّلام، وتُشهَر في وجوههم ذات الحجَّة العاطفيَّة نفسها، مع اختلاف بسيط في التفاصيل، فالمسلمون لا يزالون يوحِّدون الله، لكن كثير منهم يضع ثقته في وسائط يعتقد أنَّها تشفع له عند الله جَلَّجَلَالُهُ، تمامًا كما وضع المشركون الأوَّلون الأصنامَ وسائط، يعبدونها لا لذاتها، بل لتقربهم إلى الله زلفى[٢٧٨]، كما لا يعبد مريدو الصُّوفيَّة أشياخهم لذواتهم، وإنَّما يتبرَّكون بهم تقرُّبًا إلى الله، وهو زعم السَّابقين من أهل الكفر، وزعم اللاحقين

٢٧٧- انظر الآية ٢٣ ـ سورة الزُّخرف / قرآن كريم.
٢٧٨- انظر الآية ٣ ـ سورة الزُّمر / قرآن كريم

من المسلمين الغُرّ؛ فإذا حاول الأنبياء قديمًا، أو صحيحو الإيمان حديثًا، رتق هذا الفتق، اتُّهِموا بالتَّعنُّت، والبعد عن قويم الدِّين، حتَّى إنَّهم قد يُطارَدوا، ويُقبَض عليهم، ويُزجّ بهم في السُّجون.

أمَّا إبراهيم، عليه السَّلام، فقد غادر عقيدة قومه، وذهب يبحث عن الله، الذي بالتَّأكيد هو خالق كلَّ شيء حوله، وكان قد وعى بعقله، أنَّ تلك التَّماثيل فاقدة الحياة، المنحوتة بيد بشر، لا يمكنها خلق هذه الحياة المُتدفِّقه في كلِّ مكان حوله، وأنَّ هذه العظمة المُحيطة به لا يمكن إيجادها إلَّا بواسطة حَيٍّ مُرتِّب مُنظِّم خالق عظيم، فأين هذا الخالق العظيم؟

أين الله؟

ليصل إلى إجابة تروي ظمأه لم يكن بدٌّ من إعمال عقله.

فكَّر في الشَّمس والقمر متساميا العلوّ، فلمَّا رآهما يأفلان علم أن ليس منهما صالحًا ليكون الله جَلَّجَلَالُهُ؛ ولمَّا لم يجد كائنًا منظورًا أو ملموسًا لا يُنقِصه العوار، ويطمئن القلب إلى قدرته، وجَّه وجهه للَّذي فطر السَّماوات والأرض[٢٧٩]، وإن لم يكن يراه. وتلك هي الهداية العقليَّة الفذَّة، الأثبت يقينًا من أيِّ هداية عاطفيَّة.

فالهداية العقليَّة هداية العلماء، وهي أثبت كثيرًا من هداية غيرهم.

وكذلك ـ مثل إبراهيم عليه السَّلام ـ غادر مُحمَّد ﷺ عقيدة قومه، وأخذ يبحث عن الحقّ، غير أنَّ بحثه ﷺ أشقّ؛ لأنَّ حنيفيَّة إبراهيم كانت قد اندثرت تمامًا، وظهرت ديانتان تزعمان التَّوحيد

٢٧٩- انظر الآية ٧٩ ـ سورة الأنعام / قرآن كريم.

ولا توحيد صافٍ فيهما على الحقيقة، بعد أن حرَّفه كهنتهما ورهبانهما؛ فأين الحقّ؟

أين الله؟

وليصل إلى إجابة تشفي تروي ظمأه كان لا بُدَّ له من إعمال عقله، فانطلق يعتزل النَّاس فترات، ويعكف وحيدًا في جبل ثور، داخل غار حراء، الذي يبعد عن مكَّة مسافة فرسخين كاملين، يقضي هناك الأيَّام الطَّويلة مُتأمِّلا ومُفكِّرا؛ وأخيرًا أخيرًا، وقد أخذته سِنة من نوم،

يرى مَلَكًا مهيبًا، يضمه بقوَّة، لثلاث مرَّات متتالية، أوشك معها على الاختناق، وفي كلِّ مرَّة يطالبه بالقراءة[٢٨٠].

والقراءة أهمُّ أسٍّ من أسس التَّفكير العقليّ، وربما لهذا السَّبب كان أوَّل ما قدَّمه الله جَلَّجَلَالُهُ لآدم، بعد خلقه مباشرة، التَّعليم[٢٨١].

ويُتحصَّل التَّعليم بالقراءة أوَّلًا، أن يقرأ المرءُ بنفسه، أو يُقرَأ له. وقد قرأ الله لآدم، وقرأ المَلَك الكريم لمُحمَّد ﷺ، وظلَّ يتنزَّل عليه الوحي، ويقرأ له، حتَّى انتقل إلى الرَّفيق الأعلى جَلَّجَلَالُهُ.

والقراءة فعل عقليٌّ بجدارة، بحيث إذا استطاع القارئ الحفاظ على نقاء عقلانيَّته أثناء القراءة أمكنه بناء عقله على أسس قويَّة من الوعي والفهم. فالقراءة بعقلانيَّة تزيل الرَّواسب الفكريَّة والعقائديَّة الضَّارَّة، وتمحو الصَّدأ عن الإيمان، فتعيد إليه ألقه

ونفعه، ما يمنح القارئ العَقلانيّ مساحات رحبة من الحُريَّة اللازمة

---

٢٨٠- انظر سورة العلق / قرآن كريم.

٢٨١- انظر الآية ٣١ ـ سورة البقرة / قرآن كريم.

للحياة بشكل صِحيٍّ سليم. فإذا ما شابت العاطفيَّةُ فعل القراءة، ردَّت القارئ إلى حمية الجاهليَّة الأولى، فتجده يرفض ما يخالف رواسب فكره، ويحارب ما لا ينتمي إلى مُقيِّدات عقله، لا لشيء سوى أنَّ هذا الجديد لا يقرّ ما نشأ عليه واعتاده، فيظلّ ـ بهذه الحال ـ عبد إيمانٍ واهٍ مُتخلِّف عتيق، خطَّه له الآباء الأقدمون، فقدَّسه تقديس آزر والد (أو عم) إبراهيم عليه السَّلام، وتقديس أبي طالب عمّ مُحمَّد ﷺ، النَّبيَّان اللذان جاءا بالجديد الحُرّ، منافيا للقديم الغرّ.

طالب المَلَكُ الكريم مُحمَّدًا ﷺ بأن يقرأ باسم ربِّه الذي خلق الإنسان من علق؛ ومع أنَّ هذا الإنسان خُلِق من علق، فإنَّ الله الأكرم علَّمه ما لم يكن يعلم، وهداه إلى القلم.

وهكذا، وَضَعَت أوَّلُ آيات القرآن مُحمَّدًا ﷺ أمام أصل الإسلام العظيم، فوعيه بعدُ أجمل إيعاب، ليتشبَّع بإيمانٍ نقيٍّ منحه من قدرات الله جَلَّجَلَالُهُ؛ لم لا وقد أخبره اللهُ جَلَّجَلَالُهُ بأنَّ العبد المسلم إذا حرص على التَّقرُّب إليه بالعبادات والطَّاعات تتزوَّد أعضاؤه بقدرات إلهيَّة[٢٨٢].

هكذا القراءة في الإسلام، مشروطة باسم الله الخالق؛ أن يقرأ المسلم تحت مظلَّة وعيٍّ إلهيَّة، تحميه من أفكار السَّموم، ليذهب ويروح تحتها يجوب بين أشدّ مناطق الفهم خطورة، مع ذلك لا خوفٌ عليه ولا هو يحزن من شكٍّ أو تخوُّف إيمانيٍّ. تمامًا مثل إبراهيم، عليه السَّلام، الذي مارس الشَّكَّ رغبة منه في تأكيد

٢٨٢- انظر حديث أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب.....» / أخرجه البخاريُّ

الإيمان، لا ذلك الشكّ المقيت الرَّاغب في هجر الإيمان؛ وكان إبراهيم، عليه السَّلام، بحسب الرِّواية القرآنيَّة، سأل الله أن يُريَه كيف يُحيي الموتى، مؤكِّدًا على أنَّه يريد ذلك فقط كي يطمئن قلبه. ولم يُعنِّفه الله الأكرم، بل أجابه فيما سأل.

إذن، بسؤال إبراهيم، عليه السَّلام، الله جَلَّجَلَالُهُ عن كيفيَّة إحياء الموتى أجاز القرآن للمسلم التَّعامل بأريحيَّة مع منتجات القراءة العقلانيَّة من شكٍّ، ومناقشة، وجدال، كي يطمئنّ قلبه في النِّهاية. فالإنسان، مهما قرأ على غير شريطة الإيمان بالله خالقًا، ومهما أوتي من قدرات عِلميَّة، هو مخلوقٌ من علقة مذرة، هيِّنة وضعيفة، لا حول لها ولا قوَّة بذاتها؛ إذ حتَّى مع ما يدَّعيه الإنسان لنفسه من علم، فإنَّه - ويا للمفارقة الدَّالة لأولى البصائر - لم يصنع آلة التَّعلُّم بنفسه، هذا العقل الجبَّار، بل وُلِد وقد رُكِّبت فيه تركيبًا دَرَجًا، ممنوحة له هديةً كريمةً من خالقه، أداة للتَّعريف به جَلَّجَلَالُهُ، من أجل التَّواصل بينهما إيمانيًّا.

على قاعدة هذا العقل المُؤسَّس بالقراءة والقلم أقام مُحمَّد ﷺ دعوة الإسلام. هذا العقل الذي سبق وأن اهتدى به جدُّه إبراهيم، عليه السَّلام، إلى الحنيفيَّة السَّمحة، تلك التي حرص النَّبيُّ ﷺ على تأطير الإسلام بها، وتقديمه للنَّاس مُعطَّرًا بشذاها.

وحثًّا على احترام العقل، ووجوب تفعيله، وتذكيرًا يوميًّا للمسلمين بأهميَّته البالغة في ترسيخ الإيمان، فرض الوحيُ الإلهيُّ على مُحمَّد ﷺ هذا الدُّعاء لإبراهيم، عليه السَّلام، ومن ثَمَّ على المسلمين جميعًا، قبل نهاية كلّ صلاة، احتفاء بذكرى النَّبيَّ الذي اهتدى إلى الله بعقله فقط، دون أيّ معونة إلهيَّة من نوعيَّة المعجزات

الرَّبانيَّة أو الرُّؤى الاسترشادية.

وأحسب أنَّ الإسلام في نسخته المُحمَّديَّة هو خاتم الدِّين كلِّه؛ لأنَّه قدَّم معجزته كتابًا ملموسًا مقروءًا، بإمكان البشر التَّفاعل معها إيمانًا أو كفرًا؛ ولأنَّه، أيضًا، دعا إلى إعمال العقل، ولم يعتمد المعجزات إلَّا على سبيل القَصص عن الأنبياء السَّابقين، بخلاف ذلك ليس لمُحمَّد ﷺ معجزة من تلك النَّوعيَّة الخارقة للطَّبيعة والطَّبائع، كالحياة بسلام داخل لجَّة نيران متأجِّجة، أو شقّ البحر بعصا، أو إحياء الموتى؛ وجميع ما نُسِب إليه من معجزات خوارقيَّة قد لا يكون صحيحًا، ربما مُختَرَعات أنشأتها طبيعة المسلم التي حذَّر منها مُحمَّد ﷺ، عندما أخبر، آسفًا، بأنَّ أُمَّته ستولع بتقليد اليهود والنَّصارى، حتَّى إذا دخلوا جحر ضبٍّ دخلت

أُمَّته وراءهم[٢٨٣]، على ما يسود جحر الضَّبِّ من ظلام وخطورة. وكأنَّ المسلم لا يعتقد دينًا قويمًا هدفه إرشاد روحه إلى التَّميُّز والرُّقي، بل يعتقد دينًا ضعيفًا هشًا، لا هدف له سوى تقليد غيره، ولسان حال مثل هذا المسلم العاطفيّ، الأبعد عن العقل والمنطق، هو الانتصار لمُحمَّد ﷺ عبر اختراع معجزات خارقة للطبيعة، ونسبتها إليه، إذ (من وجهة نظره الهَشَّة) لا يصحّ أن يكون لمن سبقه من الأنبياء والرُّسل خوارق ولا يكون له منها شيء؛ إنَّه الولع بالتَّقليد. ولم ينتبه هذا المسلم العاطفيّ إلى أنَّ الدِّين غضٌّ مرن، كائن حيٌّ ينمو بنمو البشريَّة، وأنَّ ما كان لائقًا بزمان ليس بالضَّرورة يليق بغيره من الأزمنة؛ أليس المرء، إذا

٢٨٣- انظر حديث أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتَّبعنَّ سنن من كان قبلكم....» / أخرجه البخاريُّ :

بلغ الشَّبابَ، لا يمكنه ارتداء ملابسه التي ارتداها طفلًا، مع أنَّها ملابسه! هكذا الدِّين، كانت النُّسخة المُحمَّديَّة للإسلام هي النُّسخة اللائقة ببشريَّة بلغت طور النُّضوج العقليّ، تحتاج خطابًا عقلانيًّا، يبلِّغه رسول عقلانيٌّ، بوسائل عقلانيَّة.

وحفاظًا على عقلانيَّة الإسلام، وحمايته من عوامل الأسطرة، حرص مُحمَّد ﷺ، كلَّما هابه أحدُهم، على تأكيد أنَّه رجل كانت أُمُّه تأكل القديد بمَكَّة[٢٨٤]. كما حذَّر المسلمين المتخاصمين لديه من تقديم أدلَّة قوليَّة مُزوَّرة بين يديه، فيحكم لمن لا يستحقّ[٢٨٥]، بل إنَّه نسي مرَّة من الصَّلاة، فنبَّهه بعض مأموميه، فأتمَّها، ثُمَّ أخبرهم بعبارة مباشرة أنَّه بشر مثلهم، وينسى مثلهم[٢٨٦]؛ ما يعني أنَّه لم يحرص قطُّ على أن يُرسِّخ في عقول المسلمين الأوَّلين أنَّه يمضي بين النَّاس بقدرات إلهيَّة إعجازيَّة، لا يأتيها الخطأ من أمام أو من خلف، بل قد يخطئ القضاء إذا كان الظَّالمُ ماهرًا في قلب الباطل حقًّا، وينسى من الصَّلاة، وغيرها.

وواقعة تعديل مكان جيش المسلمين في بدر مشهورة، عندما ركز النَّبيُّ ﷺ الجيشّ في موقع رأى الحَبَّاب بن المنذر أنَّ موقعًا غيره أفضل، فسأل النَّبيَّ ﷺ عمَّا إذا كان نزوله في هذا الموقع بوحيٍ من السَّماء، أم يمكن لهم إبداء الرَّأي؟ فلم يتردَّد مُحمَّد ﷺ في

---

٢٨٤- من مرويَّات عقبة بن مسعود، قال: «أتى النَّبيَّ ﷺ رجلٌ..»/ أخرجه ابن ماجه.

٢٨٥- من مرويَّات أمّ سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما أنا بشر..»/ أخرجه البخاريُّ

٢٨٦- من مرويَّات عبدالله بن مسعود، قال: «صلَّى النَّبيُّ ﷺ...» / أخرجه البخاريُّ ومسلم.

توضيح أنَّ الأمر رأيٌ، لا وحيًا[٢٨٧]؛ ليقضي بذلك على أيِّ فرصة تسنح لأسطرة الإسلام ونَبيِّه، وتحويلهما إلى ساحتين واسعتين لخوارق ومعجزات انقضى أوانها ببلوغ الإنسانيَّة سن الرُّشد.

والوقائع الدَّالة على رفض النَّبيّ ﷺ لأسطرة شخصيَّته كثيرة في الأحاديث النَّبويَّة، غير أنَّ هذا الحرص لم يكن شأنًا نبويًّا فقط، بل كان شأنًا إلهيًّا أيضًا، فتنزَّل القرآن بآيات عديدة تأكِّد بشريَّة مُحمَّد ﷺ، وأنَّه يموت مثل البشر، أو يقتل[٢٨٨]، ويأكل الطَّعام، ويمشي في الأسواق[٢٨٩]، أي يقع عليه ما يقع على البشر، ويحتاج إلى ما يحتاجه البشر.

وهنا يمكن للبديهة الحاضرة طرح سؤال افتراضيٍّ، من ذلك النَّوع المباغت المقلق للعقول المستكينة للمفاهيم المُسبَقة: ما الأهمُّ بالنِّسبة للقصد الإلهيّ: هداية البشريَّة إلى تقديس الله وتنزيهه من كلِّ خطأ، حيث التَّوحيد وما يصاحبه من حقٍّ وخير وجمال، أم تقديس الرُّسل وتنزيههم من كلِّ خطأ، حيث بذرة الشِّرك بالله جَلَّجَلَالُهُ وما يصاحب إنباتها من ضلال وشرٍّ وقبح؟

فتقديس الله توحيد مطلق، وتقديس الرُّسل شروع في الشِّرك، إذ أصل كلّ شرك هو هذا المبدأ الذي أوضحه القرآن على لسان المشركين وهم يُسألون عن سبب عبادتهم لمن هم دون الله جَلَّجَلَالُهُ، فيجيبون: {ما نعبدُهُم إلَّا ليُقرِّبونَا إلى اللهِ زُلفَى}[٢٩٠].

٢٨٧- انظر: غزوة بدر الكبرى / سيرة ابن هشام.
٢٨٨- انظر الآية ١٤٤ ـ سورة آل عمران / قرآن كريم.
٢٨٩- انظر الآية ٧ ـ سورة الفرقان / قرآن كريم.
٢٩٠- انظر الآية ٣ ـ سورة الزُّمر / قرآن كريم.

وإذا كانت الجماعات البشريَّة استطاعت، على فترات طويلة من التَّاريـخ الإنسانيّ، مواصلة الحياة دون رسل، وأمكنها الإحساس بوجود الخالق دون رسل، فعبدت مُوجدًا ومُدبِّرًا للعالم المُحيط بها في تجليَّات إلهيَّة شتَّى، منها الحيوانيّ، ومنها الإنسانيّ، ومنها الجماد، فاخترعت بذلك ديانات أشبه ما تكون بالشَّعبية العشوائيَّة، لكن تلك الدِّيانات، على سذاجتها، أمكنها تنظيم حياتهم بالقدر اللازم لضبطها. فإذا كان الأمر على ذلك، لنا هنا إضافة سؤال آخر مُربِك: أيُّ طرفي العلاقة الإيمانيَّة أهمّ: عموم النَّاس (الشُّعوب)، أم خاصَّتهم (الرُّسل)؟

وبمزيد من التوضيح: أيُّهما أهمّ: المُرسَل إليه، أم الرَّسول؟

في محاولة تقديم إجابة عقلانيَّة لهذين السُّؤالين نُقرُّ أوَّلًا حقيقةً لا يُقرّها كثير من المُتكلِّمين في الشُّؤون العقائديَّة، وهي أنَّ القصد الإلهيَّ لا يعلمه إلَّا الله جَلَّجَلَالُهُ وحده، ولا يمكن لبشري، خُلِق بعقل محدود الإمكانيَّات، استيعاب القصد الإلهيَّ بتمامه، مهما أوتي من علم. ربما نفهم بعض ما أراد الله جَلَّجَلَالُهُ لنا فهمه من قصده في الخلق، مثل أنَّه جَلَّجَلَالُهُ قد خلق الجنَّ والإنس ليعبدوه، أو أنَّه جَلَّجَلَالُهُ أراد خليفة في الأرض، أو غيرها من المقاصد الإلهيّة القريبة من الذهن البشريِّ المحدود، بخلاف ذلك فإنَّ الحماقة صفة من يتكلَّم في القصد الإلهيِّ بثقة وكأنَّه قد أُحيط بالله علمًا! وهكذا عندما نتكلَّم ـ هنا ـ عن القصد الإلهيِّ، فإنَّنا نحاول الفهم، لكن لا نقرِّر حقائق.

وعليه؛ فإنَّ معيار العقل البشريِّ ـ الذي بقدر وعيه، بالضَّبط، وُضِعت مقادير الحكمة بين النَّاس ـ يقتضي فهم أنَّ الشَّعب أهمّ

من الفرد؛ وأنَّ الفرد، حين يُرسَل إلى الشَّعب، فذلك لأنَّ المُرسِل (وليكن، على سبيل المثال، مَلِكًا) يريد مراسلة شعبه بخطاب ساميٍّ، فيكلِّف من يحمل خطابه إليهم بذلك؛ هكذا نجد أنَّه في الوقت الذي «شرَّف» المَلِكُ شعبه بالمخاطبة السَّامية، فإنَّه «كلَّف» رسوله بمهمَّة إبلاغها، و«التَّشريف» أجلُّ وأسمى من «التَّكليف»، ما يعني أنَّ للشَّعب عند المَلِك أهميَّة تفوق أهميَّة رسوله، وأنَّ رسوله لم يكتسب أهمِّيته إلَّا لكونه مُبلِغًا عن الملك إلى شعبه. وعليه، فإنَّ القصد الإلهيَّ، من منظورنا، قد اهتمَّ طيلة التَّاريخ الإيمانيّ بعموم البشر، لا بخواصِّهم من الأنبياء والرُّسل؛ لأنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ استهدف البشر بشرف التَّراسل الإلهيّ، في حين كلَّف رسله بتوصيل الرِّسالة.

نعود إلى مجال التِّقنيَّات الصناعيَّة، الذي استعنَّا به في أوَّل الكتاب، على سبيل ضرب الأمثلة لتقريب الفهم، ونقول: إذا كان بإمكان الجهاز التِّقنيّ العمل بكفاءة دون كُتيِّب تشغيل؛ وأنَّ كُتيِّب التَّشغيل لا يُمثِّل قيمة في ذاته إذا لم يُوجِد رفقة الجهاز خاصَّته؛ وإذا كان للجماعات البشريَّة استطاعةُ مواصلة الحياة، وإمكانيَّة التوصُّل إلى طريقة ما لعبادة خالق مُحتمَل، في حين لا دور للرُّسل إذا لم تُوجَد الجماعات البشريَّة، فإنَّ العقل يُرجِّح أهميَّة المُرسَل إليهم على أهميَّة المُرسَلين إليهم.

بيد أنَّ ما نظنُّه من رجحان أهميَّة الجماعات البشريَّة على أهميَّة المُرسَلين لا يعني إنكار الأهميَّة العظمى لدورهم كرُسل ـ والتي تعدَّت أهميَّتها طور المؤدِّي إلى طور الهادي ـ الأهميَّة التي يلزم معها تمتُّع الرَّسول بكفاءة خاصَّة، لو لم يمتلكها لن يكون قادرًا

على توصيل الرِّسالة؛ هذا غير وجوب تحلِّيه بمهابة تُسبغها عليه مهابةُ مُرسِله.

وعليه، فإنَّ احترام وتبجيل رسل الله جَلَّجَلَالُهُ، عليهم السَّلام، هو تبجيل واحترام لله جَلَّجَلَالُهُ، وإنَّ الانتقاص منهم، أو ازدراءهم، أو الإساءة إليهم، هو انتقاص وازدراء وإساءة لله جَلَّجَلَالُهُ، ما يعني أن توقير وإكبار رسل الله جَلَّجَلَالُهُ، عليهم السَّلام، واجب شرعيٌّ قبل أن يكون واجبًا أخلاقيًّا، شريطة ألَّا يتجاوز التَّوقير والإكبار حدودهما إلى التَّنزيه والتَّقديس الواجبين فقط لله جَلَّجَلَالُهُ وحده، إذ إنَّ في هذا التَّجاوز يكمن الشَّرُّ العظيم: الشِّرك بالله جَلَّجَلَالُهُ.

وقد كان الإسلام، في نسخته العيسويَّة، نقيًّا صافيًا حتَّى تجاوز مؤمنوه توقير وإكبار ابن مريم، عليه السَّلام، إلى تنزيهه وتقديسه بدرجة قصوى من المبالغة، انتهيا بهم إلى أن جعلوه ابن الله جَلَّجَلَالُهُ، وبدلًا من أن يتَّبع المؤمنون تعاليم المسيح باعتبارها تعاليم إلهيَّة مُنزَّلة على رسول منهم، عبدوه إلهًا ابن إله، فانتهوا إلى الشِّرك.

ولأنَّ الأُمَّة الإسلاميَّة، كما أشرنا سابقًا إلى ما أخبر به مُحمَّد ﷺ، مولعة بتقليد اليهود والنَّصارى، ظهر فيها السُّعاة إلى جعل مُحمَّد ﷺ ابنًا لله، وإن بشكل متطوِّر عن شكل الولادة بالجسد أو بالرُّوح، فيُثبتون أحاديثًا قدسيَّة لله جَلَّجَلَالُهُ يقول فيها إنَّه خلق الكون من أجل مُحمَّد ﷺ[٢٩١] فقط؛ بل وخلقه بقطرة من نور مُحمَّد

٢٩١- ”لولاك ما خلقتُ الأفلاك“ . حديث موضوع.

[292] ﷺ؛ وهلمّ جرًّا، من مثل هذه الأحاديث الموضوعة تحت تأثير اشتهاء تقليد الأمم السَّابقة، إذ المسيح عند المَسيحيِّين ابن الله جَلَّجَلَالُهُ، فكيف بنا، نحن المسلمون، لا نرتفع بنبيِّنا مُحمَّد ﷺ إلى ما يساوي ذلك، أو نعلو عليه إذا أمكن؟!

وبمثل هذه المحاولات الإيمانيَّة العاطفيَّة الشَّاذَّة ساهم مسلمو الكيان الثَّالث، الذي هو أكثر كيانات الإسلام عددًا، وأضعفها قوَّة، وأقلّها قدرًا، وأبخسها قيمة، في أسطرة النَّبيّ ﷺ، وتحويله من بشر يمكن للمسلم الاقتداء به، كما يحضّه القرآن على ذلك[293]، إلى مُقدَّس مُنزَّه لا يمكن الاقتداء به، لِمَا صارت عليه طبيعته من اختلاف عن طبيعة البشر، وفي هذا تكمن الخطورة التي تلي خطورة الشِّرك بالله جَلَّجَلَالُهُ مباشرة: ألا وهي: خمول الدِّين.

يخمل الدِّين وينكمش ويضمحلّ إذا افتقد المؤمن قدوته الإيمانيَّة، ويكون ذلك إمَّا بعدم وجود القدوة من الأساس، أو بتشويهها إذا وُجِدَت، أو برفع قدرها إلى مستوى أخلاقيٍّ مُترفِّع يستحيل على المؤمن أن يطمح في الارتقاء بأخلاقه إليه. وعليه يفتقد المؤمن شمندورة الهداية المناسبة لإمكانيَّاته البشريَّة، فلا تكون له شمندورة بعد ذلك إلَّا فقه الكُهَّان أو القَسَسة أو المشايخ، وهو فقه، مهما كان موفَّقًا، إلَّا أنَّه مشوب بأوشاب البشريَّة غير المُهذَّبة على النَّسق النَّبويّ ذي النَّقاء الفائق. ما يكون معه التَّديُّن المُغالى فيه، ما يكون معه التَّشدُّد، ما يكون معه نفور النَّاس من الدِّين، ما يكون معه تسلُّط السِّياسيِّين العلمانيِّين على الدِّين، واشتغالهم

---

٢٩٢- "أوَّل ما خلق الله نور مُحمَّد ﷺ" . حديث موضوع.

٢٩٣- انظر الآية ٢١ ـ سورة الأحزاب / قرآن كريم.

على جعله دينًا ذاتيًّا خاصًّا بالمرء، لا دينًا عامًّا للمجتمع، وتحييده عن التأثير في السُّلوكيَّات المجتمعيَّة إلى مُجرَّد ممارسات قلبيَّة. ما يكون معه النِّهاية البائسة: خمول الدِّين. وهو ما انتهت إليه النُّسختان السَّابقتان من الإسلام: اليهوديَّة والمسيحيَّة. حيث صارتا شرعتين تُمارسان في الوسط الأسريّ بطريقة أشبه ما تكون بالفلكلور الشَّعبيّ، لكنَّهما لا تقودان المجتمع بآليَّاتهما الدِّينيَّة الكاملة من موقع السُّلطة السياسيَّة. وهو بالضَّبط ما يُراد للإسلام.

وعندما يقوم المسلمون بأسطرة شخصيَّة مُحمَّد ﷺ، فإنَّهم يقدمون للسياسة العَلمانيَّة أسهل الوسائل التي تستغلّها لتحييد الإسلام عن موقع النُّفوذ المَجتمعيّ، الذي منه النُّفوذ السِّياسيّ. ولتعلو صيحات المُطالِبين بضرورة إبعاد الدِّين عن السِّياسة، وأنَّ الإسلام ليس سياسيًّا، وكأنَّهم صادقون، إذا كان مُحمَّد ﷺ، بفعل فاعل مُسلم أحمق، غادر بَشريَّته على الأرض إلى قُدسيَّة السَّماء.

ولكل ما سبق، فإنَّ من الخُطط الرَّئيسة لإثمار الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة العمل على استعادة مُحمَّد ﷺ الإنسان من قدس السَّماء، إلى دنس الأرض، فالطَّهارة لا تحتاج إلى مُطهِّر، بل الدَّنس ما يحتاج إلى ذلك أشدّ الحاجة. ورحم الله من قال: «فمهما يقل القائلون في غرض المؤرِّخ من سير العظماء، فالحقيقة التي لا ريب فيها عندنا هي أنَّ الغرض الأوَّل، أو الغرض الذي تنتهي إليه جميع الأغراض، هو توثيق الصِّلة بين الإنسانيَّة وبين عظمائها وعظيماتها، والنَّفاذ إلى الجانب الإنسانيِّ من كلِّ نفس تستحقّ التَّنويه والدِّراسة»[٢٩٤]؛ ويستطرد كاشفًا اللباب الدَّسم: «إذا فهمنا

٢٩٤- عبَّاس محمود العقَّاد في كتابه «الصدِّيقة بنت الصِّدّيق».

النَّبيَّ إنسانًا، فقد فهمناه كلّه، وفهمناه على حقيقته التي تعنينا، ونعقد له أواصر القرابة فيما بينه وبيننا؛ لأنَّنا وصلنا بين الإنسان فيه والإنسان فينا»[٢٩٥].

٢٩٥- عبَّاس محمود العقَّاد في كتابه «الصدِّيقة بنت الصِّدّيق».

# الفصل الحادي عشر

القداسة تمنع الاقتداء. التَّقديس يبتر الإنسانيَّة. الله ومُحمَّد. تنزيه النَّبيّ يمنع الفهم السَّليم لبعض أفعاله. العقل لسان الله المُتكلِّم دائمًا. السِّياسة من النبوَّة. السِّياسة في المنظور الإسلاميّ ليست لعبة قذرة.

أخبرتنا الكتب المُقدَّسة بأنَّ الله خلق ملائكةً لا تخطئ، وشياطينَ لا تصيب، وبشرًا بَين بَين، يُصيبون ويُخطئون. وإذا كان الأمر على ذلك، فليس أسوا من ديانة، أو عقيدة، أو فكرة، أو أيديولوجيَّة، تظنّ أنَّ بمقدورها تحويل البشر إلى ملائكة، أو إلى شياطين؛ لأنَّ ذلك يستحيل؛ وعليه، فإنَّ غاية أيّ ديانة واقعيَّة هي تحفيز السُّلوك البشريّ نحو التَّقارب مع السُّلوك الملائكيّ؛ نقول التَّقارب، لا التَّشابه أو التَّماثل أو التَّطابق. ما يعني أنَّ الدِّين الواقعيَّ يتقبَّل، أو بالأدقّ: يُنظِّم وحشيَّة البشريَّة؛ يقُصّ ريشها، يُهذِّبها، يُروِّضها، لكنَّه لا يقطع أجنحتها، أو يبتر إنسانيَّتها.

كيف يبتر الدِّين إنسانيَّة البشر؟

عندما يُقدِّم لهم فقهاء هذا الدِّين، أو كهنته، نماذج إنسانيَّة مُنتقاة باعتبارها ملائكيَّة، بل وأشدّ طاعة لتعاليم الدِّين من الملائكة نفسها، وأنَّ على الإنسانيَّة الاقتداء بها.

وعندما يستحيل ذلك قطعًا على البشر، يفقدون الثِّقة في قدرتهم على التَّطهُّر، فيستقلُّون تديُّنهم، ويستكثرون خطاياهم، ويفقدون

الأمل والرَّجاء، ما تكون نتيجته انطلاق شرورهم وانحدار آمالهم، ثُمَّ يرتكبون بعد ذلك ما هو أخطر: ينظرون إلى الدِّين باعتباره غُلوًّا عقائديًّا، وسلوكًا مُفارقًا لبشريَّتهم؛ أليس يريدهم ملائكيِّين في حين هم بشريُّون، وليس بمقدرتهم أن يكونوا غير ذلك؟ إذن: على الدِّين أن يرحل إلى حال سبيله، وليتركهم إلى قدراتهم الدُّنيويّة!

هكذا تُبتَر إنسانيَّة البشر.

وكان مُحمَّد ﷺ قد تنبَّأ بأنَّ المسلمين سيُولعون بتقليد الأمم السَّابقة، حتَّى إذا دخلت تلك الأمم جُحر ضَبٍّ، أي لو سلكت مسالك الضِّيق والظَّلام، لدخله المسلمون وراءها رغبة في تقليدها[٢٩٦]؛ وقد صدقت نبوءته.

وأخطر أنواع التَّقليد ما يكون في الشُّؤون العقائديَّة، ومنها: أنَّ المسلمين رأوا للنَّبيّ موسى نُقباء، وللنَّبيّ عيسى حواريِّين، فقرَّروا أن يكون للنَّبيّ صحابة، وبمُميِّزات إيمانيَّة تفوق النُّقباء والحَواريِّين، وعلى هذا رسَّخوا في عقول المسلمين أنَّ الصَّحابيّ لا بُدَّ من أن يكون ضابطًا عدلًا في جميع أحواله، ما يستتبعه ضرورة تصديق المسلمين، من التَّابعين أو من لاحقيهم أبد الدَّهر، لما قاله الصَّحابة دون تفكير نَقديٍّ أو تشكيك، بل على المسلم الصَّالح ـ في حالة اطِّلاعه على فعل مُنكَر أتاه أحد الصَّحابة ـ التماس ألف مُبرِّر ومُبرِّر قبل اتِّهامه بإتيان المنكر.

هذا عن حرصهم على رسم صورة ذهنيَّة طاهرة ومُقدَّسة للصَّحابيّ، فكيف حرصهم على ذلك إزاء الرَّسول ﷺ نفسه؟

---

٢٩٦- حديث: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة...» / رواه البخاري ومسلم.

لقد بالغوا حتَّى الشَّطط، فجعلوه معصومًا من الزَّلل والخطأ!

ونحن نقبل، وبتفهُّم، أن يكون النَّبيُّ ﷺ معصومًا من الزَّلل والخطأ فيما يخصّ تبليغ الرِّسالة، من نصٍّ قرآنيٍّ، وأمور تشريعيَّة، وتعاليم العبادات والطَّاعات، خصوصًا وأنَّه ﷺ أكَّد على فهمنا هذا بنفسه.

فقد أخبرتنا إحدى روايات الحديث بأنَّ صحابيًّا ذهب يستأذن الرَّسول ﷺ في أن يكتب حديثه، وكان نهى عن كتابته، فأذن له وهو يشير إلى لسانه قائلًا: «اكتب، فو الذي نفسي بيده ما يخرج منه إلَّا الحَقُّ»[٢٩٧]. مع ذلك وردتنا أكثر من رواية لأحاديث نبويَّة لا يمكن لعقل مَوضوعيٍّ أن يفهم منها سوى أنَّ مُحمَّدًا ﷺلم يُوفَّق إلى الصَّواب في بعض الأمور المَعيشيَّة الدُّنيويَّة، وهي شهيرة، منها، مثلًا، تموقعه بجيش المسلمين في مكان غير مناسب عسكريًّا قبل نشوب الحرب في بدر، وقد سُئل يومها عمَّا إذا كان هذا الموقع اختيارًا إلهيًّا، أم يُمكِن الإدلاء فيه برأي؟ ولم يتعَسَّف النَّبيُّ العظيم ﷺ انتصارًا لنُبوَّته، بل انتصر للرَّأي الإنسانيّ إذا كان في الشَّأن الإنسانيّ، فقال له: «بل هو الرَّأي والحرب والمكيدة»[٢٩٨].

وأيضًا عندما رأى قومًا يُلقِّحون النَّخل، فأشار عليهم بغير ما اعتادوه، ففسد الطَّرح، فسألوه في ذلك كأنَّهم يلومونه، فقال لهم: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[٢٩٩]؛

---

٢٩٧- الحديث من صحيح سنن أبي داوود.

٢٩٨- غزوة بدر - سيرة ابن هشام.

٢٩٩- خرجه مسلم.

بل إنَّه ﷺ حذَّر من أنَّه قد ينسى من الصَّلاة. وقد لا يصيب الحقَّ لأحدهم عند القضاء إذا كان الخصم قويَّ البيان في باطله[٣٠٠].

وقد فهم معاصرو مُحمَّد ﷺ الفرق بينه نبيًّا إنسانًا وإنسانًا نبيًّا، وظل هذا الفهم يتآكل بتوالي القرون والحوادث، وبامتزاج أمَّة العرب ذات العقليَّة العَمليَّة بأمم ذات عقليَّات فلسفيَّة صوفيَّة، إلى أن انتهى الأمر بامتزاج بشريَّة مُحمَّد ﷺ برسوليَّته امتزاج ناسوت المسيح، عليه السَّلام، بلاهوته، فأوشك نبيُّ الإسلام على أن يكون إلهًا من إله! وإذا حُذَّر أحدُهم من ذلك التَّأليه الخَفيّ الذي يسبغه على النَّبيّ ربما يهتف مستعيذًا بالله من هذا التَّصوُّر الأثيم، إلَّا أنَّه عمليًّا، يُعامِل مُحمَّدًا ﷺ معاملة الله! وانظر إلى المحاريب، في كثير من المساجد، تجد أعلاها قد زُيِّن بدائرتين متساويتي القطر، واحدة إلى يمين المحراب مكتوب فيها: «الله جَلَّجَلَالُهُ»، والأخرى إلى يساره مكتوب فيها: «مُحمَّد رسول الله»، وكأنَّ الله ورسوله في مقام واحد! وهو شرك واضح، لا خَفي، ومن يفعلون ذلك ضحايا فهم فِقهيٍّ مفاده أنَّ الصَّحابة ملائكيّون، وأنَّ الرَّسول أرفع من الصَّحابة، أليس قد خلق اللهُ كلَّ هذا الكون بنور مُحمَّد ﷺ، ومن أجل مُحمَّد ﷺ!

ولاحظ كيف إذا ذُكِر الله جَلَّجَلَالُهُ في ملأ من المسلمين ظلُّوا على حالهم من الصَّمت، فإذا ما ذُكِر مُحمَّد ﷺ ارتفعت حناجرهم بالصَّلاة والسَّلام عليه، وكأنَّ ذكر مُحمَّدٍ ﷺ في قلوبهم أعظم من ذكر الله تعالى.

وهذا يُذكِّرني بموقف لي مع جارٍ لي من الصُوفيَّة؛ وكنَّا نتحدَّث،

٣٠٠- في حديث «إنَّما أنا بشر...» / رواه البخاريُّ ومسلم.

فيَرِد ذكرُ الرَّسول ﷺ، فيمرِّر ذكرَه مرور البخلاء، دون صلاة أو تسليم، لكن ما أن يرد اسمُ شيخه حتَّى يعلو هتافه بالتَّرضِّي عليه وطلب المدد. وكأنَّ شيخه أعلى عنده مقامًا من رسول الله ﷺ.

وهكذا صار المسلم يقع في حَيص بَيص إذا قرأ، أو سمع، من يصف مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه مزواج، أو بأنَّه رجل حرب، أو بأنَّه يقتل الشُّعراء، وخلاف ذلك كثير من التُّهم والشُّبهات التي يروِّجها مستشرقو الغرب، ومستغربو الشَّرق، ومستنورو أُمَّة الإسلام.

فهؤلاء المُستشرقين عايروا النُّبوَّة بمعيار مَسيحيٍّ أُقحِم على المَسيحيَّة الصَّحيحة، ألا وهو أنَّ النَّبيَّ ابن الله، أو هو الله، فلا يخطئ.. والمسلمون (الشَّغوفون بتقليد اليهود والمسيحيِّين) يبذلون جهدهم في التَّأكيد على أنَّ نبيَّهم أيضًا لا يخطئ، ما يُلجِئهم إلى ترديد إجابات خاطئة على أسئلة المُرجفين، بل وقد تكون إجابات مُهينة للرَّسول ﷺ؛ مع أنَّ ما يثيره المرجفون، شرقًا وغربًا، لم ير فيه إخباريُّو المسلمين الأوّل ما يُخجِل، فيمحونه من التَّدوين، فأثبتوه مُدوَّنًا؛ لأنَّهم . ببساطة . فهموا النُّبوَّة والإسلام على غير ما نفهمه نحن الآن.

فهموا أنَّ النَّبيَّ إنسانُ، وكلّ إنسان لا بُدَّ يعتوره نقص، ولا كامل إلَّا الله جَلَّجَلَالُهُ.

هذا الفهم القديم هو أحد مفاتيح انتشار الإسلام في الألفيَّة الثَّالثة، وعلينا تفعيل هذا المفتاح، إذا أردنا تفعيل الإسلام تفعيلًا صحيحًا.

على ما سبق، فإنَّ من يُرجِف بأنَّ مُحمَّدًا ﷺ كان مزواجًا، لا يصحّ الردُّ عليه بأنَّه عدَّد زوجاته تقرُّبًا، وتودُّدًا، إلى القبائل لتدخل في الإسلام، فهذا تبرير مُنحطٌّ إنسانيًّا؛ ولا كان يتزوَّجهنّ لينقلن عنه ما خَفِيَ على غيرهنّ من العلم، إذ كيف يتزوَّجهن لهذا الغرض (العِلميّ) وقد وَصف النِّساء في بعض أحاديثه بأنَّهنَّ ينسَين، حتَّى إنَّ شهادة الواحدة منهنَّ لا تجوز إلَّا بشهادة امرأة أخرى معها، تُذكِّرها إذا نَسيَت، ما يعني أنَّ هذا التَّبرير مُتعسِّف بدوره، يخرج بمُحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم عن طوره الطَّبيعيّ رجلًا راجحَ الإنسانيَّة، إلى طور الرَّجل الانتهازيّ.

وهكذا؛ يضطرّ هؤلاء النَّاظرين إليه باعتباره مُنزَّهًا عن شهوات البشر، إلى اللجوء إلى تبريرات سخيفة لبعض تصرُّفاته البَشريَّة، يسوقونها ذَبًّا عنه، فإذا بهم يُسيئون إليه بأشدِّ ممَّا يُسيء إليه المُرجفون، فينطبق حالهم معه ﷺ على حال الدُّبِّ الذي قتل صاحبه وهو يقصد هَشّ الذُّباب عنه، فيُظهرون النَّبيَّ ﷺ مُستغِلًا للنِّساء، لا يتزوَّجهن رغبة فيهنّ، أو حُبًّا لهن، بل يتَّخذهن وسائل وسُبلًا لتحقيق غايات.. ولو أنَّهم نظروا إليه باعتباره رسولًا من البشر، على نزاهته بخصوص الوحي والتَّشريع يعتوره بعضٌ مِمَّا يعتور البشر ـ بحسب ما أفاد هو ﷺ في حديث أخبر فيه عن نفسه بأنَّه بشر، ينسى كما ينسى البشر[٣٠١]، والنِّسيان لا شَكَّ نقيصة بشريَّة لم يُنزِّه ﷺ نفسه عنها ـ لربما ظلَّ الإسلام غَضًّا بالموضوعيَّة، ولما تَكلَّس بالأسطوريَّة.

إنَّ مسلمي اليوم ـ مسلمو الكيان الثَّالث ـ الذي استعرضنا مواصفاته

---

٣٠١- حديث ابن مسعود عن سهو النَّبيِّ ﷺ في الصَّلاة / رواه البخاريُّ ومسلم.

في فصل مُتقدِّم من هذا الكتاب، على استعداد لتكفير غيره إذا قال إنَّ مُحمَّدًا ﷺ يسهو ويخطئ. ولا أنسى كيف تعرَّض أحد الدُّعاة المعاصرين لحملة توبيخ وتشنيع قاسية، من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، لا لشيء سوى أنَّه قال، في حلقة تلفزيونيَّة دعويَّة، إنَّ النَّبيَّ ﷺ أخطأ في بعض أمور الدُّنيا[٣٠٢].

ولو أنَّ المسلمين لم يغلوا في تجريف النَّبيَّ ﷺ من بشريَّته، وفهموا كلامه في هذا الشَّأن، لما وجدوا أنفسهم بإزاء مشكلة

في الإقرار بأنَّه ﷺ كان مُحبًّا للنِّساء[٣٠٣]، لا يُحبّهن إلاَّ لجنسهن، ويأنس لهنّ، ويتمتَّع بهنّ كما يتمتَّعن به؛ ولا وجدنا مشكلة في الإقرار بأنَّه ﷺ كان فحلًا جنسيًّا، خاصَّة وأنَّ الفحولة الجنسيَّة ميزة حقيقيَّة للرَّجل إذا تحَمَّل تبعاتها ومسؤوليَّاتها في إطار التَّشريع الإلهيّ القويم، وكان النَّبيُّ كذلك، بل باهى بأنَّه أخيَر الرِّجال في تعامله مع نسائه[٣٠٤].

وبتفصيل مُبسَّط عن ارتباط الصِّحَّة الجسمانيَّة والنَّفسيَّة بالفحولة الجنسيَّة نورد ما أثبته البحث العلميُّ من أنَّ ثمَّة علاقة طرديَّة بينهما، فكلَّما قوي الأداء الجنسيُّ تحسَّن المزاج، وخفَّ التَّوتُّر، وضُبِط النَّوم، وزادت كفاءة الوظائف الدِّماغيَّة والذَّاكرة، وتعزَّزت المناعة، وقلَّت نسبة الإصابة بسرطان البروستاتا، وقَوي القلب، هذا بخلاف ما تتسَبَّب فيه المعاشرة الجنسيَّة المُتفهِّمة من زيادة المودَّة والحبّ بين الأزواج، ما يصبّ في مصلحة علاقات

٣٠٢- حدث مع الداعية عمرو خالد.
٣٠٣- حديث «حُبِّب إليّ من دنياكم النِّساء والطِّيب ....» / رواه التِّرمذيُّ.
٣٠٤- حديث «خيركم خيركم لأهله ...» / رواه التِّرمذيُّ.

أسريَّة سَويَّة. و«تؤكِّد الدُّكتورة جوديت ساشز، الباحثة في جامعة هارفارد، أنَّ العلاقة الجنسيَّة المنتظمة تساعد على الإبداع؛ لأنَّ الجنس يُقوِّي التَّفكير الإبداعيّ، فمن المعروف أنَّ الجانب الأيسر من الدِّماغ هو المسؤول عن النَّشاطات المنطقيَّة والحسابيَّة والتَّحليليَّة مثل الرِّياضيات والمنطق، على خلاف الجانب الأيمن للدِّماغ المسؤول عن النَّشاطات الإبداعيَّة والخياليَّة. وأكَّدت الدِّراسات في المعهد الصِّحيِّ الجنسيِّ في جامعة هارفارد، أنَّه في حالة قيامك بنشاط مُحدَّد، فإنَّ هذا يُنشِّط جانبًا واحدًا من المخِّ في هذا الوقت، أمَّا في حالة ممارسة الجنس تُحسَر الهُوَّة بين المخِّ الأيمن والأيسر ممَّا يقوِّي ملكة التَّفكير الإبداعيّ، وبهذا تكثر الأفكار العبقريَّة لدى النِّساء والرِّجال المُخترعين عقب النَّشوة الجنسيَّة؛ لأنَّها تؤدِّي للصُّعود بلا حدود إلى عالم الفكر الغير محدود»[٣٠٥].

وإذا كان البحث العِلميُّ، في هذا الشَّأن، توَصَّل إلى أنَّ هناك تناغُمًا كبيرًا بين الفحولة الجنسيَّة والصِّحَّة النَّفسيَّة والعقليَّة والجسمانيَّة لصاحبها، فما على المسلمين سوى الرَّد بطمأنينة على كلِّ قادح في قوَّة الشَّهوة عند مُحمَّد ﷺ، وتعدُّد زيجاته، لا بالإنكار وإنَّما بالإثبات؛ لأنَّها أمور تعني ـ ببساطة ـ تمام صحَّته الجسميَّة والعَقليَّة، وكمال سلامته النَّفسيَّة، وهي أشياء تُعضِّد من كونه رسولًا كفوًا لتبليغ رسالة الإسلام أتمّ تبليغ.

وكان حكيم عَربيٌّ قد قال قديمًا: «النِّكاح؛ مُتَّفَق على التَّمدُّح بكثرته، والفخر بوفوره شرعًا وعادة، فإنَّه دليل الكمال، وصِحَّة

---

٣٠٥- مقالة بعنوان «الجنس يساعد على الإبداع» / فاطمة ابو حطب / موقع الوطن الإلكتروني.

الذُّكوريَّة، ولم يزل التَّفاخر بكثرته عادة معروفة، والتَّمادح به سيرة ماضية»[٣٠٦].

وكثير من الأحاديث مُتضاربة الصِّحَّة نقلت لنا اهتمام الصَّحابة بالتَّعرُّف على القدرة الجنسيَّة للرَّسول ﷺ، وكيف أخبَروا بأنَّها قوَّة هائلة، تضاهي قوَّة ثلاثين منهم، وفي أحاديث أخرى تضاهي قوَّة أربعين منهم، وفي غيرها تضاهي قوَّة خمسة وأربعين منهم[٣٠٧].

وهكذا لم يجد الرَّعيل الأوَّل، من مسلمي الكيان الأوَّل، غضاضة ولا حرجًا في وصف النَّبيِّ بما يمكن اعتباره الآن شبقًا جنسيًّا، ولا عدُّوا هذا الشَّبق منقصة يجب تبريرها وإن بتبرير سخيف مُسيء؛ لأنَّهم ـ ببساطة ـ كانوا يفهمون أنَّهم يتعاملون مع نَبيٍّ من البشر، لا مثلما يرغب مسلمو الكيان الثَّالث، مسلمو اليوم المتخلِّفون حضاريًّا، في التَّعامل معه باعتباره بشرًا إلَهًا، لا يتَّصف بصفات بشريَّة أبدًا، وإذا اتَّصف بها فهي فقط من أجل الدَّعوة، لا من أجل الشَّهوة!

مع أنَّ أحد الموالي ـ الخدم ـ ذكر أنَّ امرأة مرَّت، وكان ﷺ يجلس بين أصحابه، فقام ودخل إلى إحدى نسائه، ثُمَّ خرج من عندها والماء يقطر من رأسه بعد اغتساله من الجنابة، فسأله بعضُهم عمَّا إذا كان قضى وطره، فأجابهم بما نصّه: «نعم، مرَّت بي فلانة، فوقعت في نفسي شهوةُ النِّساء، فقمت إلى بعض أهلي، فوضعت شهوتي فيها، وكذلك فافعلوا، فإنَّه من أماثل أعمالكم إتيان

٣٠٦- مقول للقاضي عياض أوردها الإمام السُّيوطيُّ في كتابه «الوشاح في فوائد النِكاح».

٣٠٧- انظر المصدر السَّابق.

الحلال»[٣٠٨]، وقد يُحاجج أحد الحريصين على تعصيم الرَّسول ﷺ من كلِّ رغبة بشريَّة بأنَّ هذا الحديث ضعيف، فنقول: وإنَّ؛ لقد صحَّحه الألبانيُّ، كما لدينا حديث آخر رواه مسلم، ثاني رواة الحديث الأعاظم بعد البُخاريّ، يؤكِّد المعنى نفسه.

أمَّا النَّاظر برويَّة في حديث المرأة التي أعجبت الرَّسول ﷺ فاشتهاها، فإنَّه يرى أمورًا مُلفتة لانتباه الحصيف، قويَّة الجودة الفكريةَّ، بحيث يمكن الارتكان إليها ركيزة فقهيَّة للإسلام في الألفيَّة الثَّالثة.

لقد رأينا في هذا الحديث امرأة تمشي في الطَّريق، تَظهَر مفاتنُها، ما نفهم منه أن ليس كلّ النِّساء كُنَّ يضعن نقابًا مسبلًا مرخيًّا يُخفي مفاتنهن في المجتمع النَّبويّ. ولا أتصوَّر أنَّه يمكن الاحتجاج على هذا الفهم باعتبار تلك المرأة من الإماء لا الحرائر، وإلَّا لكان وصفها راوي الحديث بأنَّها أَمَة؛ فهي إذن امرأة حُرَّة مسلمة، يجب عليها الاحتجاب بنقاب يُغطِّيها تمامًا، بحكم أحاديث وجوب الحجاب، ويصحّ ألَّا يكون الحجاب قد فُرِض بعد، فظهر من فتنتها ما أثار شهوة

النَّبيِّ ﷺ، ولا بُدّ ما ظهر من فتنتها كان عظيمًا لدرجة نجحت معها في إثارة أملك الرِّجال لأمره، نقصد الرسول ﷺ، فإذا به لا يستوقفها ليزجرها، أو لينهرها، أو ليُنكِر عليها، أو ليأمرها بالمعروف، كما لم يُوجِّه أحدًا من رفاق مجلسه ليلحق بها ويُهذِّبها، ولا طلب منهم غضَّ أبصارهم عن الفاتنات من النِّسوة العابرات، بل طلب منهم، إذا أثارت إحداهنّ شهواتهم، الذِّهاب إلى زوجاتهنّ، وتسكين شهواتهم المُثارة بهنّ.

٣٠٨- أخرجه أحمد وأبو نعيم في «الحلية».

ولا يفهم بعض المُتربِّصين أنَّنا نقصد بهذا القول أنَّ الرَّسول ﷺ لم ينه عن التبرُّج، أو لم يأمر بغضّ البصر للجنسين، بل نهى وأمر ووجَّه إلى جميع مكارم الأخلاق، لكنَّه في الوقت ذاته، وبما ملكه من إحساس عالٍ بالإنسانيَّة وهفواتها، أدرك أنَّ ثمَّة تجاوزات كائنة لا محالة، وأنَّ علاجها ليس سياقة البشريَّة سياقة قسريَّة تجاه الملائكيَّة، ولا العويل على حال المسلمين الذين يرتكبون المعاصي، ومن ثَمَّ اعتبارهم منافقين، وما يستتبع ذلك من الإغلاظ عليهم قولًا وفعلًا، بل قدَّم حلولًا بسيطة تتَّفق مع سقطات الطَّبع الإنسانيّ، يمكن تطبيقها بسهولة ويُسر دون جلد للذَّات، أو تحقير للعاصي، أو تجهيل للمجتمع المسلم المرتكب للمعاصي من هذا النَّوع السُّلوكي، لا العقائديّ. وهو بالضَّبط المسلك المأمول لمسلمي الألفيَّة الثَّالثة، والمُتَّفِق مع ما تغنَّى به الرَّسول ﷺ، وحضَّ عليه، لما فيه من فوائد وأفضال، ألا وهو: الرِّفق، الذي ما كان في شيء إلَّا زانه[٣٠٩]، حتَّ لو كان هذا السيِّئ مجابهة معاصي المجتمع المسلم. وهكذا يقدم الإسلام منهاجًا إلهيًّا، لكنَّه، في ذات الوقت، مُتَّسقًا تمامًا مع الطَّبيعة البشريَّة، ومُتفهِّمها لأبعد مدى.

أي: على مسلم الألفيَّة الثَّالثة التَّمتُّع بروح مُتفهِّمة، متسامحة، تجاه أخيه المسلم المُسربَل بمعصية ما، لا أن يحادده ويُنفِّقه ويُفسِّقه مِن مثل هذه التَّصرُّفات التي تفتق رتق المجتمع الإسلاميّ بزعم الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، هذا إذا لم يكن المسلم العاصي يعصي مُتعمِّدًا أن يحادَّ الله ورسوله، داعيًا إلى انتشار معصيته بين المسلمين، فمثل هذا الآثم تعدَّى الخطأ السُّلوكيَّ

٣٠٩- من حديث رواه مسلم.

إلى المعصية العقائديَّة، ولا بُدّ من وقفة حاسمة معه، لا مهادنة فيها، ولا مسامحة، ولا رفق.

وكذلك الأمر بصدد المُرجفين بأنَّ مُحمَّدًا ﷺ قاتل بالسَّيف، والأنبياء لا تقاتل؛ فنجد الحريصين على إسبال المعصوميَّة الإلهيَّة على النَّبيِّ البشريِّ يحاولون دفع هذا الإرجاف بما لا يُطاق عقلًا، والعقل ديدن هذا العصر والعصور القادمة، ورُمَّانة ميزان الأفهام الحديثة، ولهذا لا ينزعج الإسلام كما ينزعج غيره من وصف كانط، الفيلسوف الألمانيّ، للدِّين بأنَّه «في حدود مُجرَّد العقل»[٣١٠]؛ فلا أحسب ختم الله الدِّين بالنُّسخة المُحمَّديَّة إلَّا لأنَّها النُّسخة التي حضَّت، بأوفر من أيِّ نسخة إسلاميَّة أخرى، على استخدام العقل، واستنفار اللُّب، والتَّفكُّر، وهي أدوات ووسائل وعي نهائيَّة، ليس بعدها أدوات أكثر تطوُّرا تستدعي دينًا جديدًا يُبشِّر بها، وأحسب أنَّ لهذا السَّبب خُتِم الدِّين بمبعث مُحمَّد ﷺ.

أو بالتعبير اللَّادينيّ: لهذا صَمَتَ الله؛ فلماذا يتكلَّم إذا لم تكن هناك إضافة؟

ورغم حَضّ الإسلام المسلمين على التَّفكير وإعمال العقل، فإنَّهم، وبالأخص مسلمي الكيان الثَّالث، يهملون العقل ويُعمِلون العاطفة، فيغرمون بتجريف نبيِّهم من بشريَّته، حتَّى إنَّ بعضهم يسارع إلى إنكار أن يكون الرَّسول ﷺ قد قاتل بسيفه، ويتفنَّن في الخروج علينا بتآويل ساذجة مُنكَرة، مِثل: إنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يقتل بيده سوى واحدٍ فقط، هو أُميَّة بن خلف، قتله طعنًا في موقعة أُحُد، وحتَّى تلك الطَّعنة لم يتعمَّدها مُحمَّد ﷺ، بل أُميَّة جاء إلى

٣١٠- انظر «الإيمان الحرّ أو ما بعد الملَّة» / فتحي المسكيني.

حتفه بسنابك فرسه باحثًا عن مُحمَّد المختبئ خلف أكمة من آكام جبل أُحُد، بعد انهيار جيش المسلمين بسبب تخلّيه عن مواقعه، وتكالبه على جمع الغنائم، وكان أُميَّة يزعق مُعلنًا إصراره على قتل مُحمَّد إن وجده، وما إن صار في القريب حتَّى تناول النَّبيُّ حربة أحد أصحابه، ووجأ بها ترقوة أُميَّة، الذي لم تقتله الطَّعنة على الفور، بل مات في طريق العودة مُتأثِّرًا بجراحه، ومُتأثِّرًا أيضًا بوهم نبوءة مُحمَّديَّة قديمة كان النَّبيُّ ﷺ قد توعَّده فيها بقتله؛ وهكذا يتمنَّى مسلمو الكيان الثالث لو أنَّ نبيَّهم لم يكن مُقاتلًا، ويكادون يسعون إلى تبرئته من فعل القتل، حتَّى لا يتعرَّضون للحرج إذا تكلَّم عنه الصَّليبيُّون بهذا الاعتبار.

ثُمَّ إنَّ بعض هؤلاء المسلمين يبالغ في الزَّعم بأنَّ الرَّسول ﷺ كان يقاتل فقط من أجل الدِّين، والعقل يقول إنَّ الدِّين لا يتوقَّف انتشاره على قوَّة الجيش، فالدِّين بالنِّهاية فكرة، والأفكار تنتشر بالعقل، لا بالسَّيف. فلماذا قاتل الرَّسول ﷺ إذن؟

فيقع أصحابنا في حَيص بَيصٍ أخرى، لا يقع فيها من ينظر إلى النَّبيِّ ﷺ باعتباره بشرًا، وباعتبار الإسلام دينًا للبشر، والبشر يتعادَون بالطَّبع، ويتقاتلون بالفطرة، ويتصارعون من أجل المُلك والرِّئاسة، ويتنافسون على الأفضليَّة، والطَّموحون منهم يُقيمون عماد أمم على حساب غيرها، ولا يتهيَّأ لهم ذلك إلَّا بالحروب. وكان الكُفَّار أعداءً صرحاءً للإسلام، فما العيب في استعمال السِّلاح ضد الأعداء؟ وهل صُنِعت آلة الحرب إلا لاستعمالها ضد الأعداء؟

إنَّ الحرب سلوكٌ إنسانيٌّ فطريٌّ، تعامل معه الإسلام بواقعيَّة، بعيدًا عن تلك الطُّوباويَّات التي تنادي بمحبَّة العدوّ، ثُمَّ في ذات الوقت تفتك به؛ لأنَّ طبيعة البشر لا يمكن لها التَّطابق مع نظام تعسُّفيٍّ اسمه: «محبَّة العدو»، والإسلام بالدَّرجة الأولى إنسانيٌّ، لا ملائكيّ، ومُحمَّد ﷺ رسول إنسانيٌّ، لا رسول ملائكيٌّ، مع ذلك فإنَّ نبوَّة مُحمَّد ﷺ تتجلَّى في وضعه لشروط يُبنَى عليها القتال الشَّريف، وهي شروط سبقت تشريعات المُنظَّمات الدُّوليَّة للسُّلوك الحربيّ بخمسة عشر قرنًا تقريبًا، فلا يجوز لمقاتل مسلم الاعتداء على حياة طفل، أو امرأة، أو شيخ كبير، أو راهب في صومعته، أو شجرة، أو زرع، أو هدم بيوت، إلَّا لضرورة قصوى. وجميعها شروط لم يعرفها محاربو القبائل في الجاهليَّة، الذين كانوا يقتلون الجميع، ويشعلون النَّار في خيام الجميع، ويُدمِّرون الأخضر واليابس.

والحرب في الإسلام ليست استمتاعًا بالقتال والقتل، بل هي كَره[311]، لكنَّها السَّبيل الوحيد لمقاومة من يصدّون عن سبيل الله، ومن يتسبَّبون في أذى المسلمين.

هذا وقد أدرك النَّبي ﷺ ما قد يسبِّبه خمول المسلمين عن الحرب من نتائج وهم لا يزالون في طور التَّكوين، وهي نتائج خَطِرة بإمكانها وأد الإسلام مُبكِّرًا؛ لأنَّ كُفَّار قريش كانوا يعملون بجِد على إطفاء جمرة الإسلام، وبطرق شتَّى، من الدُّبلوماسيَّة وحتَّى القتاليَّة، من توحُّد قريش في ذاتها إلى توحُّدها مع القبائل المحيطة بها، بل ومدَّت حِلفها إلى يهود يثرب. فلو لم يتقَدَّم المسلمون للقتال،

---

٣١١- انظر الآية ٢١٦ من سورة «البقرة» / قرآن كريم.

ويهاجمون من أجل الدِّفاع، لتهدِّد مستقبلهم بقوَّة، وهو وعيٌّ سياسيٌّ

بالدَّرجة الأولى، يليق برسول يسعى إلى تمكين رسالته الرُّوحيَّة بدولة أرضيَّة، تمامًا كما لا يتمَكَّن الرُّوح الإنسانيّ من التَّواجد على الأرض إلَّا بجسد ماديٍّ.

وكانت الدَّولة السِّياسيَّة طموحًا مُحمَّديًّا مُبكِّرًا، ظهر جليًّا في حواره مع عمِّه أبي طالب، وكان عنده وفد من قريش يشكو إليه سبَّ ابن أخيه لآلهتهم، وكيف أنَّه يدعو إلى دين جديد ليس بدين الآباء. فكان أن استدعى أبو طالب مُحمَّدًا ﷺ ابن أخيه، وسأله عن الأمر، فقال له نصًّا: «يا عمّ، إنِّي أريدهم على كلمة واحدة، يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدِّي إليهم بها العجم الجزية»[٣١٢].

وكانت الكلمة المقصودة هي: «لا إله إلَّا الله».

كما ظهر ذات الطُّموح في رسائله إلى الملوك والقياصرة التي يدعوهم فيها إلى الإسلام، فهي، وإن كانت رسائلَ حملت الدِّينَ بمتنها، في طيَّاتها كَمُن الطُّموح المُحمَّديُّ في السَّيطرة على تلك الممالك والإمبراطوريَّات، إمَّا بإسلامها ودفعها الزَّكاة، وإمَّا بفتحها ودفعها الجزية، وذلك تحقيقًا لما كان عرضه على الوفد القرشيِّ في حضرة عمِّه أبي طالب: سيادة العرب والعجم. لذلك نلمس في صياغة تلك الرَّسائل نبرة تهديد لطيف: «أسلم تسلم»[٣١٣]،

٣١٢- من حديث رواه احمد والنّسائيُّ، حسَّنه التِّرمذيُّ، وضعَّفه الألبانيُّ.
٣١٣- انظر صحيح البخاريّ

كُتِب بإيجاز شديد، وببلاغة نبَويَّة بارعة، بحيث يمكن فهم ذاك التَّهديد على معنيَين: إمَّا الإسلام والسَّلامة من سوء المنقلب الأخرويّ، المُتمثِّل في عذاب جهنَّم، وإمَّا الإسلام والسَّلامة من سوء المنقلب الدُّنيويّ، عندما تغزو جيوش الإسلام مستقبلًا بلادك، وتفقدك ملكك.

أيضًا، ظهر هذا الطُّموح المُحمَّديّ في أثناء حفر الخندق، حول المدينة، بصفتها وسيلة دفاعيَّة عنها ضد غزو أحزاب الكفر لها. وكان سلمان الفارسيّ أشار بحفر هذا الخندق، فاجتمع المسلمون على حفره، وبينهم النَّبيّ ﷺ يحفر معهم، فإذا بصخرة صلبة، كُديَة، تصعب عليهم، فأخبروا مُحمَّدًا ﷺ بأمرها، وكان يعاني جوعًا شديدًا أصاب القوم جميعًا، حتَّى إنَّ معظمهم ربطوا الأحجار إلى بطونهم، مع ذلك فإنَّه قام وأخذ المعول، وضرب الصَّخرة ضربة قويَّة، فشَقَّ عنها ثلثها، وكبَّر مُبشِّرًا القوم من حوله بفتح الشَّام، ثُمَّ بضربة ثانية شقَّ عن الصَّخرة ثلثها الثَّاني، وكَبَّر مُبشِّرًا بفتح فارس، وبالضَّربة الثَّالثة أنهى أمر الصَّخرة، وكبَّر مبشِّرًا بفتح اليمن[٣١٤].

والفتح المذكور في حديث الصَّخرة فتح سياسيٌّ، لا دينيٌّ، وإلَّا لأخبر النَّبيُّ بدخول تلك الممالك في الإسلام طَوعًا، لا بفتحها كرهًا، والفتح مصطلح يعني الانتصار بالحرب.

ثُمَّ آن الأوان كي يتحوَّل الطُّموح من حلم إلى واقع، وذلك بعد دخول معظم قبائل شبه الجزيرة العَربيَّة في الإسلام، وتوحُّدها تحت راية واحدة، فكان أوَّل ما فعله النَّبيُّ ﷺ أن جهَّز جيشًا إلى

٣١٤- انظر «فتح الباري بشرح صحيح البخاريّ» لابن حجر العسقلانيّ.

مؤتة، وهي من بلاد الكرك بالشَّام؛ ومهما كان السَّبب المعروف لهذه الغزوة، وهو الثَّأر لمقتل أحد رسل النَّبيِّ ﷺ وهو يقوم بسفارة لتوصيل رسالة إلى مَلِك بُصرى، يدعوه فيها إلى الإسلام، فإنَّ تلك الغزوة كانت قادمة لا محالة؛ لأنَّها كانت الخطوة الأولى الواسعة، في اتِّجاه تحقيق الجزء الأكبر من الطُّموح السَّياسيّ المُحمَّديّ، فكان لا بُدَّ لها من أن تتمّ؛ وانطلق الجيش الإسلاميُّ الصَّغير عددًا من أجل تحقيق الحلم الكبير أملًا؛ ولم يكن ممكنًا لهذا الجيش تحقيق انتصار عسكريّ تكتيكيّ، فاضطرّ إلى الانسحاب، مع ذلك كان قد حقَّق بالفعل انتصارًا استراتيجيًّا عظيمًا، فقد كان طليعة الجيوش الإسلاميَّة التي نجحت، في أقل من عشَرة أعوام بعد زمن تلك الغزوة، في إخضاع فارس والرُّوم، وغيرهما من ممالك الشرق والغرب.

وتحقَّق الطُّموح السِّياسيّ للنَّبيّ مُحمَّد ﷺ.

وأظنُّ أنَّ كثيرًا من القُرَّاء المسلمين قد يمتعضون لفكرة أن يكون للرَّسول ﷺ طموحًا سياسيًّا، وذلك لاعتقادهم أنَّ الرِّسالة السَّماويَّة تتنافر مع السِّياسة الأرضيَّة، فالرِّسالة تتعلَّق بالإلهيِّ السَّامي، والسِّياسة تتعَلَّق بالبشريِّ المُتدنِّي (من منظورهم)؛ لأنَّهم رضخوا للمُغالطة الكبرى التي على أساسها تُوصَف السِّياسة بأنَّها لعبة قذرة، فإذا كانت السِّياسة لعبة قذرة، فكيف يلعبها النَّبيُّ المُكمَّل ﷺ!

وعليه؛ يبذلون جهدًا سخيًّا في دفع تُهمة الطُّموح السِّياسيّ المُحمَّديّ باعتبارها سُبَّة أكيدة في شخصه الرَّسوليّ يجب محوها

عنه!

ومن أجل توضيح هذا اللبس التي قامت عليه هذه الشُّبهة لا بُدَّ لنا من توضيح مختصر لمفهوم: السِّياسة. ما معناها؟ وهل حقًّا هي لعبة قذرة، يلعبها الأقذار؟

السِّياسة: من ساسَ.

وساس: تحرَّى الأفضل والأنفع.

والسَّائس: القائد.

والقيادة: تولِّي دفَّة الأمور، ورعاية الشّؤون، واختيار أسلم الطُّرق إلى أحسن الغايات.

هذا عن معنى السِّياسة، وهو معنى سامٍ كما نرى؛ لذلك لسنا مع من قال إنَّ «كلمة سياسة إحدى أشدّ الكلمات تنوُّعًا في معانيها. كما أنَّها نادرًا ما تعمل وحدها في المحادثات العاديَّة. إنَّها بحاجة إلى صفات (ضيِّقة الأفق) (متحزِّبة) (عامَّة) (محليَّة) (إعلاميَّة) إلخ. كي نفهم معناها الدَّقيق»[٣١٥].

فالكلمة، في حدِّ ذاتها، لها معنى واحد لا يتنوَّع، لكن تتنوَّع تطبيقاتها، فهناك سياسة مجتمع، وهناك سياسة دولة، وسياسة اقتصاد، وهكذا من مختلف أنواع التَّطبيقات السِّياسية، لكن جوهر السِّياسة واحد في مختلف التَّطبيقات، وكما أنَّها تتَّصف بصفات ضيق الأفق والتَّحزُّب والمَحليَّة، وغيرها من المواصفات الدَّنيئة، فهي أيضًا تستطيع الجريان بالعكس، ويمكنها السُّموّ إلى

٣١٥- انظر «أزمة الهويَّات» / كلود دوبار.

آفاق إنسانيَّة رحبة، وعليه فإنَّ سموَّ، ودناءة، اللعبة السياسيَّة يتوقَّف على طبيعة الممارس السِّياسي، لا على شيء آخر.

ولعلَّ ما قاله الوفاء ابن عقيل، وهو أحد كبار علماء المشيخة الحَنبليَّة، عن السِّياسة يكشف لنا عن المفهوم الإسلاميّ لها، وهو جدّ مفهوم راق، حيث قال: «السِّياسة ما كان فعلًا يكون معه النَّاس أقرب إلى الصَّلاح، وأبعد عن الفساد»[٣١٦].

بل تسمو نظرته إليها درجة بصفتها أحد مُكوِّنات الشَّريعة، فقال: «ومن له ذوق الشَّريعة واطِّلاع على كمالاتها، تبَيَّن له أنَّ السِّياسة العادلة جزء من أجزائها»[٣١٧].

ويوافقه ابن القيِّم الجوزيَّة على ذلك، فيقول: «لا يُقال: إنَّ السِّياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشَّرع، بل هي موافقة لما جاء به، بل هي جزء من أجزائه»[٣١٨].

وكان الإمام الشَّافعيُّ قد قال: «لا سياسة إلَّا ما وافق الشَّرع»؛ فعقَّب ابن عقيل على قول الشَّافعيّ بـ: «السِّياسة ما كانت فعلًا يكون معه النَّاس أقرب إلى الصَّلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرَّسول ﷺ، ولا نزل به وحيٌ، فإن أردت بقولك: إلَّا ما وافق الشَّرع: لم يخالف ما نطق به الشَّرع، فصحيح؛ وإن أردت: لا سياسة إلَّا ما نطق به الشَّرع، فغلط، وتغليط للصَّحابة»[٣١٩].

---

٣١٦- انظر «تاريخ الحكم في الإسلام» / محمود عكَّاشة.
٣١٧- المصدر السَّابق.
٣١٨- المصدر السَّابق.
٣١٩- المصدر السَّابق.

وهو تعقيب فريد، يمكن اعتباره، بكُلِّ ثقة، من الجذور القديمة للدَّعوة الحديثة إلى تجديد الخطاب الدِّينيّ، وأحد المفاتيح الرَّئيسة التي على المسلمين استخدامها في الألفيَّة الثَّالثة، كي يفيقوا أوَّلًا، وكي يمكن للإسلام جناء ثماره ثانيًا.

وبهذا الموجز المُستوفي، على قِصره، لمعنى السِّياسة، يتَّضح لنا أنَّ وصفها باللعبة القذرة وصف في غير مَحلِّه، أُريدَ به هدفٌ خبيث، هو: إقصاء الدِّين عن العمل السِّياسيّ، بزعم قُدُس الدِّين ودنس السِّياسة؛ وهي دعوى عَلمانيَّة بحتة، يُشجِّعها السِّياسيون الذين لا يُريدون للدِّين تكبيل ممارساتهم السِّياسيَّة القذرة. أمَّا السِّياسة بذاتها فلعبة نبيلة، ترقى إلى أن تكون مُكوِّنًا من مُكوِّنات الشَّرائع الدِّينيَّة.

وعليه؛ فإنَّ اعتبار الطُّموح السِّياسيّ المُحمَّديِّ سُبَّة في ذاته الرَّسوليَّة، تستلزم إنكارها، هو حماقة لا يجب على المسلم الفطن ارتكابها.

وقد مُجِّد الفاتحون الذين حقَّقوا طموحاتهم السياسيَّة بفتح الإمبراطوريات العظيمة، ودُوِّنت فتوحاتهم، على ما شابها من أهوال التَّدمير والإبادة قتلًا وحرقًا، في إلياذات وهوميروسيَّات، ثُمَّ يُعيَّر مُحمَّد ﷺ بطموحه السِّياسيّ، وحملاته العسكريَّة ذات الطَّابع الفتحوَيّ، ما يُمثِّل انفصامًا رؤيويًّا لا يُرَدّ عليه بتبريرات لتبرئة مُحمَّد ﷺ من شيء هو في أصله المجد والفخار، بل يُرَدّ عليه بتأكيد هذا المجد والفخار، ونقول: نعم، حقَّق النَّبيُّ مُحمَّد ﷺ طموحه السِّياسيّ، بأعظم وأنبل ما يكون.

ونختم هذا الفصل من كتابنا بما قالته مارجريت ماركوس، كاتبة أمريكيَّة يهوديَّة اعتنقت الإسلام وغيرت اسمها إلى مريم جميلة، تؤكِّد به على أنَّ الإسلام ليس دينًا روحيًا فقط، بل: «في الإسلام تطوَّر المجتمع الإيمانيُّ مباشرة، ومنذ عهد النُّبوَّة، إلى كيان متكامل له تعبير سياسيٌّ وعسكريٌّ واجتماعيٌّ واقتصاديٌّ ومؤسَّساتيٌّ وفق تصوُّرات نابعة من الشَّريعة والمفاهيم الإسلاميَّة الواردة في القرآن والسُنَّة»[٣٢٠].

ها هي كاتبة أمريكيَّة مُثقَّفة، تنتمي لأُمَّة معاصرة بالغة التَّحضُّر، لم تر في طموحات مُحمَّد ﷺ ـ ذات التَّجليَّات السِّياسيَّة والعسكريَّة والاقتصاديَّة ـ سُبَّة تصدّها عن اعتناق الإسلام طواعية، وبكامل قناعاتها.

٣٢٠- "رحلتي من الكفر إلى الإيمان. قصَّة إسلام مريم جميلة" / مُحمَّد يحيى.

# الفصل الثَّاني عشر

علاقة حديث الإفك بوقائع الفتنة الكبرى . المعيار الإنسانيُّ في تقدير صحيح الدِّين . السُّنة والشَّيعة أخَوان غريمان . صفات عشر تكسب صاحبها احترام النَّاس . الأصل القوميُّ للصِّراع بين السُّنَّة والشِّيعة.

انطلقت شرارة الفتنة الكبرى في صدر الإسلام قبل وقوعها بأكثر من خمسة وعشرين عامًا، لتشتعل النِّيران في أرجاء العالم الإسلاميِّ.

وقد انقضى من الزَّمن أربعة عشر قرنًا ونصف تقريبًا ولا تزال مشتعلة .

وها نحن، في الرُّبع الأوَّل من القرن الأوَّل من الألفيَّة الميلاديَّة الثَّالثة، نتابع وقائع الصِّراع الدَّاميّ والبئيس بين السُّنَّة والشِّيعة، والعداء المُستحكَم بين دولتين مسلمتين كبيرتين تتزعَّمان المعسكرين، السُّعوديَّة وإيران، ودورهما في إدارة هذا الصِّراع خفية معظم الوقت، وعلانية في أوقات، ولا يستنكف أيٌّ منهما من اللجوء إلى أخسِّ الوسائل السِّياسيَّة، ومنها الاستعانة باليهود الصَّهاينة (وللمفارقة التَّاريخيَّة هناك كتب معتبرة أكَّدت وجود دور يهوديٍّ في قدح وإزكاء الشَّرارة الأولى لتلك الفتنة الكبرى)، وبالشيوعيَّة أيضًا، وذلك في محاولة خسيسة لكسب الصَّراع.

بدأ كلُّ شيء بحادث طارئ؛ حيث كان مُحمَّد ﷺ قافلًا بجيشه

من إحدى غزواته[٣٢١]، وكان من سُنَّته، إذا غزا، أن يضرب القرعة بين زوجاته، ويصطحب من تستقرّ عليها. فكانت في صحبته، تلك المرَّة، أحبُّهنّ إلى قلبه، السَّيِّدة عائشة.

ونقل إلينا المُحدِّثون والرُّواة أنَّ حاجةً طرأت للسيِّدة عائشة، فذهبت لقضائها بعيدًا عن المعسكر، وعندما عادت اكتشفت فقدان قلادتها، فعادت إلى حيث كانت، وأخذت تبحث عنها في رمال الصَّحراء وبين صخورها.

وانقضى في ذلك وقت كافٍ لمغادرة الجيش بدونها.

وفي تبرير مغادرة الجيش دونها يقول المُحدِّثون والرُّواة: إنَّ السيِّدة عائشة كانت لم تزل بعد صغيرة السِّنّ، خفيفة اللحم، نحيفة الجسم، بحيث لم يشُكّ الجند الذين رفعوا هودجها، ووضعوه على سنام جملها، في أنَّها ليست بداخله، وانطلق الجيش مغادرًا.

وكان تحرُّك الجيش بأمر مباغت من النَّبيِّ ﷺ، الذي عمل بتحرُّكه المُباغِت، على تفادي فتنة كادت تنشب بين مسلمي الأوس ومسلمي الخزرج داخل المعسكر؛ فلمَّا عادت السيِّدة عائشة لم تجد الجيش. ولم يكن باستطاعتها غير البقاء في مكانها، آملة في يفتقدها مُحمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، فيأمر أحدهم بالعودة ليأخذها.

غير أنَّ للأقدار أكثر من مشيئة مُتوقَّعة.

وكانت مشيئة أخرى قد كُتِبت في الألواح لينبني عليها صراعٌ دمويٌّ

٣٢١- غزوة بني المصطلق.

كبير بين المسلمين، يشقّ أُمَّتُهم شقًّا لا التئام بعده.

لقد ظهرت ناقة في الأفق يعتليها رجل، لمَّا اقترب منها عرفته، إنَّه صفوان بن المُعطّل، أحد أصحاب زوجها المُقرَّبين. كما علم هو بدوره أنَّها السيِّدة عائشة زوج النَّبيِّ ﷺ، وقد قالت (في المَرويَّات عنها) إنَّها لم تبادله كلمة واحدة، فقط ركبت النَّاقة عندما دعاها إلى ذلك، وقادها سيرًا على قدميه، حتَّى أوصلها إلى الرَّسول، صلَّى الله عليه وسلَّم، بسلام.

غير أنَّ المُرجفين، على ديدنهم في كلِّ مكان وزمان، يحلو لهم إثارة السَّيِّئ من الأفعال والأقوال؛ فقال عبدالله بن أبي بن سلول، وكان كبير المنافقين المرجفين بالمدينة، بل كان هو نفسه من سعى في إزكاء الفتنة بين المهاجرين والأنصار، ما كان معه أن أمر مُحمَّد ﷺ بتحريك الجيش هذا التَّحريك المُباغت، الذي نجم عنه تخلُّف عائشة: إنَّ زوجة صاحبكم لم تسلم من صفوان، ولم يسلم صفوان منها؛ يقصد أنَّهما ارتكبا الفاحشة[٣٢٢].

ولسنا في معرض تفصيل جميع وقائع حديث الإفك، ولا مُهتمِّين بدحض ذلك الحديث، أو تمحيصه، أو مداولته، بل نعرِّج على الجزء منه الذي يخدم مراد هذا الفصل من كتابنا: كيف لمسلمي الألفيَّة الثَّالثة هدم الجدار الفاصل بينهما كسُنَّة وشيعة؟

عندما انتشر إرجاف ابن أبيّ بن سلول، وغادرت عائشة بيتها إلى بيت أبيها أبي بكر الصدِّيق مريضة، وذلك قبل أن تعلم ما أثير

٣٢٢- من مرويَّات عائشة أم المؤمنين، قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرًا.....» / أخرجه البخاريُّ

حولها، فتلزم البكاء والصَّمت. كان مُحمَّد ﷺ قد بدأ يأخذ مشورة أقرب أصحابه في تطليق عائشة (لاحظ أنَّه ﷺ لم يتَّجه فورًا إلى مشورة السَّماء)، وكان منهم عليٌّ بن أبي طالب، ابن عمِّه، وأوَّل المسلمين من الصِّبيان، وزوج فاطمة بنت مُحمَّد ﷺ وقُرَّة عينه، وكانت «السيِّدة فاطمة والسيِّدة عائشة شريكتان في قلبٍ واحدٍ تتنافسان عليه قلب النَّبيّ ﷺ، ولكنَّها شركة بين كريمتين»[٣٢٣]، فقيل إنَّ تلك المنافسة بين السيِّدتين ألقت بتبعاتها على عليٍّ بن أبي طالب، فمال بطبيعة العلاقة الزَّوجيَّة إلى فاطمة، خصوصًا وأنَّ السيِّدة عائشة كنت أقرب إلى الطِّفلة متهوِّرة الطَّبع منها إلى السيِّدة ذات العقل الرَّاجح، ما يمكن معه لبعض أفعالها أو أقوالها ألا يروق لعليٍّ، فيوغر صدره عليها، ما دفع به إلى أن يقول للنَّبيِّ ﷺ حين استشاره في تطليق عائشة: «يا رسول الله لم يُضيِّق الله عليك، والنِّساء سواها كثير»[٣٢٤].

كلمة قالها عليٌّ، فقدِّر لها أن تكون أحد أهم جذرين ضربًا عميقًا في التُّربة المُسبِّبة لوقوع الفتنة الكبرى؛ والجذر الأوَّل له علاقة أيضًا، بموقف عائشة الشَّخصيّ من عثمان بن عفَّان، والذي تصاعد تأثيره، لينتهي بمقتل ذي النُّورين، ثالث الخلفاء الرَّاشدين. و«لا ريب أنَّ عليًّا . رضي الله عنه . قد أخطأه التَّوفيق في تلك النَّصيحة؛ إذ لم يكن من الإنصاف أن تُطلَّق عائشة لشبهةٍ لغط بها المنافقون وطلَّاب الوقيعة بين النَّبيِّ وأصحابه، ولن يفهم النَّاس من تطليقها إلَّا أنَّ النَّبيَّ قد أدانها، وأنف من معاشرتها، ولن

٣٢٣- "الصدِّيقة بنت الصدِّيق" / عباس محمود العقاد.

٣٢٤- من مرويَّات عائشة، قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرًا...» / أخرجه البخاريُّ

يصيبها ذلك وحدها، بل يلصِق بها وبأبيها وآلها وصمةً لا تُمحى في زمانها ولا بعد زمانها»[٣٢٥].

فكان طبيعيًّا جدًّا ألَّا تنساها عائشة لعليٍّ.

وظهر مكنونها بعد سنين طويلة، وذلك في تخوُّفها من أن يلي عليٌّ الأمر بعد عثمان، ثُمَّ ضجَّت غضبًا حين آل الأمر إليه فعلًا، لتُصعِّد من جفائها له إلى حدِّ تجييش العسكر، وقتاله في موقعة حربيَّة اشتهرت باسم موقعة الجمل، والتي صبَّت نتيجتها لمصلحة معاوية بن سفيان، المنافس العتيد لعليٍّ؛ والتي نجم عنها ما هو أخطر من زوال الخلافة الرَّاشدة بمقتل عليٍّ، ونشوء الملك العضود باستتباب الأمر لمعاوية، ألا وهو ظهور خلافات فِقهيَّة أدَّت إلى انشقاق المسلمين إلى قسمين، أحدهما يطالب بحَقِّ عليٍّ وبنيه في الحكم، ويرفع من شأن هذا الحقّ إلى درجة بصفته ركنًا من أركان الإسلام، ويُكفِّر كلَّ من يُقرّ بالخلافة لمن دونهم، وهم «الشِّيعة»، أمَّا الآخر فلا يرى بأسًا إيمانيًّا، أو عقائديًّا، في ولاية معاوية للحكم، أو ولاية أي مسلم غيره، ويوقِّر الصَّحابة جميعًا، مهما اختلفوا واقتتلوا، ولعبت بهم الفتنة ولعبوا بها، ويُكفِّرون من يزدري صحابة النَّبيِّ ﷺ في حين وقَّرهم الله جَلَّجَلَالُهُ في القرآن الكريم، ورفع من شأنهم إلى عِلِّيين، وهؤلاء هم «السُّنَّة».

ولنا هنا أن نتساءل: هل هناك معيار يمكن به قياس صحِّيَّة المواقف، فنعرف أيَّ الفريقين أقرب إلى صحيح الدِّين، إذا كان كلاهما يعرب عن حيازته للدِّين الصَّحيح؟

---

٣٢٥- "الصدِّيقة بنت الصدِّيق" / عبَّاس محمود العقَّاد.

ويمكننا الإجابة بـ: نعم؛ إنَّه «المعيار الإنسانيُّ»، ووحدة قياسه «القيمة الأخلاقيَّة». فالدِّين خُلق، وخُطَّة طريق للارتقاء بالإنسانيَّة.

إذن، أيُّ الفريقين أقرب لصحيح الدِّين: السُّنَّة أم الشِّيعة؟

أو بالأدقّ: لأيِّ فريق منهما يرجح «المعيار الإنسانيُّ»؟ أيّ قدر من «القيمة الأخلاقيَّة» يحتويها تصوُّرُ كلٍّ منهما للإسلام؟

قبل الاستطراد في محاولة الإجابة نرى أنَّ ما يقوم به الطَّرفان من تكفير بعضهم بعضًا لا يحلّ شرعًا؛ وكان النَّبيُّ ﷺ قد حذَّر من أنَّه إذا تلاحى مسلمان، فتبادلا التَّكفير، فقد باء به أحدهما[٣٢٦].

والمسلم ليس هو من يقوم على أداء الأركان الخمسة فقط، بل أوضح النَّبيُّ، صلَّى الله عليه وسلَّم، أنَّ كلَّ من يأكل ذبيحة المسلمين، ويُصلِّي إلى قبلتهم فهو مسلم.

فإذا كان السُّنَّة والشِّيعة يتَّفقون على أركان الإسلام، ويأكل بعضهم ذبيحة بعض، ويصلُّون إلى ذات القبلة في مكَّة المُكرَّمة، فإنَّه لا يحلّ لهم تكفير بعضهم بعضا لخلافات أصلها سياسيٌّ بأكثر من أن يكون عقائديّ.

بل إنَّ هذه الخلافات التي يستحلّ السُّنَّة والشِّيعة تكفير بعضهم بعضًا بسببها، ويظنُّون أنَّهم بهذا يتقرَّبون إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ، ويقرِّون عين نبيِّهم ﷺ، قد وقع مثلها بالضَّبط في حياة مُحمَّد ﷺ، مع

---

٣٢٦- من مرويَّات عبدالله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّما رجل قال لأخيه: يا كافر....» / أخرجه البخاريُّ.

ذلك لم يُكفِّر الرَّسول ﷺ من سقط فيها، ولم يكفِّره الصَّحابة الأجلَّاء، ولا التَّابعون بإحسان، مع كونهم أصحاب الفهم الأصحِّ للإسلام.

فقد اتُّهمت عائشة زوج النَّبيِّ ﷺ في شرفها، واشترك في اتِّهامها منافقون لا إخلاص لهم، ومسلمون لا يُشكّ في إخلاصهم، بالتَّصريح وبالتَّلميح.

صرَّح حسَّان بن ثابت، وهو شاعر الرَّسول ﷺ، باتِّهامها، وكان ممَّن تولَّوا كِبَر الإفك.

وصرَّح مِسطح، وهو رجل من قرابة أبي بكر الصدِّيق.

ولمَّح عليٌّ بن أبي طالب عندما أشار على الرَّسول ﷺ باستبدالها.

بل إنَّ مُحمَّدًا نفسه ﷺ لم يُنكر اتّهام عائشة على الفور، بل فَكَّر، وتحيَّر، وكان أقرب إلى التَّصديق منه إلى التَّكذيب، فأخذ يستشير أصحابه الأجلَّاء في تطليقها، ثُمَّ ذهب إليها في بيت أبيها، وكانت قد غادرت إليه للاستشفاء من حُمَّى أصابتها، يطالبها بالتَّوبة إذا كانت فعلت ذلك[٣٢٧].

جميع ذلك ولم يُكفَّر أحد. فعلام تكفير السُّنَّة للشِّيعة، إذا كانوا يخوضون فيما خاض فيه المسلمون الأوائل ولم يتمّ تكفيرهم؟

قد يجيب أهل السُّنَّة بأنَّهم يكفِّرون الشِّيعة لتجاوزهم الخوض في البهتان المفترى على زوج الرَّسول ﷺ إلى عدم تصديق كلام

٣٢٧- من مرويَّات عائشة أم المؤمنين، قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرًا.....» / أخرجه البخاريّ.

الله المُنزَّل من فوق سبع سماوات بتبرئة عائشة.

وهنا نقول: إنَّه دور التَّأويل. إنَّه تأويل الشِّيعة للآيات، لا عدم تصديقها. وهو تأويل لا يلزمنا بصفتنا سُنَّة. لكن يلزمنا شيء آخر، أذكره بعد أسطر.

وقد تسابَّ الصَّحابةُ في أكثر من مناسبة، بل كادت فتن تشتعل فيهم ولم يزل النَّبيُّ ﷺ بينهم.

وقد بلغ من اختلافهم أن غضب النَّبيُّ ﷺ يومًا، ونهى بعضهم عن سبِّ صحابته الأقربين، السَّابقين إليه في أوَّل الإسلام.

إذن، ها هم الصَّحابة من أهل الكيان الإسلاميِّ الأوَّل، أشرف وأمجد الكيانات الإسلاميَّة على الإطلاق، يتسابُّون ويتشاحنون في حضرة النَّبيِّ ﷺ، ويطرأ عليهم ما يطرأ على عموم النَّاس، فلَم يُكفِّر بعضهم بعضًا.

ثُمَّ بعد وفاة النَّبيِّ ﷺ استنكر بعضهم خلافة البعض، بل منهم من امتنع عن أداء البيعة رغم اتِّفاق كبار الصَّحابة على أدائها، وموقف عليٍّ بن أبي طالب من مبايعة أبي بكر الصدِّيق مشهورة، فلم يُكفِّر بعضهم بعضًا.

أمَّا التَّنابذ بالألقاب (كما يفعل بعض الشِّيعة اليوم من إطلاق الألقاب المسيئة على بعض الصَّحابة الكرام) فقد جرى مثل هذا بين الصَّحابة أنفسهم.

اختلفت عائشة، زوجة النَّبيّ ﷺ، مع عثمان بن عفَّان، فلقَّبته

بنعثل[٣٢٨]، وهو اسم أحد يهود المدينة.

ومنهم من سمَّى عبد الله بن الزُّبير بأبي خبيب، على سبيل الإقلال منه.

وغير ذلك كثير.

لكن، مهما اتَّفق الشِّيعة مع بعض الصَّحابة الأُوَل في سلوكيَّات باعثها عاطفيٌّ أكثر منه عقليٌّ، إلَّا أنَّنا بصفتنا سُنَّة نتفهَّم مواقف الصَّحابة، وإذا عبنا عليهم، فإنَّنا لا ندينهم؛ لأنَّنا لسنا الدَّيَّان؛ ولأنَّنا لم نبلغ شأوهم عِزًّا ومجدًا وإنجازات ليحقّ لنا إدانتهم، بل لم نصحب الرَّسول، أو نعاصره، كما صاحبوه وعاصروه؛ وعليه فإنَّ فقه الشِّيعة، بخصوص هذا الشَّأن، لا يلزمنا أيضًا، لكن يلزمنا منهم شيء آخر، سأذكره بإذن الله جَلَّجَلَالُهُ، لكن ليس قبل الإجابة على تلك الأسئلة التي طرحناها قبل أسطر، بخصوص ما إذا كان الشِّيعة أفضل أم السُّنَّة، وأي معيار إنسانيّ يرجح طرفًا منهما على الطَّرف الآخر.

وحين نسعى إلى ترجيح طرف على طرف، لا نفعل ذلك إلَّا لأنَّه على هذا الطَّرف الأفضل تترتَّب واجبات مُلزِمة، ومهامٌّ وعرة.

وفي محاولة لمعرفة الوحدة الأخلاقيَّة التي سنعاير بها نهج السُّنَّة في النَّظر لصَّحابة مُحمَّد ﷺ، الذين لا يمكن إنكار قيام الإسلام على أكتافهم، وكذلك نهج الشِّيعة في النَّظر إليهم، قرأت مقالة جدّ رصينة، منشورة بأحد المواقع الإلكترونيَّة على شبكة

٣٢٨- انظر الجزء الثَّالث من «تاريخ الطبريّ».

الإنترنت[٣٢٩]، عدَّد كاتبها عشر صفات تُكسِب صاحبها احترام النَّاس ومحبَّتهم، رتَّبها على الآتي: التَّسامح. مراعاة شعور الآخرين. حسن الظَّن. طول البال. روح النُّكتة. ترك الفضول. اللباقة. التَّواضع. الانضباط. الجِدِّيَّة. ورأيت جميعها صفات صالحة لاعتبارها وحدة أخلاقية معيارية يمكننا بها قياس العمق الإنساني لا لدى الأشخاص فقط، بل لدى المجتمعات أيضًا.

ومن هذا المنطلق، فإنَّنا سنطبق الآن بعض هذه الصِّفات العشرة على الفريقين، ولنر أيَّهما أليق بالإنسانيَّة في طورها الإيمانيّ.

لا يمكن لدارس، أو باحث، إنكار أنَّ أهل السُّنَّة يُجلّون جميع الصَّحابة، السَّابقين منهم، أو من أسلم بعد فتح مَكَّة، لا يَختصّون أحدهم باحتقار أو ازدراء، ولا يتَعمَّدون التَّهوين من قدر الصَّحابة الذين يُجلُّونهم الشِّيعة دون بقيَّة الصَّحابة، بل إنَّ عليًّا بن أبي طالب، وهو رأس الفكرة الشِّيعيَّة، مُعظَّم القدر جِدًّا عند السُّنَّة، حتَّى إنَّ مُحدِّثي السُّنَّة أثبتوا أحاديث نَبويَّة كثيرة تُلبِس عليًّا الكرامة، وتحيطه بالصِّيانة؛ وكيف لا؟ وهو أوَّل الصِّبيان إسلامًا، وزوج كريمة النَّبيّ ﷺ المُقرَّبة إلى قلبه، وأبو سبطَيه الحسن والحسين.

وتُجلّ الشِّيعة عمَّارًا بن ياسر، لموقفه المؤازر لعليٍّ بن أبي طالب ضدّ معاوية بن أبي سفيان، حتَّى إنَّه قضى نحبه شهيدًا في جيش عليٍّ، وبنفس القدر من الإجلال الشِّيعيّ لعمَّار يأتي الإجلال السُّنِّيّ له؛ فقد حفظوا له أنَّه من أوائل المسلمين، مع آل ياسر، وأنَّه

٣٢٩- مقالة بعنوان: «عشر صفات تمنحك احترام النَّاس ومحبَّتهم» - موقع صحيفة المدينة / سعود الكاتب.

موعود بالجنَّة لما لاقاه من شِدَّة العذاب على يد مُشركي قريش في الأيَّام الأولى من الدَّعوة الإسلاميَّة.

بل إنَّ السُّنَّة تنتصر لعليٍّ بن أبي طالب في حربه لمعاوية؛ لأنَّ استشهاد عمَّار كان رُمَّانة الميزان الفارقة في هذا الشَّأن، إذ بلغهم حديث مُحمَّد ﷺ وقد أخبر فيه بأنَّ عمَّارًا تقتله الفئة الباغية[٣٣٠]، وقد قتلته سيوف جند الشَّام، وأميرهم معاوية بن أبي سفيان.

وكذلك أبو ذرٍّ الغفاريّ. وغير من ذُكِر كثيرون، يُجلّهم الشِّيعة، ولا يمنع ذلك السُّنَّة من إجلالهم أيضًا.

هكذا السُّنَّة يُسامحون الصَّحابة مهما أخطأوا، في حين لا يفعل الشِّيعة ذلك، بل لا يُراعون مشاعر السُّنَّة عندما يواصلون اتّهام عائشة، وهي أُمّ المؤمنين عند السُّنَّة، بإتيان الفاحشة؛ ويذكرون أبابكر وعُمرًا، وغيرهما من كبار الصَّحابة السَّابقين، صحابة مُحمَّد ﷺ الكرام، الذين إمَّا تركوا الفتنة، فلم يخوضوا فيها، أو قاتلوا مع معاوية، بكلِّ سوء وشرٍّ، فلا يتسامحون معهم مُطلقًا، وهم في ذلك يسوقهم الفضول إلى نبش تاريخ الحقبة الأولى من الإسلام لا لشيء سوى إثبات أنَّ الصَّحابة الأوَل ارتدُّوا عن الإيمان! ومبعث آرائهم الفقهيَّة سِياسيٌّ بحت، بل إنَّ الولاية (الحكم) ركنٌ من أركان الإسلام عندهم.

وتأسيسًا على ما سبق، فإنَّ المُسامحين، المُتسامحين، حسني الظَّن، مَن يراعون مشاعر غيرهم، ويتركون الفضول، هم

٣٣٠- من مرويَّات أبي سعيد الخدري، قال: «كنَّا نحمل لبنة لبنة وعمَّار لبنتين لبنتين....» / أخرجه البخاريُّ.

الطَّرف الأفضل بالمعيار الإنسانيّ، لا من يكتمون العداوة، ويجعلونها وَقودًا لأفكارهم وعقائدهم، ويُسيئون الظَّنَّ، مُتجاهلين مشاعر غيرهم، ويتجسَّسون في التَّاريخ فضولًا.

وعلى عاتق الطَّرف الأفضل إنسانيًّا تقع مُهمَّة الإصلاح.

وتبدأ بأن يغضّ أهل السُنَّة الطَّرف عن جميع ما انبنى بمواقف عاطفيَّة لا أساس لها من العقل، وتثبيت أُسّ الإسلام الأصيل، الذي يقوم عليه الدِّين، وينهدم بهدمه، ألا وهو: التَّوحيد الخالص.

وليس اختلاف الرُّؤى العقائديَّة وحده ما يجعل العداء بين السُنَّة والشِّيعة مُستحكمًا، بل اختلاف القَوميَّات أيضًا؛ فمعظم الشِّيعة يرتكن إلى القوميَّة الفارسيَّة، ومعظم السُنَّة يرتكنون إلى القوميَّة العربيَّة.

ففارس (الجمهورية الإسلاميَّة الإيرانيَّة حاليًا) كانت قديمًا واحدة من أعظم الحضارات الإنسانيَّة، وإحدى قوَّتين (مع روما البيزنطيَّة) تنازعتا رئاسة العالم لوقت طويل، لم تنس أنَّ العرب الصَّحراويين (لا منافسها الحضاريّ الكبير) هم من استطاعوا الإطاحة بها عسكريًّا، قبل غزوها ثقافيًا، وتحويلها عن عبادة النَّار إلى عبادة الله، وهو أمر ليس بالهيِّن في صراع القوميَّات.

ثُمَّ ساعد على تأجيج هذا الصِّراع القوميّ سلوكيَّات كثير من الفاتحين العرب، ممَّن لم يتركوا للإسلام فرصة العمل على التَّسوية بين النَّاس، حيث من تعاليمه الرَّائعة هو أنَّه لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ، بل سواسية كأسنان المشط[٣٣١]، لا يتميَّز

٣٣١- من مرويَّات جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها النَّاس إنَّ

أحدهم عن الآخر إلَّا بتقوى الله؛ لكن، وكعادة العرب، ظهرت جاهليَّة الفاتحين جليَّة، في توصيفهم لمُسلمي البلاد المفتوحة بالموالي، والمولى، في العرف العربيِّ، هو التَّابع؛ والتَّابع دون المتبوع.

وقد تقبل الشُّعوب معدومة التَّأثير عالميًّا، ولا حضارة عظيمة قديمة لها، وضع الموالي، لكن بلاد فارس وشعبها أبعد من أن يقبلا به.

ولأنَّ شوكة الإسلام كانت قويَّة، بحيث لم يكن بمقدور فارس التَّخلُّص عسكريًّا، لجأت إلى ما يُميِّزها عن غيرها وهي في حظيرة الإسلام، وأن تصير به رأسًا داخل العباءة الإسلاميَّة الجامعة، فاحتضنت الفكرة الشِّيعيَّة النَّاهضة، ونهضت بها، ومن ثَمَّ ناهضت بها الخلافة السُّنيَّة أينما كانت، في العراق، أو في مصر، أو في تركيا.

حدث ذلك بالفعل، وكان معظم العمل ضدّ استقرار الخلافة الأمويَّة، ومن بعدها العبَّاسيَّة، دائمًا ما يُرتَّب ويُدبَّر في فارس، أو في محيط فارس. لتوجد على مدى التَّاريخ الإسلاميّ دول شيعيَّة تناوئ دولًا سُنيَّة. حتى ها نحن هنا، الآن، في الرُّبع الأوَّل من القرن الأوَّل من الألفيَّة الميلاديَّة الثَّالثة، وبعد أربعة عشر قرنًا ونيِّف من انبلاج نور الإسلام، لا نزال، بصفتنا مسلمين، نعاني إظلام هذه البقعة المُعتمة، المُتمثِّلة في الصِّراع العربيِّ الإيرانيِّ، أو بصورة أخرى: الصِّراع السُنِّي الشِّيعيّ، وهو الصِّراع الذي طالما استغلَّه الاستعمار الغَربيّ القديم، بتجلِّياته الحديثة، تدخُّلًا في

---

ربّكم واحد....» / أخرجه أبو نعيم والبيهقيّ.

شؤون المنطقة العربيَّة المسلمة، فينشئ قواعده العسكريَّة على أراضي دول مسلمة، ينطلق منها لضرب دول مسلمة، كان بإمكانها ـ لو تخلَّت عن نعرة الجاهليَّة الأولى وفعَّلت الإسلام ـ حلّ مشاكلها البَينيَّة بسهولة ورشد، ولمَّا أتاحت الفرصة لأعداء الإسلام كي يمارسوا أنشطتهم المستهدفة محوه من قلوب المسلمين وأرواحهم.

فإذا كان المسلمون، سُنَّة وشيعة، يُوحِّدون الله توحيدًا خالصًا، ويأكلون ذبائحهم، ويُصلُّون إلى قبلة واحدة، ويحجُّون إلى كعبة واحدة، فإنَّهم مُتَّفقون في الأُسِّ الرَّئيس من الإسلام. وعلى هذا الاتّفاق العقائديّ يجب عليهم إقامة علاقة سياسيَّة جديدة بينهما في الألفيَّة الثَّالثة.

وعلى السُّنَّة المتسامحين، إذا كانوا الأفضل حقيقة، مدّ يد السَّلام تجاه الشِّيعة، وتقبُّل اختلافهم، وغضّ الطَّرف عن مساوئهم العَقائديَّة، من أجل توحيد أُمَّة إسلاميَّة كبرى، تكن أقوى في مواجهة التَّبشيريَّة الصَّليبيَّة الصُّهيونيَّة العالميَّة المعاصرة، ويمكنها استعادة مكانها القديم في صدارة العالم.

هكذا؛ على المسلمين، في الجهتين، السُّنَّة والشِّيعة، إيقاظ ضمائرهم لتعديل وضع هذه العلاقة؛ وهناك من بيَّن أنَّ الضَّمير يتأثَّر بعاملين كبيرين، «أوَّلًا: يتأثَّر بالحالة الاجتماعيَّة للأُمَّة وعُرفها ودرجة رقيّها، فالإنسان ينشأ في أسرة تستحسن أعمالًا وتستقبح أخرى، فيتبعها في استحسانها واستقباحها، ثُمَّ هو إذا خرج إلى الحياة العامَّة تبادل مع النَّاس الأخذ والعطاء، فيلتقط آراءهم في الخير والشَّرِّ، ويُقلِّدهم في ذلك، ويُسايرهم فيما يستحسنون

وما يستقبحون، ويأمره ضميره بأن يفعل كما يفعلون. ثانيًا: يتأثَّر ضمير كلّ إنسان بدرجة عقله وعلمه، فكلَّما زاد علم الإنسان ونما عقله ارتقى ضميره، ذلك أنَّ الخبرة والتَّجربة ومعرفته بنتائج الأشياء النَّافعة والضَّارَّة توسِّع عقله، فيتبع ذلك ارتقاء ضميره، حتَّى قد يأمره ضميره بعد هذه التَّجارب بما كان ينهاه عنه من قبل، وينهاه عمَّا كان يأمره به؛ لأنَّ عقله عرف من الحقائق ما كان يجهله، بل هو إذا وصل إلى درجة كبيرة من رُقيِّ العقل كان ضميره تابعًا لعقله أكثر من تبعيَّته لتقاليد قومه»[٣٣٢].

والأُمَّة الإسلاميَّة ـ في الألفيَّة الثَّالثة ـ تحتاج إلى الضَّمير المُرتقي بالعقل والعلم، لا الضَّمير المُتخلِّف بتقديس الموروثات تقديسًا مُنكرًا، مهما كانت هذه الموروثات مجرَّد خلافات سياسيَّة عفى عليها الدَّهر!

وها هو أحد كُتَّاب الشِّيعة يفطن إلى ما ننادي به، فيقول: «الأمَّة الإسلاميَّة، بما فيها الشُّعوب العربيَّة، مَدعوَّة اليوم لفتح ملفَّات جديدة، وتاريخ جديد يمليه منهاج الوعي الجديد، الذي يفرض نفسه نتيجة تجدُّد المواقف الاستعماريَّة إزاءنا كأُمَّة ذات شعوب كبيرة»[٣٣٣]. فيتجاوب معه أحد كُتَّاب السُّنَّة قائلاً: «في زماننا لا نحتاج إلى (مُرافعة) من أيِّ نوع لكي نكسب قضيَّة التَّعامل مع الآخر من أجل مصلحة مشتركة، ولكي نصنعا معًا علاقة أفضل، هي خطوة باتّجاه صياغة العالم الأفضل»[٣٣٤].

---

٣٣٢- "الأخلاق" / أحمد أمين.
٣٣٣- "الثَّورة الإسلاميَّة في إيران" / جعفر حسين نزار.
٣٣٤- "العرب وإيران" / فهمي هويدي.

# الفصل الثَّالث عشر

عظمة مصر. صعوبة تغيير المكون المِصريّ. نجاح المسلمون العرب في تغيير المُكوِّن المِصريّ. السَّبب الحقيقيُّ في تحَوُّل مصر إلى الإسلام. مصر تُغيِّر الفقه الإسلاميّ. مصر جدار الصَّدّ الإسلاميّ. الأزهر منارة مصر الإسلاميَّة. الأزهر يمتلك مُقوِّمات المُوحِّد للأمَّة الإسلاميَّة.

أورد أحد المستشرقين الفرنسيِّين، في مقالة له عن أحد سلاطين المماليك[٣٣٥]، عبارة كتبها سائح فرنسيٌّ زار مصر في القرن التَّاسع عشر، قال فيها: «إنَّ الذي يَعبُر هذا البلد العظيم الشَّأن ليلقَى في طريقه الكتاب المُقدَّس، وهوميروس، والفلسفة، والعلوم، والإغريق، والرُّومان، والمسيحيَّة، والمذاهب التي خرجت عليها، والرَّهبنة، والإسلام، والحروب الصَّليبيَّة، والثورة الفرنسيَّة، بل إنَّه ليكاد يلقَى فيها كلَّ ما كان خطير الشَّأن في تاريخ هذا العالم»[٣٣٦].

وما قاله هذا السَّائح يصلح لأن يكون المُختصر الأبسط والأوفى، لكلّ ما كُتِب في عظمة مصر. ولو أنَّنا معنيُّون في هذا الفصل بذكر مفاخر مصر لاستدعينا عشرات المُقتبسات ممَّا استفاضت به مئات، إن لم تكن آلاف، الكتب العربيَّة والغربيَّة في الموضوع المِصريّ، لكنَّا مَعنيُّون بمحاولة رسم ملامح الدُّور المصريّ في الخُطَّة التي نضعها من أجل جناء إثمارٍ إسلاميٍّ مُتميِّز في الألفيَّة الثَّالثة.

٣٣٥- مقالة للمستشرق فييت عن السُّلطان بيبرس.

٣٣٦- "مصر والحضارة الإسلاميَّة" / زكي مُحمَّد حسن.

وخلاصة النَّظر في التَّاريـخ المصريّ تفيد بأنَّ مصر تسيَّدت مساحة واسعة من جُغرافيَّة العالم المعروف قديمًا، عندما قاد ملوكها القُدامى

العظماء جيوشهم نحو الشَّمال الآسيويّ، والجنوب الأفريقيّ، والغرب اللوبيّ، والشَّرق الصَّحراويّ، يؤدِّبون العصاة والمُتمرِّدين، ويفتحون البلاد لتوسيع المملكة وتوطيد أركانها. فكانت مصر لزمن طويل، يربو على الثَّلاثة آلاف عام، سيِّدة زمانها.

بيد أنَّ الزَّمان دار دورته التي تصيب الحضارات، كما يصيب الموت المخلوقات، إصابة حتميَّة، لا فكاك منها، لتتحوَّل مصر من سيِّدة لمسودة، ومن قائدة لتابعة، ولترسف في أغلال الاحتلال اليونانيّ مرَّة، والرُّومانيّ مرَّة، والفارسيّ مرَّة، إلى أن ملكها العربُ أخيرًا بفتحهم الإسلاميّ.

أمَّا الاحتلال اليونانيُّ والرُّومانيُّ فكان احتلالًا طويلًا، استنزف من التَّاريخ المِصريّ القديم قرابة ألفي سنة؛ ولو اعتبرنا الفتح العَربيَّ لمصر احتلالًا لا يزال قائمًا ـ لأنَّه لا أسرة ذات دمٍّ مِصريٍّ خالص تجلس على عرش مصر الآن ـ بل رئيس (على الأرجح) تمتدّ أصوله إلى قبيلة عَربيَّة نزحت إلى مصر مع الجيوش الفاتحة، أو في الهجرات الكبيرة التَّالية للفتح ـ فإنَّ مُدَّة الاحتلالين ـ اليونانيّ والرُّومانيّ ـ لم تزل، حتَّى تاريخ كتابة هذا الكتاب، أطول من مُدَّة ما يعدّه البعض (احتلالًا عربيًّا)، مع ذلك فإنَّ اليونان والرُّومان (على ما كانا عليه من حضارة كبيرة) لم يتمكَّنا من تغيير المُكوِّن البشريّ المُجتمعيّ المِصريّ: لغته. ديانته. تقاليده؛ بل حصل العكس، عندما تغيَّر اليونان والرُّومان داخل مصر، حتَّى إنَّهم

عبدوا آلهة المِصريِّين، أو ابتكروا آلهة جديدة كانت مزيجًا من آلهتهم وآلهة المِصريِّين، ولم يعد كثيرٌ من عساكرهم التي فتحت مصر إلى أوروبَّا، وإنما استوطنوا مصر، وتزَوَّجوا مِصريَّات، وأقاموا قرى ومدنًا صغيرة، وعملوا في الزِّراعة والرَّعي مثل أي فلَّاح مِصريٍّ بسيط، ومنهم من سكن المدن الكبيرة، واشتغل في التِّجارة والصِّناعة.

وحتَّى الاحتلال الفرنسيّ والإنجليزيّ، في الماضي القريب، لجميع أنحاء الوطن العربيّ لم يستطع بدوره تغيير شيء من مُكوِّن المصريّ العَربيّ، أو العَربيّ المِصريّ، في حين استطاع تغيير لغة العرب الجَزائريِّين والمغاربة، فتكلَّموا الفِرنسيَّة بأسهل مِمَّا تكلَّموا العَربيَّة، لكن العساكر الفرنسيس والإنجليز في مصر هم من أخذوا في نطق الكثير من الجمل العَربيَّة بالدَّارجة المِصريَّة.

وحتَّى في ما يخصّ العقائد، فإنَّ المِصريِّين القدماء أثَّروا عميقًا في إيمان اليهود، فطلبوا من موسى، عليه السَّلام، وهم في طريق الخروج من مصر، أن يجعل لهم عِجلًا يعبدونه، كما يعبد المِصريُّون عجلهم المُقدَّس أبيس.

واستقرَّ في مصر من المَسيحيَّة مذهبُها الأقرب للعقيدة المصريَّة القديمة المُؤلِّهة للثَّالوث (حورس / إيزيس / أوزوريس).

ومع هذا التَّأثير الطَّاغي لمصر على غزاتها العسكريِّين أو العقائديِّين، بحيث تهضمهم بتكوينها، مهما كان مُتخلِّفًا، ولا يهضمونها بتكوينهم، مهما كان مُتقدِّمًا، فإنَّ الغزاة الوحيدين الذين تمكَّنوا من هضمها هضمًا تامًّا، حدّ تذويبها، وإعادة تشكيلها بصوغ

جديد كانوا الغزاة العرب؛ وكان الإسلام، بنسخته المُحمَّديَّة، هو العقيدة الوحيدة التي ابتلعت جميع عقائدها السَّابقة ابتلاع عصا موسى، عليه السَّلام، لكل أفاعي سحرة فرعون.

فلِمَ تمكَّن العرب والإسلام، دون غيرهما، من فعل ذلك بمصر والمصريِّين؟

فكَّر المُفكِّرون، وتفلسف المُتفلسِفة، وكتب الأدباء، في محاولة للعثور على إجابة مُقنعة لهذا السُّؤال. واستقرّ معظمهم عند إجابة سهلة، أقرب للذِّهن من غيرها، وإن كنتُ أرى أنَّها أبعد ما تكون عن الإجابة الصَّحيحة.

فقد مركز هؤلاء السَّببَ في أنَّ المصريِّين (بصفتهم جميعًا مَسيحيِّين وقتها) عندما قدَّموا يد العون للفاتحين العرب لم يفعلوا ذلك رغبة فيهم، بل كيدًا في الرُّومان الذين أذاقوهم الويل بسبب اختلاف المذهب الكَنسيّ. فحكَّام مصر الرُّومان كانوا على مذهب، والشَّعب المصريّ كان على مذهب آخر. فاضطهد الرُّومان المصريِّين بأبشع الطُّرق، تعذيبًا، وقتلًا، وحرقًا، ونهبة للسِّباع الضَّواري.

وتصادف أن وصل الجيش العَربيّ إلى مصر في ذلك الوقت العصيب، فآزره المِصريُّون على الرُّومان. بل إنَّ أحد الكُتَّاب العرب، في محاولة منه لتقديم تفسير لذلك الدَّعم المَسيحيّ المِصريّ لجيش الإسلام الفاتح، ذهب مَذهبًا عجيبًا، ففَسَّر الأمر بأنَّ المَسيحيِّين المِصريِّين كانوا على المذهب الكنسيّ التَّوحيدي (مذهب يُوحِّد طبيعتَي المسيح اللاهوتيَّة والنَّاسوتيَّة)، فكانوا

على ذلك «مُوحِّدين»، فسمع هؤلاء المَسيحيّون «الموحِّدون» بأنَّ العرب «مُوحِّدون» أيضًا، فظنُّوا أنَّهم أخوتهم في المذهب الكنسيّ، فسارعوا بتقديم يد العون لهم[٣٣٧].

وهو تصوُّر ساذج، لا يكون عقلًا، ولا يُقبَل منطقًا، لكنَّه التَّصوُّر الذي يخدم الفكرة القائلة بأنَّ العرب ما كان لهم أن ينتصروا دون مساعدة الشَّعب المصريّ، وما كان للشَّعب المصريّ أن يُقدِّم المساعدة للغزاة لولا أنَّهم على المذهب العَقائديّ نفسه، بما يعني أنَّهم ليسوا غزاة على الحقيقة، بل إخوة دين؛ وهو التَّصوُّر الذي ينتهي بالفتح العَربيّ الإسلاميّ إلى كونه عَمليَّة عَسكريَّة تَوافقيَّة بين العرب والشَّعب المصريّ، لا منتصر فيها، ولا مهزوم.

ثُمَّ نتوقَّع اكتشاف المِصريِّين للحقيقة بسرعة، وهي أنَّ «توحيد الله» الإسلامي مختلف بالكلِّيَّة عن «توحيد الطَّبيعتين» الكَنسيّ، رغم ذلك لا نجد في كتب التَّاريخ، التي تناولت الفترة الأولى للاحتلال العربيّ الإسلاميّ لمصر، أنَّ المصريِّين شرعوا في إعداد جيش وطنيّ لتحرير البلاد من العرب المسلمين الغاصبين، ولا حتَّى نظَّموا ثورات شعبيَّة ذات تأثير، بل استقر أمر الاحتلال العربيّ رويدًا رويدًا، ومع نسبة خراج مقبولة فُرِضت على الرَّجل القويّ العامل، دون إلزام الطِّفل والشَّيخ والمرأة بها، لا تُجبَى عند الكساد، استمرّ الاستقرار، بل وشرع شعب مصر في نبذ مُعتقده الثَّالوثيّ القديم، والحديث في نسخته الكَنسيَّة، من أجل اعتقاد التَّوحيد الإسلاميّ بنسخته المُحمَّديَّة.

---

٣٣٧- إلياس أيُّوبي في كتابه «تاريخ مصر الإسلاميَّة ـ من الفتح العربيُّ سنة ٦٤٠ م إلى الفتح العثمانيّ سنة ١٥١٧م»

وكان توجُّه المصريِّن لاعتناق الإسلام سريعًا وكاسحًا، ووصل إلى درجة شعر معها أحد ولاة مصر للدَّولة الأمويَّة بخطورة نقص أموال الجزية.

وعلى مثل هذا التَّصوُّر السَّاذج، الذي قدَّمه المُفكِّرون والمُتفلسفة والأدباء تعليلًا لسهولة استسلام المِصريِّين للفاتحين العرب، أتى التَّصوُّر الذي يحاول ـ بدوره ـ تقديم مُبرِّر لترك المصريِّين عقائدهم واعتناق الاسلام، فقالوا: إنَّها (الجزية) المفروضة عليهم، وكان أداؤها ثقيلًا درجة أن ناءت بها ظهورهم، فقرَّروا التَّخلُّص منها بالتَّخلُّص من دينهم واعتناق الإسلام!

وهو تصوُّر ساذج لسببين: أوَّلهما: معروف أنَّ من أركان الإسلام الواجبة على كلِّ مسلم الزَّكاة، وهو قدر معلوم من المال لا يتهاون الحاكم المسلم في جمعه، إذا كان يحكم بشريعة الإسلام، يُدفَع عن جميع ممتلكات المسلم ومنتجاته، فإذا تمّ حساب هذا القدر من المال، فمن المُؤكَّد أنَّه سيكون أكبر من المبلغ المُقرَّر على رأس الرَّجل القادر على العمل، فقط دون غيره من أفراد أُسرته، مع إمكانيَّة عدم دفع هذا القدر في حال الكساد.

وهكذا لن يهرب المِصريُّ من (حفرة الجزية) ليقع في (دحديرة الزَّكاة)!

وثانيهما: عدم قبول العقل لفكرة ترك المِصريِّين عقائدهم، واعتناق الإسلام، هربًا من جزية ماليَّة وهم الذين حُرِّقوا بالنَّار، وقُتِّلوا طعنًا وذبحًا، ومُشِّطوا بأسياخ الحديد، ومُزِّقوا بأنياب السَّباع، مع ذلك لم تسمح لهم أنفسهم بترك مذهبهم واعتناق

مذهب آخر من نفس دينهم!

ولنا تصوُّران في المُشكلين السَّابقين، أرجو ألَّا يكونا على سذاجة ما طرحه غيرنا.

الأوَّل: إنَّ السَّبب الرَّئيس الذي مكَّن العرب بجيش صغير العدد، ضعيف الإمكانيَّات، من الاستيلاء على مصر بسهولة نِسبيَّة، هو ضعف العَسكريَّة الرُّومانيَّة الناتج عن انشغالها بالقلاقل الدَّاخليَّة، التي تصاعدت إثر رفع الضَّرائب دون استثناء المعابد، ما جعل الكهنة يُحرِّضون المِصريِّين على الثَّورة، مع تولِّيهم أدوارًا قياديَّة فيها؛ وإيُّما قوَّة عسكريَّة لبلد انشغلت بشأنه الدَّاخلي عن دورها الدِّفاعيّ تُهزَم بسهولة حال اندلاع معارك قتاليَّة؛ لذلك يُوجِّه المُفكِّرون العَسكريُّون، في نظريَّاتهم الدفاعيَّة، بإبعاد الجيوش عن الصِّراعات الدَّاخليَّة. ولا يعني ما سبق أنَّنا لسنا مع الإقرار بأنَّ الاضطهاد الدِّينيّ المَذهبيّ للمَسيحيِّين المِصريِّين قد شكَّل سببًا فاعلًا في تسهيل استقرار (الاحتلال) العَربيّ.

هذا مع شكوكنا القويَّة في أن تكون المَسيحيَّة قد انتشرت في مصر، وقت الفتح الإسلاميّ، لدرجة يمكن معها وصف الشَّعب المِصريّ بأنَّه شعب مَسيحيّ. بل نظنّ أنَّ قِسمًا كبيرًا، من ذلك الشَّعب، كان لم يزل قائمًا على عبادة آلهته المصريَّة القديمة، ولا يمكن فهم الانتشار السَّريع للإسلام في أرجاء مصر - وهو تصوُّرنا الثَّاني - دون اعتبار قَويٍّ لفرضيَّتنا هذه. فما سبق قوله عن تحمُّل المسيحيِّين صنوف العذاب الرُّومانيّ، على قسوتها وبشاعتها، دون تنازل قطُّ عن عقيدته، يؤكِّد لنا استحالة تغلغل الإسلام في المكوِّن الاجتماعيّ المِصريّ بهذه السُّرعة إن لم يكن بغالبيَّته

مُجتمعًا وَثنيًّا واسعًا.

وقد شاركت الكنيسةُ المِصريَّةُ الوثنيَّةَ صفةً لم يشاركهما فيها الإسلام، هي: سطوة رجال الدِّين.

فالشَّعب الوثنيّ، والمسيحيّ، مُقيِّدان في عباداتهما بأسرار المعبد والكنيسة، والقائمون على تلك الأسرار هم الكهنة والقسوس، ما يُسبِغ عليهم من سطوة دينيَّة ودنيويَّة غالبًا ما تنفر منها النُّفوس.

أمَّا الإسلام، فدين بلا أسرار ولا كهنة ولا قسوس، دين عَمليٌّ إنسانيٌّ أرضيٌّ بسيط، لا إله فيه إلا الله. كما أنَّه دين يحترم الجسد الإنسانيّ، وحاجاته الماديَّة، بنفس قدر احترامه للنَّفس، وحاجاتها الرُّوحيَّة.

وقد جاء بهذا الدِّين السَّهل هؤلاء العرب البسطاء، القادمون من فقر الصَّحراء، ليس لهم سجلٌّ في دواوين الحضارة، لا يزالون قريبون من حياة مُحمَّد ﷺ، مفعمون بالتَّواضع والزُّهد، بعكس اليونان والرُّومان اللتان غزتا مصر باعتبارهما صاحبتا أعظم حضارتين معاصرتين عرفهما العالم الحديث وقتها، ما نتصوَّر معه أنَّهما جاءتا إلى مصر بصلفهما وكبرهما وغرورهما.

وقد ساعد على امتزاج المصريِّين بالعرب الفاتحين تعاليم القرآن، التي تحضّ المسلمين على بِرِّ المسيحيِّين والتودُّد إليهم، الَّذين منهم قسِّيسون ورهبان لا يستكبرون[٣٣٨].

هذا غير أنَّ العرب يعدُّون المِصريِّين أخوالهم، فهم إخوة أمِّهم

٣٣٨- آية ٨٢ ـ سورة المائدة / قرآن كريم.

هاجر. والمِصريُّون أصهار مُحمَّد ﷺ أيضًا، فمنهم مارية سريَّته، التي أهداها له المُقوقس الرُّومانيّ عظيم مصر، فأنجبت له إبراهيم قبل أن يُتوفَّي مُبكِّرًا.

هكذا كانت كلّ السُّبل تدفع بالعرب إلى تعامل حميم مع المصريِّين، الذين بادلوا العرب بحميميَّة أقوى، سهَّلت لهم ترك وثنيَّتهم رويدًا رويدًا واعتناق الإسلام.

وأحسب أنَّ هذا المنظور أوفق للمنطق، وأقرب للعقل، من القِصَّة المُتناقضة الواردة في مُعظم كتب من قرَّروا الفتح الإسلاميّ تسهيلًا مَسيحيًّا للعرب لدخول مصر، ثُمَّ ندمهم على ذلك، قبل أن ينتهوا إلى ترك دينهم هربًا من دفع الجِزيَّة، مهما بولغ في مقدارها، وهم الذين لم يتركوا مذهبهم (لا دينهم) رغم المذابح الشَّنيعة التي جرت عليهم.

هكذا؛ بقبول مصر دعوة الإسلام برضاءٍ سَمْحٍ قُدِّر لها كتابة مستقبل جديد، يمكن إضافته، بجدارة، إلى تاريخ قديم بطعم السِّيادة، فقد تخلَّصت بالإسلام من وضع الرُّكود بين احتلالين تعاملا معها بصفتها مُجرَّد سلَّة طعام، لا دور كبير لها في المَسرحيَّة العَالميَّة وقتها، بل وسرعان ما عادت إلى لعب أدوارها السِّياسيَّة المؤثِّرة، فشاركت بالنَّصيب الأكبر من الثَّورة على مركز الخلافة في المدينة، ليقود المصريُّون ما يمكن عدّه أوَّل ثورة في الإسلام، وكانت ضدّ الخليفة الثَّالث عثمان بن عفَّان، التي ذهبت أحداثها بعيدًا مع ماضي التَّاريخ، رغم ذلك لم تزل تطرح ثمارها المُرَّة إلى الآن.

ويمكن لكلّ قطر عَربيٍّ المفاخرة بمنجز إسلاميٍّ ما، غير أنَّ منجز مصر الإسلاميّ لا يُفاخَر عليه. فعلى الرُّغم من أنَّ مصر لم تكن مبعث الإسلام، بنسخته المُحمَّديَّة، ولم تكن مَقَرًّا للخلافة الإسلاميَّة في عصريها الزَّاهرين، الأمويّ والعبَّاسيّ، لكنَّها كانت دائمًا حصن الإسلام الأخير، الذي تنطلق منه الجيوش الإسلاميَّة لاستعادة الأراضي التي يحتلّها الأعداء، فتعيد للإسلام ما استُلِب من خريطته الجُغرافيَّة الواسعة.

فقد انتصرت مصر المسلمة على التَّتار في معركة فاصلة[٣٣٩] ولم تكن تهزمهم أيُّ قوة، حتَّى الخلافة العبَّاسيَّة في العراق، وما حولها من دول وممالك إسلاميَّة، لم تستطع هزيمة التَّتار. كما انطلقت الجيوش المصريَّة لتحرير إمارات الشَّام من الغزو الصَّليبيّ مرَّات، بل في عهد، لم تختف أطيافه الغاربة بعد، وقف الجيش المِصريُّ بأسطوله البحريّ على أعتاب وسواحل أوروبَّا، في زمن مُحمَّد علي، قبل أن يتَعرَّض لخيانة تسبَّبت في هزيمته.

وحتَّى بعد أن حطَّم التَّتار عرش الخلافة، وقتلوا آخر الخلفاء العبَّاسيِّين، حرصت مصر على ألَّا تأفل شمس الخلافة، فانتقت رجلًا من العائلة العبَّاسيِّة، ونصَّبته خليفة، وجعلت له عرشًا في القاهرة، وإن لم يسمح له الأمراء المماليك بممارسة قوى الخلافة كاملة، لكن ظلَّت الخلافة الإسلاميَّة تتنفَّس بما يجعلها قادرة على الحياة كرمز مُوحِّد للأمَّة الإسلاميَّة.

ولطالما انعقد الأمل على مصر دولة ذات إمكانات خاصَّة تؤهِّلها لأن تكون رأسًا في المشاريع التَّوحيديَّة المقترحة،

٣٣٩- معركة عين جالوت.

منها المشروع الشَّهير لشيخ الأزهر مُحمَّد مصطفى المراغيّ، الخاصّ بمحاولته إقامة الخلافة في القاهرة، بعد سقوطها في إسطنبول. وأوَّل خُطى الشَّيخ على تلك

الطَّريق، التي قُدِّر لها ألَّا تكتمل، أنَّه، وهو يتولَّى قضاء السُّودان، كتب للسِّير وينجات الحاكم الاستعماريّ للسُّودان، يقول: «نظرًا لموقع مصر وثرائها، فإنَّ كثيرًا من النَّاس، يداعبون الأمل بأن يُمثِّل هذا البلد جزءًا أصيلًا من الخلافة العربيَّة القادمة، وأن تكون مركزًا لحكومتها، لأنَّ مصر أفضل رقعة في المنطقة، والبلد الأكثر رُقيًّا في بلاد المسلمين، إنَّ إقامة خلافة عربيَّة بلا أرض غنيَّة ورجال ليست مشروعًا سهل التَّحقيق»[٣٤٠].

وربما لا تزال الشُّروط نفسها تتمتَّع مصر بتوافرها إلى الآن، مؤهِّلة لها كي تقود حركة إسلاميَّة توحيديَّة في الألفيَّة الثَّالثة.

ومن المعروف أنَّ الجامع الأزهر واحدٌ من أهمِّ وأعظم منجزات مصر الإسلاميَّة، الذي ما أن أنشئ، قبل ألف سنة، حتَّى حمل راية العلم، وظلَّ يحملها ليكون في عصرنا الحديث «أكبر جامعة إسلاميَّة للعلوم الدِّينيَّة العاليَّة (وحاليًا العلوم الدُّنيويَّة أيضًا)، يفد إليها الطُّلَّاب من جميع أصقاع العالم الإسلاميّ، ويحملون إلى بلدانهم ما يفيدونه من الحركات العلميَّة في وادي النِّيل. والحقُّ أنَّ الأزهر كان له شأن عظيم جِدًّا في المحافظة على التُّراث الثَّقافيّ الإسلاميّ، وفي إعلاء مكانة مصر بين الأمم الإسلاميَّة»[٣٤١].

٣٤٠- "إصلاحيٌّ في جامعة الأزهر. أعمال مصطفى المراغّي وفكره" / فرنسين كوستيه تارديو.

٣٤١- "مصر والحضارة الإسلاميَّة" / زكي محمَّد حسن.

وإذا كنَّا نعرف أنَّ من شيَّد الأزهر هم المسلمون الشِّيعة، لا السُّنَّة، في زمن الدَّولة الفاطميَّة، التي حكمت مصر مُستقلَّة عن الخلافة العبَّاسيَّة السُّنيَّة لقرنين كاملين[٣٤٢]، وأنَّ حكم الشِّيعة في مصر تميَّز بالعدل والإنصاف، وعدم المُغالاة في التَّشيُّع على حساب أهل السُّنَّة، والتَّسامح، مع عدم إنكار أنَّ ثمَّة قلاقل عكَّرت صفو هذا التَّسامح لأوقات قصيرة، ما كان معه زوال الدَّولة الفاطميَّة دون صراع دَمويٍّ بين الطَّرفين، بل وصيرورة مصر قُطرًا سُنِّيًّا حافظًا لأشهر مظاهر الشِّيعة المختصَّة ببعض المناسبات الدِّينيَّة الدَّوريَّة، مثل احتفالات شهر رمضان ومولد النَّبيّ ﷺ وموالد آل البيت؛ فيعني جميع هذا أنَّه إذا كان قطرٌ إسلاميٌّ قادرًا على القيام بدور تَوفيقيٍّ لصالح وحدة إسلاميَّة توفِّق بين طَيفي الأُمَّة من سُنَّة وشيعة، فهو القطر المِصريّ، الذي له تجربة سابقة في فعل ذلك، قديمًا، على أرضه.

لقد استقبلت مصر الإسلام استقبال أمٍّ رؤوم، لا استقبال مَضيف لضيفٍ طارئ ثُمَّ يغادر، ولا استقبال احتلال مكروه ستدور عليه الدَّوائر ويرحل، لقد استقبلته في أوَّل يفوعه، فساهمت في تربيته، وإنشائه، وترسيخ سُؤدده؛ وقبلته إسلامًا سُنِّيًّا، وتعايشت معه شِيعيًّا.

هكذا مصر تشَبَّع روحُها بقبول مذهبَي شطرَي الأمَّة، بما يعني تمتُّعها بالمرونة اللازمة لقيادة توحيد إسلاميٍّ نأمل تحقيقه في نصف القرن الأوَّل من هذه الألفيَّة الثَّالثة على التَّقويم الميلاديّ.

---

٣٤٢- من سنة ٣٦٩ هـ إلى ١١٧١ هـ

وعلى عاتق علماء الأزهر يقع القسم الأكبر من العبء الإصلاحيّ.

والإصلاح ذو شقَّين: دينيٌّ، وسياسيٌّ.

أمَّا الشِّقّ الدِّينيّ فمعروف: رعاية الفقه الإسلاميّ بشكل يتوافق مع مُتطلّبات العصر، والعكوف على مُعطيَّات نصوص الإسلام، من قرآن وحديث نبَويٍّ، والبحث فيها عن حلول فِقهيَّة لمعضلات عصرٍ داهمته حركة صِناعيَّة ذات مفاهيم ماديَّة جديدة. أن يقوم هؤلاء العلماء بحركة تَجديديَّة كبرى، بشريطة ألَّا تكون مُقلِّدة للتجديد الكَنسيّ المَسيحيّ أو الكنيسيّ اليَهوديّ، وقد خضعا لشروط العَلمانيَّة.

أي: ألَّا تدخل الحركة التَّجديديَّة الإسلاميَّة جُحر الضَّبِّ إيَّاه، فتلغي الدِّين نفسه، أو تُحيِّده عن المجتمع، بل يكون تجديدًا مُرتكزًا على قواعد من الإسلام ذاته، الذي لا يقبل التَّحييد أو الإلغاء.

أمَّا الشِّقّ السِّياسيّ، فهو الشِّقّ الأشقّ، إذا علمنا أنَّ للسُّلطان في الإسلام دور عظيم، قد يفوق دور القرآن أحيانًا[٣٤٣]، وعليه فقد «عهد الإسلام إلى العلماء بتقويم أود الأمراء، وكانوا قديمًا، في الدُّول الإسلاميَّة الفاضلة، بمثابة المجالس النِّيابيَّة في هذا العصر، يُسيطرون على الأُمَّة، ويُسدِّدون خطوات الملك، ويرفعون أصواتهم عند طُغيان الدَّولة، ويُهيبون بالخليفة، فمن بعده، إلى الصَّواب»[٣٤٤].

٣٤٣- من مرويَّات عثمان بن عفَّان: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله يزع بالسُّلطان ما لا يزع بالقرآن» / مجموع فتاوى ابن باز.

٣٤٤- "لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم" / شكيب أرسلان.

هكذا، ببذل بعض علماء الأزهر المعارضة الصَّلبة القويَّة للحاكم المسلم، عند انحرافه عن مضمار العدل إلى مدقِّ الظُّلم، استقامت الأمور لبعض الوقت قديمًا، «لأنَّ أكثر أولئك العلماء كانوا مُتحقِّقين بالزُّهد، مُتحلِّين بالورع، مُتخلِّين عن حظوظ الدُّنيا، لا يهمّهم أغضب الملك الظَّالم الجبَّار أم رضي، فكان الخلائف والملوك يرهبونهم، ويخشون مخالفتهم، لِما يعلمون من انقياد العامَّة لهم، واعتقاد الأُمَّة إمامتهم»[٣٤٥].

ومن أجل الوفاء الأكمل بدور الأزهر في مراقبة الحُكَّام وتوجيههم «عارض الشَّيخ الظَّواهري، وبضراوة، في أن يخضع الأزهر لسيطرة الدَّولة. يقول الظَّواهري شارحًا إنَّه إذا فقدت الجامعة الإسلاميَّة استقلالها، فإنَّها سوف تفقد نفوذها، وبالتَّالي يضعف الدِّين في مصر»[٣٤٦].

إلَّا أنَّ دورة القدر تُحتِّم الانتهاء بعد الابتداء.

فمع مرور الأيَّام «خلف من بعد هؤلاء خلفٌ اتَّخذوا العلم مهنة للعيش، وجعلوا الدِّين مصيدة للدُّنيا، فسوَّغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم، وأباحوا لهم باسم الدِّين خرق حدود الدِّين»[٣٤٧].

ومن المعلوم أنَّ مصر، في العصر الحديث، مركز ثقافيٌّ إسلاميٌّ له ثقله، وأنَّ المحافظة على هذا الثِّقل، وتثبيته وترسيخه من

---

٣٤٥- "لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم" / شكيب أرسلان.
٣٤٦- "إصلاحيٌّ في جامعة الأزهر. أعمال مصطفى المراغِّي وفكره" / فرنسين كوستيه تارديو.
٣٤٧- "لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم" / شكيب أرسلان.

أجل إسلام أقوى في الألفيَّة الثَّالثة، يلزمها العمل على استنهاض تَجديديِّين أزهريِّين على شاكلة الشَّيخ مُحمَّد عبده، مثلًا، وهو الرَّجل «الذي يُعدّ من أعظم الفقهاء المسلمين نفوذًا في العصور الأخيرة، وإليه يرجع الفضل في إزالة العوائق التي كانت تشلّ حركة الإسلام، وتمنعه من التَّجديد على أساس تحكيم العقل، فأطلَق الهمم لتعمل على التَّوفيق بين الإسلام والحياة الجديدة في العالم الإسلاميّ المُتأثِّر بالثَّقافة الغربيَّة. وكان للشَّيخ مُحمَّد عبده الفضل في إدخال العلوم الحديثة في الأزهر، وفي تفسير الإسلام تفسيرًا جديدًا، لا يقطع صلته بماضيه، ولا يُقعِده عن مسايرة النَّهضات الحديثة. والحقُّ أنَّ الأستاذ الإمام، وتلاميذه من بعده، عملوا كثيرًا في هذه السَّبيل، وانتشر نفوذُهم في العالم الإسلاميّ كلِّه، فبُعِث فيه نهضةٌ فكريَّةٌ مباركة»[٣٤٨].

إنَّ نهضةً إسلاميَّة كبرى في الألفيَّة الثَّالثة تحتاج بشدَّة لمصر، ومصر الرَّائدة إسلاميًّا في الألفيَّة الثَّالثة تحتاج بشدَّة إلى الأزهر، وأزهر قائدٌ نحو إسلام ظاهر في الألفيَّة الثَّالثة يحتاج بشدَّة إلى شيوخ مُجدِّدين، على كفاءة وإخلاص وشجاعة وسياسة الشَّيخ مُحمَّد عبده.

---

٣٤٨- "مصر والحضارة الإسلاميَّة" / زكي محمَّد حسن.

# الفصل الرَّابع عشر

فتن آخر الزمان . تفصيل في فهم عودة الإسلام غريبًا . نظرة الفقه الإسلاميّ إلى الإبداع . الفرق بين الإبداع والابتداع . الإبداع نهضة الإسلام . موت الموت ذروة النشاط العقلي في الإسلام . إشارات توصل العلم إلى الخلود في القرآن الكريم.

تنبَّأ مُحمَّد ﷺ بفناء الدِّين آخر الزَّمان، وأمر المسلمين، حين قدوم أزمنة الفتن (التي ستسبق نهاية الزَّمان)، بإمساك ألسنتهم، ولزوم بيوتهم، والبكاء على خطيئاتهم[٣٤٩]. وهو التَّنبُّؤ الذي يحطّ عزيمة المسلمين، ويجعلهم نهبة لكلّ طامع تاريخيّ.

فالنَّاظر في التَّاريـخ يجده رزمة من الأزمنة الموبوء جميعها بالفتن، منذ أن وضع اللهُ جَلَّجَلَالُهُ آدم وحوَّاء في الآرض.

فهل هناك فتنة أشدَّ على البشريَّة من أن يقتل أحدُهم سدسها عددًا!

فعلها قابيل، حين قتل هابيل، والإنسانيَّة في الأرض ستَّة نفر.

ثُمَّ مع كلّ زمن بعدُ فتنه الجيَّاشة. وتؤكِّد النَّظريَّات المَعرفيَّة حدوث فيضان عظيم أغرق الأرض، وتؤكِّد الكتب الدينيَّة أنَّ ذلك الفيضان كان عقوبة إلهيَّة استحقَّها البشر؛ بل إنَّ القرآن يُقرّ، قبل ألف وأربعمائة سنة، بظهور الفساد في البرِّ والبحر بما

---

٣٤٩- في حديث من مرويَّات عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله ما النَّجاة؟..../ أخرجه التِّرمذيُّ.

كسبت أيدي النَّاس[٣٥٠].

كما أن ليس أعظم فتنة، واجهها المسلمون، من الفتنة الكبرى التي انفجرت في صدر الإسلام.

وهكذا؛ لو أمسك المسلمون عليهم ألسنتهم (فلم ينطقوا بكلمة حقٍّ)، ولزموا بيوتهم (فلم ينصروا الحقَّ بالقوَّة)، وعكفوا يبكون على خطيئاتهم (يجلدون أنفسهم، ولا يجلدون مُنكِري الحقّ) لاضمحلّ الإسلام، وضاع العالم الإسلاميُّ.

واستنادًا إلى ما سبق، فإنَّ على المسلمين تجاوز هذا الفهم المُخلّ لذلك الحديث الذي ـ إذا صحّ ـ ربما تَصحّ له سياقات فهم أخرى على غير هذا السِّياق المُخذِّل، الذي يُودي حتمًا بالإسلام والمسلمين إلى الذُّبول والانتهاء.

وقال مُحمَّد ﷺ حديثا آخر يحلو للمسلمين اعتباره حديثًا مُنبئًا بنهاية الإسلام؛ ذلك الذي يُخبِر فيه بأنَّ الإسلام بدأ غَريبًا، وسيعود غريبًا[٣٥١]، وهو اعتبار معكوس تمامًا.

فلا يشكّ أحدٌ من دارسي بداية انبلاج الإسلام (الكيان الإسلاميُّ الأوَّل) في أنَّها كانت أقوى مراحل الإسلام، مع كونه ـ وقتها ـ أقلَّ عددًا وإمكانيات، رغم ذلك كان أقوى يقينًا وعقيدة وتحقُّقًا.

وهكذا يصبح هذا الحديث أحد أقوى البشارات المُحمَّديَّة بمستقبل زاهر للإسلام، والتي تحضّ كلَّ مسلم على أن يقوم

---

٣٥٠- آية ٤١ ـ سورة الرُّوم / قرآن كريم.

٣٥١- الرواي أبو هريرة: بدأ الإسلام غريبا.... / أخرجه مسلم.

بدوره في تحقيق هذه الغربة الثَّانية الموعودة للإسلام، وأن يكون أحد هؤلاء الغرباء الَّذين بشَّرهم مُحمَّد ﷺ بالطُّوبى.

يحتاج إسلام الألفيَّة الثَّالثة إلى إرادة إصلاحيَّة مُقترنة بعزيمة ثَوريَّة.

فإرادة الإصلاح، بمعزل عن العزيمة الثَّوريَّة، لا تُحقِّق ما نأمله لإسلامنا، كما أنَّ العزيمة الثَّوريَّة دون إطار إصلاحيٍّ قد تؤدِّي إلى انفجار يُفكِّك الإسلام، قبل أن يعيد تركيبه على غير أسسه. مع ذلك، فإنَّ تضافر الإرادة الإصلاحيَّة مع العزيمة الثَّوريَّة لن يثمر شيئًا ذا بال لو لم تتمّ سياقته بنهج إبداعيٍّ خلَّاق.

على أنَّ النَّهج الإبداعيَّ الخلَّاق لا يصحّ له التَّعرُّض لثوابت الإسلام المعروفة، التي نعرفها في أركانه الخمسة: شهادة التَّوحيد. إقامة الصَّلاة. إيتاء الزَّكاة. صوم رمضان. حجّ البيت. كما لا يَصحّ لهذا النَّهج التَّعرُّض للسُّنَّة المُحمَّديَّة المُتعلِّقة بالعبادات. فلا إبداع فقهيّ في هذه المسائل إذا كان النَّصُّ، قرآنًا أو حديثًا نبويًّا، ثابتًا بشأنها، فالإبداع في الثَّوابت العَقائديَّة ابتداع، وأيُّ ابتداعٍ آفة أيّ دين أو ديانة.

أيضًا، قد يكون الصُّمود لصالح فقه لا يُماشي المعاصرة ابتداعًا، إذا كانت خُطَّة الإسلام الرَّئيسة هي نسف الصُّمود الذِّهنيّ، الذي تتغذَّى عليه قناعات حُرَّاس التَّقليد. وهي قناعات تمسك بتلابيب الإسلام، تمنعه من التَّقدُّم، وتجرّه إلى الخلف.

ومن ثَمَّ، فإنَّ الإسلام، ومن أجل أن يُثمر في هذه الألفيَّة الثَّالثة، يحتاج المؤمنون به إلى فكِّ الارتباط بين مُفردَتي «الإبداع»

و«الابتداع»؛ إذ إنَّ مفردة «إبداع» تكاد تكون مفردة سيِّئة السُّمعة عند من يُوصفون بالمُلتزمين دينيًّا؛ لأنَّهم دائمًا ما يتَصوَّرنها ملازمة للابتداع.

فهم يتساءلون باستنكار: أيّ إبداع للإنسان إذا كان الإبداع يعني: الإيجاد من عدم، أو الإتيان بمنتهى الفنّ؟

إنَّهم يرون الإيجاد من عدم، والإتيان بالمنتهى، عملين من أعمال الله، لا من أعمال الإنسان.

إذًا: الإبداع ابتداع، ولو على سبيل الاحتياط.

هكذا يحتاج المسلم ـ على سبيل المثال ـ إلى فهم جديد لآيات وردت في القرآن، تخبر بأنَّ المسيح ابن مريم، عليهما السَّلام، خلق من الطِّين كهيئة الطَّير[٣٥٢]، وهو الخلق الذي يعدّه المسلمون رمزيَّة إعجازيَّة مُنحَت للمسيح وانتهى دورها. وأحسب الأمر على غير ذلك، وأنَّ على المسلمين النَّظر في تلك المعجزة باعتبارها مِفتاحًا مُستقبليًّا لفهم إسلامٍ مُثمر، إسلام يسبق البشريَّة بالتَّأويل، فتسير على هداه، لا أن يتبعها بالتَّفسير، فيسير تابعًا لها، ما يمنح الفرصة للبشريَّة كي تتألَّه بالعلم على الله جَلَّجَلَالُهُ.

إنَّها معجزة تدعو المسلم إلى أن يكون مُبدعًا، قادرًا على الخلق.

أعني هذا الخلق من نوعيَّة الخلق العِيسويّ، الخلق البَشريّ القائم بالأساس على خَلقٍ إلهيٍّ. أي أن ننطلق، بثقة وبأريحيَّة، نحو مَعرفيَّة وفكريَّة وثقافيَّة لا تُقيِّدها مُحدِّدات فقهيَّة راكمها الصَّدأ

---

٣٥٢- الآية ٤٩ ـ سورة آل عمران / قرآن كريم.

النَّاتج عن ترسيخ الخوف من «الإبداع» باعتباره «ابتداع».

وعلى مُسلمي الألفيَّة الثَّالثة سبق العالم نحو التَّبشير بذروة العمل العِلميِّ، وتهيئته بإذاعة الفكرة الخلَّاقة الأخيرة، وهي أخيرة؛ لأنَّها ذروة الأفكار الخلَّاقة، التي سيأخذ منحنى الأفكار بعدها في نزول لا صعود بعده.

أقصد فكرة: موت الموت.

وذهاب العالم إلى الخلود البشريّ. لا أقول: الخلود الإلهيّ.

إذ شتَّان الفارق بين خلود بشريٍّ محصور بين دفَّتي سَرديَّة كونيَّة أنشأها الله جَلَّجَلَالُهُ، وبين الخلود الإلهيّ المُطلَق.

مع ذلك، فإنَّ القضاء على الموت، والوصول إلى هذا الخلود البَشريّ المُستهدَف، يبقى فكرة مرفوضة إسلاميًّا، ومن يتكلَّم فيها مُهرطق مُجدِّف، ويمكن تكفيره باعتباره أقدم على (إنكار ما هو معلوم من الدِّين بالضَّرورة)، رغم أنَّهم لم يعلموا بعد كُلَّ ما هو معلوم من الدِّين، إذا كان العلم ليس سوى نقطة في بحر، إلَّا أنَّهم يجرؤون على محاكمة إيمان كل «مبدع» بعلمهم الضَّئيل.

والمعلوم من الدِّين بالضَّرورة، فيما أحسب، هو أنَّ الموت آفة، لها سبب كامن في جسم الإنسان، وأنَّ المعرفة ستظلّ تبحث في هذا الجسم البَشريّ بإلحاح، إلى أن تعثر عليها، وتتخلَّص منها، ويحصل الخلود.

وفي القرآن تبشير بذلك، من خلال معجزات بعض الأنبياء والصَّالحين؛ فإحياء المسيح لبعض الموتى ليس مُجرَّد معجزة

آنيَّة وفقط، بل لفت انتباه إلى أنَّ الإنسان يمكنه أن (يعمل أعمال أبيه)، والآب، في المَسيحيَّة، هو الله الأكبر، ضابط الكلّ، فكان المسيح يقول لمناظريه إنَّه (يعمل أعمال أبيه)، التي منها القدرة على الخلق، وإحياء الموتى.

وقصَّة العبد الصَّالح الخَضِر، عليه السَّلام، الذي لا يزال يمرح حيًّا عبر الأزمنة، دون موت؛ لأنَّه شرب من عين الحياة. وعين الحياة أمل إنسانيٌّ قديم جِدًّا في الخلود الدنيويّ، مع ذلك يصلح لأن يكون مِفتاحَ أزمنةٍ مُستقبليَّة تلوح في أفق الحضور.

أمَّا طلب إبراهيم، عليه السَّلام، من الله أن يريه كيف يحيي الموتى[٣٥٣]، فلا يجب على مسلمي هذه الألفيَّة الثَّالثة النَّظر إليه بصفته مُجرَّد

طلب إيمانيٍّ يحاول به أحدُ الأنبياء طمأنة قلبه، بل هو تدوين قرآنيٍّ لاستشراف إنسانيٍّ نحو تَعلُّم طريقة الإحياء؛ ما يعني أنَّ، من ضمن الفكرة الخلَّاقة الأخيرة، البحثَ في كيف يمكن إحياء الأموات.

والكلام كثيرٌ في مثل هذه التَّوقُّعات الخارقة، لكنَّها إذا كانت توقُّعات، فهي إذن في نطاق الآمال البشريَّة، والبشريَّة نجحت، دائمًا، في اصطياد ما ظهر في نطاق آمالها.

هكذا؛ إذا سبق الإسلام إلى احتضان هذه الفكرة الأخيرة الخلَّاقة (وهو الأمر الذي يحتاج إلى الإيمان بالإبداع) أثمر وأينع، ليس في الألفيَّة الثَّالثة وحدها، بل في جميع المستقبل، بما احتواه من ألفيَّات لا يعلم عددها سوى الله جَلَّجَلَالُهُ.

٣٥٣- آية ٢٦٠ ـ سورة البقرة / قرآن كريم.

# مراجع الكتاب


١.الإسلام في الألفية الثالثة . مراد هوفمان.

٢.أزمة الهويات .كلود دوبار.

٣ . تاريخ العلم والإنسية الجديدة . جورج سارتون.

٤ . الأنثى هي الأصل . نوال السعداوي.

٥ . قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى . عبدالوهاب المسيري.

٦ . مذكرات جورج دبليو بوش الابن . ترجمة سناء حرب.

٧ . الاحتيار: السيطرة على العالم ام قيادة العالم . زيجينيو بريجنسكي.

٨ . سيكولوجية الجماهير. جوستاف لوبون.

٩.علم الأديان: مساهمة في التأسيس . ميشال مسلان.

١٠ . الإيمان الحر أو ما بعد الملة . فتحي المسكيني.

١١ . أفكار حول الموت والأزلية . لودفيج فويرباخ.

١٢ . رحلتي من الكفر إلى الإيمان: قصة إسلام مريم جميلة . ترجمة محمد يحيى.

١٣ . سقوط الحضارة . كولن ويلسون.

١٤ . فجر الإسلام . أحمد أمين.

١٥ . الطبقات الكبرى . ابن سعد.

١٦ . الأغاني . أبو الفرج الأصفهاني

١٧ . بديع الزمان النورسي: الإسلام في تركيا الحديثة . شكران واحدة.

١٨ . الغارة على العالم الإسلامي . لو شاتيلييه.

١٩ . مبحث بعنوان: موقف المستشرقين من الصحابة رضي الله عنهم . سعد عبدالله سعد الماجد.

٢٠ . الإصابة في تمييز الصحابة . ابن حجر.

٢١ . أسد الغابة في معرفة الصحابة . ابن الأثير.

٢٢ . حياة محمد . محمد حسين هيكل.

٢٣ . الحكام العرب في مذكرات زعماء وقادة ورجال مخابرات العالم . مجدي كامل.

٢٤ . التسلسل الهرمي للمتآمرين: لجنة الـ ٣٠٠ . جون كوليمان.

٢٥ . صمويل زومير: حياته وجهودة التنصيرية. ناصر بن إبراهيم آل تويم.

٢٦ . ملفات الحكام العرب . ساندرا مكي.

٢٧ . لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم . شكيب أرسلان

٢٨ . جيمي كارتر: مذكرات البيت الأبيض . ترجمة سناء حرب.

٢٩ . كتاب اللؤلؤة في السلطان: العقد الفريد . ابن عبدربه.

٣٠ . تاريخ الحكم في الإسلام . محمود عكاشة.

٣١ . الكامل في لتاريخ . ابن الأثير.

٣٢ . الحكام العرب: رحلة الصعود والهبوط . رودجر أوين.

٣٣ . قالوا عن الإسلام . عماد الدين خليل.

٣٤ . الإسلام في القرن العشرين . عباس محمود العقاد.

٣٥ . القومية . ستيفن جروزبي.

٣٦ . المرأة وآراء الفلاسفة . حسين فوزي

٣٧ . بنيان الفحولة: أبحاث في المذكر والمؤنث . رجاء بن سلامة.

٣٨ . تطور المرأة عبر التاريخ . باسمة كيال.

٣٩ . الفتاة والشيوخ . نظيرة عز الدين.

٤٠ . النقد الاجتماعي . بيير زوما.

٤١ . تراث الإسلام . جوزيف شاخت.

٤٢ . جامع الأحاديث . السيوطي.

٤٣ . السيرة النبوية لابن هشام.

٤٤ . الأخلاق . أحمد أمين.

٤٥ . الثورة الإسلامية في إيران . جعفر حسين نزار.

٤٦ . العرب وإيران . فهمي هويدي.

٤٧ . مصر والحضارة الإسلامية . زكي محمد حسن.

٤٨ . إصلاحي في جامعة الأزهر: أعمال مصطفى المراغي وفكره . فرنسين كوستيه تارديو.

# الفهرس


الفصل الأول..............................................7

الأحاديث الشَّريفة الحاضَّة على تآزر المسلمين . وجوب التَّناصح بين المسلمين . التَّعريف بكتاب «خرائط الوصول». أنواع التَّطرُّف . تساؤلات حول العلم . العلم في الإسلام . تحديث الفقه . العلمانية والدين.

الفصل الثاني............................................33

الفرق بين الخطط الإلهيَّة والبرامج التِّقنيَّة . ضرورة تبديل أوضاع الرُّؤية . أيُّهما أهمُّ: الجهاز أم كُتيِّب تشغيل الجهاز؟ . الدِّين مُنطلَق أم اختراع؟ . دور الموت عند القائلين باختراع الدِّين . الصِّراع بين العلمانيَّة من ناحية واليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام من ناحية . نتائج الصراع . الماكينة تنتصر.

الفصل الثالث............................................53

النَّقد الذَّاتيّ . الحالة الإسلاميَّة . كيانات إسلاميَّة ثلاثة . التَّأثير الجاهليُّ . العربيُّ والأعرابيُّ . تحت سقيفة بني ساعدة . الحباب بن المنذر . آل البيت والصَّحابة والحُكْم . إنَّ فيك جاهليَّة . الدُّنيا تُفتَح على المسلمين الأُوَّل . قصر سعيد بن العاص في المدينة . انتقالات الخلافة . تأثير الأعراف الأممية في الإسلام . الاحتلال الغربي لبلاد الإسلام وانتهاء الخلافة . النُّخبة العربيَّة المُثقَّفة ودورها في تمكين القبضة الغربيَّة النَّاعمة . محاولات إسلاميَّة ناهضة. التَّبليغ والدَّعوة.

الفصل الرابع............................................83

الاختلاف بين الأصوليِّين والمُحدِّثين حول تعريف الصَّحابي . نقد الصَّحابة وعلاقته بتقويض بنيان الإسلام . عدالة الصحابي ودورها في نقل الحديث النبوي . خطورة وجود منافقين بين الصحابة لم يعلمهم النبي . أيهما يقدم في قبول الحديث: المتن أم السند؟ . المسلمون بين تقديس الصحابة وتدنيسهم.

الفصل الخامس.................................................97

العلاقة المُتوتِّرة بين فرنسا والإسلام . الحرب الصَّليبيَّة المعاصرة . انحياز الإعلام الغربيِّ ضدّ الإسلام . المُثقَّف الصَّليبيُّ المسلم . التَّبشير حرب صَليبيَّة ناعمة . دعاوى الغرب بخصوص حقوق الإنسان وحقوق المرأة ودورها في الحرب الصَّليبيَّة النَّاعمة . المدارس والمستشفيات قواعد التَّبشير الصَّليبيّ في البلاد الإسلاميَّة . فشل التَّبشير الصَّليبيّ . التَّوسُّع الإسلاميّ . الكيان الصُّهيونيُّ في فلسطين رأس حربة التَّبشير الصَّليبيّ في القلب الإسلاميِّ . المصير الأندلسيُّ.

الفصل السادس..............................................125

السُّلطة ودورها في صناعة الحضارة . شخصيَّة الحاكم . نظرة المواطن المسلم لمن يحكمه . دور الجاهليَّة القديمة في صناعة الحاكم المسلم . الأسس الدِّينيَّة لتشبُّث الحاكم المسلم بالحكم . الحاكم المسلم المعاصر بين الملكيَّة والجمهوريَّة . الحاكم المسلم المعاصر بين العقيدة والوطنيَّة . فساد الحاكم المسلم الجُمهُلَكيّ . الإسلام يضع الحاكم في درجة سامية . الحاكم المسلم ودوره تجاه المؤسَّسات المُوحِّدة للمسلمين.

الفصل السابع...............................................155

المواطنة والإسلام. القوميَّة والإسلام. مُحمَّد ﷺ والقوميَّة. الوطنيَّة ثمرة القوميَّة.

الفصل الثامن................................................167

الانسحاب الأمريكيُّ يفتح قضيَّة حقوق المرأة في أفغانستان. ازدواج المعايير إزاء قضيَّة المرأة في فرنسا. الفشل العلمانيُّ بصدد حريَّة ارتداء المراة الفرنسيَّة المسلمة في ارتداء حجابها. المرأة في الفلسفة. نظرة فرويد للمراة. مقام المرأة في المجتمع الإسلاميِّ. النَّسويَّة حصان طروادة في قلب الأسرة المسلمة. مدى صحة دعاوى تحرير المرأة. التَّبشير الصَّليبيُّ وعلاقته بالنَّسويَّة. خروج المرأة المسلمة وإخلاء البيت. الفشل المجتمعيُّ. المرأة المسلمة وتصحيح المسار.

الفصل التاسع............................................199

تعريف للإسلام . الإسلام في القرآن . المسلم المهتدي والمسلم بالوراثة . الإسلام في السُّنَّة . عمارة الإسلام . من هو المسلم؟

الفصل العاشر............................................219

مغزى الصَّلاة الإبراهيميَّة قبل كلِّ تسليم . أوجه الشبه بين إبراهيم ومُحمَّد عليهما الصَّلاة والسَّلام. الأمر: اقرأ، وكيف تكون القراءة. أهميَّة العقل. وجهة نظر في لماذا عُدَّ الإسلام خاتمًا للدِّين. محمد ﷺ بعيدًا عن الرسالة. الكمال لله وحده أم للأنبياء أيضًا؟. أيهما أهمّ بالنِّسبة للمُرسِل: الرَّسول أم المُرسَل إليه؟ . المسلمون وتقليد الأمم السَّابقة عليهم.

الفصل الحادي عشر........................................235

القداسة تمنع الاقتداء . التَّقديس يبتر الإنسانيَّة . الله ومُحمَّد . تنزيه النَّبيّ يمنع الفهم السَّليم لبعض أفعاله. العقل لسان الله المُتكلِّم دائمًا . السِّياسة من النبوَّة. السِّياسة في المنظور الإسلاميِّ ليست لعبة قذرة.

.الفصل الثاني عشر........................................257

علاقة حديث الإفك بوقائع الفتنة الكبرى . المعيار الإنسانيُّ في تقدير صحيح الدِّين . السُّنة والشَّيعة أخَوان غريمان . صفات عشر تكسب صاحبها احترام النَّاس . الأصل القوميُّ للصِّراع بين السُّنَّة والشِّيعة.

الفصل الثالث عشر......................................273

عظمة مصر . صعوبة تغيير المكون المِصريّ . نجاح المسلمون العرب في تغيير المُكوِّن المِصريّ . السَّبب الحقيقيُّ في تحَوُّل مصر إلى الإسلام . مصر تُغيِّر الفقه الإسلاميّ . مصر جدار الصَّدّ الإسلاميّ . الأزهر منارة مصر الإسلاميَّة. الأزهر يمتلك مُقوِّمات المُوحِّد للأمَّة الإسلاميَّة.

الفصل الرابع عشر.......................................289

فتن آخر الزمان . تفصيل في فهم عودة الإسلام غريبًا . نظرة الفقه الإسلاميّ إلى الإبداع . الفرق بين الإبداع والابتداع . الإبداع نهضة الإسلام . موت الموت ذروة النشاط العقلي في الإسلام . إشارات توصل العلم إلى الخلود في القرآن الكريم.

مراجع الكتاب...........................................295

فهرس الكتاب...........................................298